

تفسير القرطبي

الجامع لأحكام القرآن
لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي

خيزكم من علم القرآن وعلمه
حديث شريف

دار الشعب
طبع في دار الشعب
رقم



وبه نستعين

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما

قال الشيخ الفقيه الإمام العالم العامل العلامة المحقق أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر
ابن فرح الأنصارى الخزرجى الأندلسى ثم القرطبى رضى الله عنه :

الحمد لله المبتدئ بحمد نفسه قبل أن يحمده حامد، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ،
الرب الصمد الواحد ، الحى القيوم الذى لا يموت ، ذو الجلال والإكرام ، والمواهب العظمى ،
والتكلم بالقرآن ، والخالق للإنسان ، والمنعم عليه بالإيمان ، والمرسل رسوله بالبيان ، عننا صلى الله
عليه وسلم ما اختلف الملوان ، وتماقب الحديدان ، أرسله بكتابيه المبين ، الفارق بين الشك واليقين ،
الذى أعجزت الفصحاء معارضته ، وأعيت الأكباء مناقضته ، وأخرست البلغاء مشاكلته ، فلا يأتون
بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً . جعل أمثاله عبراً لمن تدبرها ، وأوامره هدى لمن استبصرها ،
وشرح فيه واجبات الأحكام ، وفروق فيه بين الحلال والحرام ، وكرر فيه المواعظ والنقص
للأنفهام ، وضرب فيه الأمثال وقص فيه غيب الأخبار ، فقال تعالى : (مَا فَرَّقْنَا فِي الْكِتَابِ
مِنْ شَيْءٍ) خاطب به أوليائه فقهوا ، وبين لهم فيه مراده فعلموا ، فقرأ القرآن حملة سر الله
المكتون ، وحفظه علمه المخزون ، خلفاء أنبيائه وأمتائه ، وهم أهله وخاصته وخيرته وأصفيائه ، قال
رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إِنَّ اللَّهَ أَهْلَيْنِ مِثًا » قالوا : يا رسول الله من هم ؟ قال : « هم أهل
القرآن هم أهل الله وخاصته » أخرجه ابن ماجه فى سننه ، وأبو بكر البزار فى مسنده . فإحقق من
علم كتاب الله أن يزجر بنواحيه ، ويتذكر ماشرح له فيه ، ويخشى الله ويتقيه ، ويراقبه ويستحيه ،
فإنه قد حمل أعباء الرسل ، وصار شهيدا فى القيامة على من خالف من أهل الملل . قال الله تعالى :
(وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ) . ألا وإن الحجّة على من علمه فأعقله ،

أوكده منها على من قصر عنه وجهه . ومن أوقى علم القرآن فلم يرفع ، وزجرته نواهيته فلم يرتفع ؛
وارتكب من المآثم قبيحا ، ومن اجترأ فضوحا ، كان القرآن حجة عليه ، وخصما لديه ؛ قال رسول الله
صلى الله عليه وسلم : « القرآن حجة لك أو عليك » خرجه مسلم . فالواجب على من خصه الله بحفظ
كتابه أن يتلوه حتى تلاوته ، ويتدبر حقائق عبارته ؛ ويتفهم عجائبه ، ويتبين غرائبه ؛ قال الله تعالى :
(كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ) . وقال الله تعالى : (أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى
قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا) . جعلنا الله ممن يرثاه حتى رعايته ، ويتدبره حتى تدبره ؛ ويقوم بقسطه ، ويوفى
بشرطه ، ولا يلتصم الهدى في غيره ؛ وهذا لأعلامه الظاهرة ، وأحكامه القاطمة الباهرة ، وجمع
لنا به خير الدنيا والآخرة ، فإنه أهل التقوى وأهل المغفرة . ثم جعل إلى رسوله صلى الله عليه وسلم
بيان ما كان منه مجلا ، وتفسير ما كان منه مشكلا ، وتحقيق ما كان منه محتملا ؛ ليكون له مع تبليغ
الرسالة ظهور الاختصاص به ، ومثالة التفويض إليه . قال الله تعالى : (وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ كِتَابًا
لِتُبَيِّنَ مَا نَزَّلَ الْإِنَّم) . ثم جعل إلى العلماء بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم استنباط ما نبت على
معانيه ، وأشار إلى أصوله ليتوصلوا بالاجتهاد فيه إلى علم المراد ، فيمتازوا بذلك عن غيرهم ،
ويختصوا بثواب اجتهادهم . قال الله تعالى : (يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ)
فصار الكتاب أصلا والسنة له بيانا ، واستنباط العلماء لإيضاحا وتبيانا ؛ فألهم الله الذي جعل صدورنا
أوعية كتابه ، وأذننا موارد شئنه ؛ وهمنا مصروفة إلى تعلمهما والبحث عن معانيهما وغيرهما ؛
طلابين بذلك رضا رب العالمين ، ومتدربين به إلى علم الملة والدين .

(وبعد) فلما كان كتاب الله هو الكفيل بجميع علوم الشرع ، الذي استقل بالسنة والفرض ، ونزل
به أمين السماء إلى أمين الأرض ؛ رأيت أن أشتغل به مدى عمرى ، وأستفرغ فيه مئتي ؛ بأن أكتب
فيه تعليقا وجيزا ، يتضمن نكاحا من التفسير واللغات ، والإعراب والقراءات ؛ والرد على أهل الزيغ
والضلالات ، وأحاديث كثيرة شاهدة لما نذكره من الأحكام ونزول الآيات ؛ جامعا بين معانيهما ،
ومبينما أشكل منهما ؛ بأقوال السلف ، ومن تبعهم من الخلف ؛ وعلمته تذكرة لنفسى ، وذخيرة
ليوم رمى ؛ وعملا صالحا بعد موتى . قال الله تعالى : (يَنْبَأُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ) .

وقال تعالى : ﴿ عَلِمْتَ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴾ . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا مات الإنسان أقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية أو علم يُنفع به أو ولد صالح يدعو له » .
 وشرطى في هذا الكتاب إضافة الأقوال إلى قائلها ، والأحاديث إلى مصنفها ؛ فإنه يقال : من بركة العلم أن يضاف القول إلى قائله ، وكثيرا ما يحى الحديث في كتب الفقه والتفسير مبهما ، لا يعرف من أخرجه إلا من أطلع على كتب الحديث ، فيبقى من لا خبرة له بذلك حائرا لا يصرف الصحيح من السقيم ، ومعرفة ذلك علم جسيم ، فلا يقبل منه الاحتجاج به ، ولا الاستدلال حتى يضيفه إلى من أخرجه من الأئمة الأعلام ، والتفقات المشاهير من علماء الاسلام . ونحن نشير إلى جمل من ذلك في هذا الكتاب ، والله الموفق للصواب ؛ وأضرب عن كثير من قصص المفسرين ، وأخبار المؤرخين ، إلا ما لا بد منه ولا غناء عنه للتبيين . واعتضت من ذلك تبيين آى الأحكام بمسائل تسفر عن معناها ، وترشد الطالب إلى مقتضاها ، فضمنت كل آية تتضمن حكما أو حكيم فإزاد ، مسائل تبيين فيها ما تحتوى عليه من أسباب النزول والتفسير والقريب والحكم ؛ فإن لم تتضمن حكما ذكرت ما فيها من التفسير والتأويل ، هكذا إلى آخر الكتاب .

(وسميته بالجامع لأحكام القرآن ، والمبين لما تضمنته من السنة وآى الفرقان) ، جعله الله خالصا لوجهه ، وأن يتقنى به والدى ومن أراد به منته ؛ إنه سميع الدعاء قريب مجيب آمين .

باب ذكر جمل من فضائل القرآن والترغيب فيه وفضل طالبه

وقارئه ومستمعه والعامل به

اعلم أن هذا الباب واسع كبير ، ألف فيه العلماء كتب كثيرة ، نذكر من ذلك نكتا تدل على فضله ، وما أعد الله لأهله ، اذا أخلصوا الطلب لوجهه ؛ وعملوا به . فأقول ذلك أن يستشعر المؤمن من فضل القرآن أنه كلام رب العالمين غير مخلوق ، كلام من ليس كمثل شئ ، وصفة من ليس له شبه ولا ند ، فهو من نور ذاته جل وعز ؛ وأن القراءة أصوات القراء ونفائهم ، وهى أكسابهم التى يؤمرون بها فى حال ، ليحيا فى بعض العبادات ، ويندب فى كثير من الأوقات ؛ ويزجرون عنها اذا أجنبوا ؛ ويتأبون عليها وما يقبون على تركها . وهذا مما أجمع عليه المسلمون أهل الحق ونطقته به

الآثار، ودل عليها المستفيض من الأخبار؛ ولا يتعلق الثواب والعقاب إلا بما هو من أكساب العباد، على ما يأتي بيانه. ولولا أنه سبحانه - جعل في قلوب عباده من القوة على حمله ما جعله يتدبروه وليتجروا وليتذكروا ما فيه من طاعته وعبادته، وأداء حقوقه وفرائضه، لضعفت ولاذكت بمسئله، أو لتضعفت له وأنى تطبيقه؛ وهو يقول - تعالى جده - وقوله الحق : ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَلٍّ لَّرَآَيْتَهُ تَآَشِئًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ . فإين قوة القلوب من قوة الجبال ! ولكن الله تعالى رزق عباده من القوة على حمله ما شاء أن يرزقهم، فضلا منه ورحمة .

وأما ما جاء من الآثار في هذا الباب - فأقول ذلك، ما تحريه الترمذي عن أبي سعيد، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «يقول الرب تبارك وتعالى من شغله القرآن وذكري عن مساعي أعطيه أفضل ما أعطى السائقين» قال : « وفضل كلام الله على سائر الكلام كفضل الله على خلقه » قال : هذا حديث حسن غريب . وروى أبو محمد الباري السمرقندي في مسنده عن عبد الله قال : السج الطوال مثل التوراة، وللمئون مثل الإنجيل، وللمثنى مثل الزبور، وسائر القرآن بعد فضل . وأسند عن الحارث عن علي رضي الله عنه وتحرره الترمذي ، قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « ستكون قنن كقطع الليل المظلم » قلت : يا رسول الله وما المخرج منها ؟ قال : « كتاب الله تبارك وتعالى فيه نيا من قبلكم وخبر ما بعدكم وحكم ما بينكم هو الفصل ليس بالهزل من تركه من جبار قصمه الله ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله هو جبل الله المتين ونوره المبين والذكر الحكيم وهو الصراط المستقيم وهو الذي لا تزيغ به الأهواء ولا تلتبس به الألسنة ولا تشعب معه الآراء ولا يسع منه العلم ولا يملأه الأقياء ولا يخلق على كثرة الرد ولا تنقضي عجائبه وهو الذي لم تنته الجن إذ سمعته أن قالوا إنا سمعنا قرآنا عجبا من علم علمه سبق ومن قال به صدق ومن حكم به عدل ومن عمل به أجر ومن دعا إليه هدى إلى صراط مستقيم خذها إليك يا أعور » الحارث وماء الشعبي بالكذب وليس بشيء ، ولم يبين من الحارث كذب ، وإنما تم عليه إفراطه في حب علي وتفضيله له على غيره؛ ومن هاهنا والله أعلم كذبه الشعبي لأن الشعبي يذهب إلى تفضيل أبي بكر، وإلى أنه أول من أسلم. قال أبو عمر بن عبد البر : وأظن الشعبي عوقب لقوله في الحارث الممداني : حدثني الحارث وكان أحد الكفايين .

وأُسند أبو بكر محمد بن القاسم بن بشار بن محمد الأنباري النحوي اللغوي في كتاب الرد على من خالف مصحف عثمان، عن عبد الله بن مسعود، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن هذا القرآن مآدبة الله فتعلموا من مآدبته ما استطعتم إن هذا القرآن هو حلل الله لليود اللين والشقاء النافع عصمة من تمسك به ونجاة من أتبعه لا يوجع فيقوم ولا يزعج فيستعب ولا تنقص مجائبه ولا يتأخر عن رد فائزوه فإن الله يأجركم على تلاوته بكل حرف عشر حسنة أما إني لا أقول ألم حرف ولا ألفين أحدكم واضحا إحدى وجلي يدع أن يقرأ سورة البقرة فإن الشيطان يفر من البيت الذي تقرأ فيه سورة البقرة وإن أصغر البيوت من الخير البيت الصغير من كتاب الله. وقال أبو سعيد في خبره عن عبد الله قال: إن هذا القرآن مآدبة الله فمن دخل فيه فهو آمن. قال: وتأويل الحديث، أنه شبه القرآن بصنيع صنعه الله عز وجل للناس، لم فيه خير ومنافع، ثم دعاكم إليه، يقال: مآدبة ومآدبة، فمن قال: مآدبة، أراد الصنيع يصنعه الإنسان فيدعو إليه الناس، ومن قال: مآدبة فإنه يذهب به إلى الأدب، يعمل مفعلة من الأدب ويحتج بحديثه الآخر: «إن هذا القرآن مآدبة الله عز وجل فتعلموا من مآدبته» وكان الآخر يحملها لعتين بمعنى واحد، ولم أسمع أحدا يقول هذا فيه؛ والتفسير الأول أعجب إلى

وروى البخاري عن عثمان بن عفان عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «خيركم من تعلم القرآن وعلمه». وروى مسلم عن أبي موسى قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن مثل الأترجة ريحها طيب وطعمها طيب ومثل المؤمن الذي لا يقرأ القرآن مثل التمرة لا ريح لها وطعمها حلو ومثل المنافق الذي يقرأ القرآن مثل الريحانة ريحها طيب وطعمها مر ومثل المنافق الذي لا يقرأ القرآن مثل الخنزيرة لا ريح لها وطعمها مر». وفي رواية مثل الفاجر بدل المنافق. وقال البخاري: مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن يعمل به كالأترجة، طعمها طيب وريحها طيب، والمؤمن الذي لا يقرأ القرآن يعمل به كالتمر، وذكر الحديث.

وذكر أبو بكر الأنباري: وقد أخبرنا أحمد بن يحيى الحلواني حدثنا يحيى بن عبد الحميد حدثنا هشام: ح: وأبناؤنا إدريس حدثنا خلف حدثنا هشام عن الموام بن حوشب: أن أبا عبد الرحمن السلمي كان إذا ختم عليه الخاتم القرآن أجلسه بين يديه ووضع يده على رأسه، وقال له: يا هذا أتق الله فما أعرف أحدا خيرا منك أن عملت بالذي علمت! وروى النابري عن وهب الدميري قال:

من آتاه الله القرآن فقام به آتاه الليل وآتاه النهار ، وعمل بما فيه ومات على الطاعة ، بعثه الله يوم القيامة مع السفرة والأحكام . قال سعد : السفرة : الملائكة ، والأحكام : الإنبياء .

وروى مسلم عن عائشة قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة والذي يقرأ القرآن ويتتعتع فيه وهو عليه شاق له أجران » التمتع : التردد في الكلام حيا وصعوبة ، وإنما كان له أجران من حيث التلاوة ومن حيث المشقة ، ودرجات الماهر فوق ذلك كله ، لأنه قد كان القرآن متمعا عليه ، ثم ترقى عن ذلك إلى أن شبه بالملائكة ، والله أعلم . وروى الترمذي عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من قرأ حرفا من كتاب الله فله حسنة والحسنة بشر أمثالها لا أقول ألم حرف ولكن ألف حرف ولام حرف وميم حرف » . قال : حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه ، وقد روى موقوفا . وروى مسلم عن عتبة بن عامر قال : خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن في الصفة ، فقال : « أيكم يحب أن يفتدو كل يوم إلى بطحان أو العقيق فيأتى منه ثنائين كوماوين في غير إثم ولا قطيعة رحم » قلنا : يا رسول الله قلنا بحب ذلك ، قال : « أفلا يفتدو أحدكم إلى المسجد فيعلم أو يقرأ آيتين من كتاب الله عز وجل خير له من ثنائين وثلاث خير له من ثلاث وأربع خير له من أربع ومن أعدادهن من الإبل » .

وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من نفس عن مسلم كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة ومن يسر على مصسر يسر الله عليه في الدنيا والآخرة ومن ستر مسلما ستره الله في الدنيا والآخرة والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه ومن سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل الله له طريقا إلى الجنة وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة وذكروا الله فيمن عنده ومن أبطل به عمله لم يسرع به نسبه » .

وروى أبو داود والنسائي والدارقطني والترمذي عن عتبة بن عامر قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « الجاهل بالقرآن كالجاهل بالصدقة والمسر بالقرآن كالسر بالصدقة » قال الترمذي : حديث حسن غريب . وروى الترمذي عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم

(١) والأحكام مكتبة في النسخ التي رأيناها ولعل الترض وذوي الأحكام - أو موجه حكم كترتيب وأمراف أو حكم كمال وأبطال .

قال : « يحىء صاحب القرآن يوم القيامة فيقول يارب حله فليس تاج الكرامة ثم يقول يارب زده فليس حلة الكرامة ثم يقول يارب أرض عنه فيرضى عنه فيقول له اقرأ وأرق ويزاد لكل آية حسنة »
 قال : حديث صحيح ، وروى أبو داود عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
 « يقال لصاحب القرآن اقرأ وأرق ورتل كما كنت ترتل في الدنيا فإن منزلتك عند آخر آية تقرؤها »
 وأخرجه ابن ماجه في سننه عن أبي سعيد الخدري ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يقال لصاحب القرآن إذا دخل الجنة اقرأ واصعد فيقرأ ويصعد بكل آية درجة حتى يقرأ آخر شيء معه » .
 وأسند أبو بكر الأثباري عن أبي أمامة الحنصلي قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من أعطى ثلث القرآن فقد أعطى ثلث النبوة ومن أعطى ثلث القرآن فقد أعطى ثلث النبوة ومن قرأ القرآن كله فقد أعطى النبوة كلها غير أنه لا يوحى إليه و يقال له يوم القيامة اقرأ وأرق فيقرأ آية ويصعد درجة حتى يخرج مامعه من القرآن ثم يقال له أقبض فيقبض ثم يقال له أترى ما في يديك فإذا في يده اليمنى الخلد وفي اليسرى النعيم » .

حدثنا إدريس بن خلف حدثنا اسماعيل بن عياش عن تمام عن الحسن قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من أخذ ثلث القرآن وعمل به فقد أخذ أمر ثلث النبوة ومن أخذ نصف القرآن وعمل به فقد أخذ أمر نصف النبوة ومن أخذ القرآن كله فقد أخذ الأمر كله » . قال
 وحدثنا محمد بن يحيى المروزي أنبأنا محمد وهو ابن سعدان حدثنا الحسين بن محمد عن حفص عن كثير بن زاذان عن حاتم بن خمره عن علي بن رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
 « من قرأ القرآن وتلاه وحفظه أدخله الله الجنة وشفعه في حشرة من أهل بيته كل قد وجبت له النار » .
 وقالت أم الدرداء : دخلت على عائشة رضى الله عنها فقالت لها : ما فضل من قرأ القرآن طل من لم يقرأه من دخل الجنة ؟ فقالت عائشة رضى الله عنها : إن عدد آي القرآن على عدد درج الجنة ، فليس أحد دخل الجنة أفضل ممن قرأ القرآن ، ذكره أبو محمد مكي . وقال ابن عباس : من قرأ القرآن واتبع ما فيه هداه الله من الضلالة ، ووقاه يوم القيامة سوء الحساب ؛ وذلك بأن الله تبارك وتعالى يقول : (قَدْ أَتَىكَ هُدًى فَلَا تَصِلْ وَلَا تَنْسَى) . قال ابن عباس : فضمن الله لمن اتبع القرآن ألا يضل في الدنيا ولا يشقى في الآخرة ؛ ذكره مكي أيضا . وقال الليث : يقال : ما الرحمة إلى

أحد بأسرع منها إلى مستمع القرآن لقول الله جل ذكره : ﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ ولعل من الله واجبة .

وفي مسند أبي داود الطيالسي وهو أول مسند ألف في الإسلام عن عبد الله بن عمرو عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من قام بعشر آيات لم يكتب من الغافلين ومن قام بمائة آية كتب من القانتين ومن قام بالف آية كتب من المقطيرين » . والآثار في معنى هذا الباب كثيرة وفيها ذكرنا كفاية والله الموفق للهداية .

باب كيفية التلاوة لكتاب الله تعالى وما يكره منها وما يحرم وأختلاف الناس في ذلك

وروى البخاري عن قتادة قال : سألت أنسا عن قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : كان يمدّ مئلا [إذا] قرأ بسم الله الرحمن الرحيم يمدّ بسم الله ويمد بالرحمن ويمد بالرحيم .
وروى الترمذي عن أم سلمة قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقطع قراءته يقول : الحمد لله رب العالمين ثم يقف ، الرحمن الرحيم ثم يقف ، وكان يقرأ مَالِكِ يَوْمَ الدِّينِ . قال : حديث غريب . وآخره أبو داود بنحوه .

وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « أحسن الناس صوتا من إذا قرأ رأيته ينفخ الله تعالى » وروى عن زياد النخعي : أنه جاء مع القراء إلى أنس بن مالك فقبل له : اقرأ فرفع صوته وطرب وكان رفيع الصوت ، فكشف أنس عن وجهه وكان على وجهه خرقة سوداء ؛ فقال : يا هذا ما هكذا كانوا يفعلون ؛ وكان إذا رأى شيئا ينكره كشف الخرقة عن وجهه . وروى عن قيس ابن عباد أنه قال : كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يكرهون رفع الصوت عند الله كره . ومن روى عنه كراهة رفع الصوت عند قراءة القرآن سعيد بن المسيب ومسعود بن جبير والقاسم ابن محمد والحسن وابن سيرين والنخعي وغيرهم ، وكرهه مالك بن أنس وأحمد بن حنبل كلهم كره رفع الصوت بالقرآن والتطريب فيه . روى عن سعيد بن المسيب أنه سمع عمر بن عبد العزيز يرم الناس فطرب في قراءته ، فأرسل إليه سعيد يقول : - أصلحك الله - إن الأئمة لا يهتروا هكذا ، فترك عمر التطريب بمد . وروى عن القاسم بن محمد : أن رجلا قرأ في مسجد النبي (١) صبح هذا إذا كان أبو داود هو الذي قاله ولكن الذي قاله عليه ابن حبيب ليس هو الذي في الإسلام .

صلى الله عليه وسلم فلتزب، فأنكر ذلك القاسم وقال : يقول الله عز وجل : (وَأَنَّهُ لَيَتَّكِبُ عِزُّهُ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ) الآية .

وروى عن ذلك : أنه سئل عن التبر في قراءة القرآن في الصلاة فأنكر ذلك وكرهه كراهة شديدة ، وأنكر رفع الصوت به . وروى ابن القاسم عنه : أنه سئل عن الألحان في الصلاة فقال : لا يجزئ ، وقال : إنما هو غناء يتقنون به ليأخذوا عليه الدرام . وأجازت طائفة رفع الصوت بالقرآن والتطريب به ، وذلك لأنه إذا حسن الصوت به كان أوقع في النفوس وأسمع في القلوب ، واحتجوا بقوله عليه السلام : « زينوا القرآن بأصواتكم » رواه البراء بن مازب . أخرجه أبو داود والنسائي ؛ وبقوله عليه السلام : « ليس منا من لم يتغن بالقرآن » أخرجه مسلم . ويقول أبي موسى للنبي صلى الله عليه وسلم : لو أعلم أنك تستمع لقراءتي لحبته لك تحميرا ؛ وبما رواه عبد الله بن مغفل قال : قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم عام الفتح في مسير له سورة الفتح على راحته فرجع في قراءته . ومن ذهب إلى هذا أبو حنيفة وأصحابه والشافعي وابن المبارك والنضر بن شميل ، وهو اختيار أبي جعفر الطبري وأبي الحسن بن بطال والقاضي أبي بكر بن العربي وغيرهم . قلت : القول الأول أجمع لما ذكرناه ويأتي . وأما ما احتجوا به من الحديث الأول فليس على ظاهره ، وإنما هو من باب المقلوب أي زينوا أصواتكم بالقرآن . قال الخطابي : وكذا فسره فيرواح من أئمة الحديث : زينوا أصواتكم بالقرآن ؛ وقالوا : هو من باب المقلوب كما قالوا : عرضت الخوض على الثاقبة ، وإنما هو عرضت الثاقبة على الخوض ؛ قال : ورواه معمر عن منصور عن طلحة ، فقلت الأصوات على القرآن وهو الصحيح ؛ قال الخطابي : ورواه طلحة عن عبد الرحمن بن عوف عن البراء أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « زينوا القرآن بأصواتكم » أي ألججوا بقراءته وأشغلوا به أصواتكم واتخذوه شعارا وزينة ؛ وقيل : معناه الخوض على قراءة القرآن والدخول عليه . وقد روى عن أبي هريرة رضي الله عنه [أنه] قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « زينوا أصواتكم بالقرآن » وروى عن عمر أنه قال : « حسنوا أصواتكم بالقرآن » قلت : وإلى هذا المعنى يرجع قوله عليه السلام : « ليس منا من لم يتغن بالقرآن » أي ليس منا من لم يحسن صوته بالقرآن ؛ كذلك تأوله عبد الله بن أبي مليكة ، قال عبد الجبار ابن الورد : سمعت ابن أبي مليكة يقول : قال عبد الله بن أبي يزيد : مر بنا أبو لبيبة فالتجته حتى

دخل بيته فإذا رجل رث الهيئة، فسمعه يقول : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « ليس منا من لم يتغن بالقرآن » قال : فقلت لابن أبي مليكة : يا أبا عبد، أرايت إذا لم يكن حسن الصوت ؟ قال : يحسنه ما استطاع - ذكره أبو داود ، وإليه يرجع أيضا قول أبي موسى النبي صلى الله عليه وسلم : إني لو طمعت أنك تستمع لقراءتي لحسنت صوتي بالقرآن وزينته ورتلته ، وهذا يدل أنه كان يهذ في قراءته مع حسن صوته الذي جبل عليه ، والتحجير : التزين والتحصين ، فلو علم أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يسمعه لمذ في قراءته ورتلها كما كانت يقرأ على النبي صلى الله عليه وسلم ، فيكون ذلك زيادة في حسن صوته بالقراءة . ومعاذ الله أن يتأول على رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقول : إن القرآن زين بالأصوات أو بغيرها ، فمن تأول هذا فقد واقع أمرا عظيما أن يحوج القرآن إلى من زينته ، وهو النور والفضياء والزين الأصل لمن ألبس بهجته واستنار بضيائه ، وقد قيل : إن الأمر بالترين اكتساب القراءات وتزينها بأصواتها وتقدير ذلك أي زينوا القراءة بأصواتكم فيكون القرآن بمعنى القراءة ، كما قال تعالى : (وَقرآن الفجر) أي قراءة الفجر ، وقوله : (فإذا قرأناه فاتبع قرأه) أي قراءته . وكما جاء في صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو قال : إن في البحر شياطين مسجونة أوقها سليمان عليه السلام ، ويوشك أن تخرج فتقرأ على الناس قرآنا أي قراءة . وقال الشاعر في عثمان رضي الله عنه :

صعرا بأشجلى عنوان السجود به • يقطع الليل تسبيحا وقرآنا

أي قراءة ، فيكون معناه على هذا التأويل صحيحا إلا أن يخرج القراءة التي هي التلاوة عن حدها على ما نبهت فيمتنع . وقد قيل : إن معنى يتغنى به يستغنى به من الاستغناء الذي هو ضد الافتقار ، لا من الغناء ، يقال : تغنيت وتغنايت بمعنى استغنيت . وفي الصحاح : تغنى الرجل بمعنى استغنى ، وأخذه الله وتغناوا أي استغنى بعضهم عن بعض . قال المغيرة بن جندب التيمي :

كلانا غنى عن أخيه حياته • ونحن إذا متنا أشد تغانيا

والى هذا التأويل ذهب سفيان بن عيينة ووكيع بن الجراح ، ورواه مفيان عن سعد بن أبي وقاص ، وقد روي عن سفيان أيضا وجه آخر ، ذكره إسحاق بن راهويه أي يستغنى به عما سواه من الأحاديث

والى هذا التأويل ذهب البخارى - محمد بن اسماعيل لإتياع الترجمة بقوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَكُنْهُمْ أَتَا
أَتَرْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ﴾ والمراد الاستغناء بالقرآن عن علم أخبار الأمم ، قاله أهل التأويل .
وقيل : إن معنى يتنقى به يتحزن به أى يظهر على قارئه الحزن الذى هو صفة السرور عند قراءته
وتلاوته ، وليس من الغنى لأنه لو كان من الغنى لقال : يتغنى به ولم يقل يتنقى به . ونذهب الى
هذا جماعة من العلماء : منهم الإمام أبو محمد بن حبان البستي ، واحتجوا بما رواه معاذ بن عبد الله
ابن الشخير عن أبيه ، قال : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يصل ولصدره أزيز كآزيز المرحل
من البكاء . الأزيز زباين : صوت الرعد وغليان القدر . قالوا : ففى هذا الخبر بيان واضح على أن
المراد بالحدث التحزن ، وعضدوا هذا أيضا بما رواه الأئمة عن عبد الله قال : قال لى النبي صلى الله
عليه وسلم : « اقرأ على » فقرأت عليه سورة النساء حتى إذا بلغت ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ
بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴾ فنظرت إليه فإذا عيظه تلعمان ، فهذه أربعة تأويلات ليس فيها
ما يدل على القراءة بالألحان والترجيع فيها . وقال أبو سعيد بن الأصبغ فى قوله صلى الله عليه وسلم :
« ليس منا من لم يتغن بالقرآن » قال : كاتب العرب تولع بالفناء والنشيد فى أكثر أقوالها ، فلما نزل
القرآن أحبوا أن يكون القرآن هجرهم مكان الفناء ، فقال : « ليس منا من لم يتغن بالقرآن » .

التأويل الخامس ما تأوله من استدلل به على الترجيع والتطريب فذكر عمر بن شبة قال : ذكرت
لأبي عاصم النبيل تأويل ابن عيينة فى قوله : يتغن يستغنى ، فقال : لم يصنع ابن عيينة شيئا ، وسئل
الشافعى عن تأويل ابن عيينة فقال : نحن أعلم بهننا ، لو أراد النبي صلى الله عليه وسلم الاستغناء
لقال : من لم يستغن ، ولكن لما قال : « يتغن » علمنا أنه أراد التغنى . قال الطبري : المعروف
عندنا فى كلام العرب أن اتغنى اتعابا هو الفناء الذى هو حسن الصوت بالترجيع . وقال الشاعر :

تغن بالشعر مهما كنت قائله * إن الفناء لهذا الشعر مضار

قال : وأما آداه الزاعم أن تغنى بمعنى استغنى فليس فى كلام العرب وأشباهها ، ولا نعلم
أحدنا من أهل العلم قاله ، وأما احتجاجه بقول الأعشى :

وسكنت أمرا زما بأكرام * خفيف المنأخ طويل التن

وزعم أنه أراد الاستثناء فانه غلط منه، وانما عني الأعشى في هذا الموضع الالافمة، من قول العرب : غنى فلان بمكان كذا أى أقام. ومنه قوله تعالى : (كَأَن لَّمْ يَفْتَنُوا فِيهَا) وأما استنهاده بقوله :
• ونحن إذا متنا أشد تنافيا •

فانه إغفال منه، وذلك أن التنافى شامل من نفسين إذا استغنى كل واحد منهما عن صاحبه، كما يقال تضارب الرجلان إذا ضرب كل واحد منهما صاحبه . ومن قال هذا في فصل الاثنين لم يجر أن يقول مثله في الواحد . فغير جائز أن يقال : تنافى زيد وتضارب عمرو؛ وكذلك غير جائز أن يقال : تنافى بمعنى استغنى .

قلت : ما أذهاه الطبري من أنه لم يرد في كلام العرب تنافى بمعنى استغنى، لقد ذكره الجوهري كما ذكرنا ، وذكره المروى أيضا . وأما قوله : إن صيغة فاعل انما تكون من اثنين فقد جاءت من واحد في مواضع كثيرة : منها قول ابن عمر : وأنا يومئذ قد تاهزت الاحتمال . وقول العرب : طارقت النعل وعاقبت اللبس ودأويت الليل، وهو كثير، فيكون تنافى منها . وإذا احتمل قوله عليه الصلاة والسلام : « يتنن » الفناء والاستثناء فليس جملة على أحدهما بأولى من الآخر، بل جملة على الاستثناء أولى، لو لم يكن لنا تأويل غيره ، لأنه مروى عن صحابي كبير كما ذكر سفيان . وقد قال ابن وهب في حق سفيان : ما رأيت أعلم بتأويل الأحاديث من سفيان بن عيينة ، ومعلوم أنه رأى الشافعي وعاصره .

وتأويل سادس وهو ما جاء من الزيادة في صحيح مسلم عن أبي هريرة أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « ما أذن الله لشيء أذنه لنبي حسن الصوت يتغنى بالقرآن يهر به » : قال الطبري : ولو كان كما قال ابن عيينة لم يكن لذكر حسن الصوت والجر به معنى . قلنا : قوله : يهر به لا يخلو أن يكون من قول النبي صلى الله عليه وسلم أو من قول أبي هريرة أو غيره ، فإن كان الأول وفيه بعد فهو دليل على عدم التطريب والترجيح لأنه لم يقل : يطرب به، وإنما قال : يهر به أى يسمع نفسه ومن يليه . بدليل قوله عليه السلام للذي سمعه وقد رفع صوته بالتبليل : « أياها الناس أربها على أنفسكم فإنكم لستم تدعون أحسن ولا غائبا » الحديث . وسيأتى وكذلك إن كان من صحابي أو غيره فلا حجة فيه على ما راموه؛ وقد اختار هذا التأويل بعض علمائنا فقال : وهذا

أشبه لأن العرب تسمى كل من رفع صوته ووالى به غانياً ، وقوله ذلك غظه وإن لم يلمحه بتلعين الفناء قال : وصل هذا فسر الصعابي وهو أعلم بالقال وأقعد بالحال .

وقد احتج أبو الحسن بن بطل لمذهب الشافعي فقال : وقد رفع الإشكال في هذه المسألة ما رواه ابن أبي شيبة ، قال : حدثنا زيد بن الحباب قال حدثنا موسى بن علي بن رباح عن أبيه عن عتبة ابن عامر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « تعلموا القرآن وفتوا به واكتبوه فوالذي نفسي بيده لو أشدّ نفعاً من الخاض من النُّقْل » قال علماؤنا : وهذا الحديث وإن صحّ سببه فبرده ما يعلم على القطع والبيان من أن قراءة القرآن تلقيناً متواترة عن كافة المشايخ جيلاً بجيل إلى العصر الكريم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وليس فيها تلعين ولا تطريب ، مع كثرة المتصفيين في مخارج الحروف وفي المد والإدغام والإظهار وغير ذلك من كيفية القراءات . ثم إن في الترجيع والتطريب هز ما ليس بمهموز ومد ما ليس بمدود ، فترجع الألف الواحدة ألفات والواو الواحدة واوَات والشبهة الواحدة شبات فيؤدّي ذلك إلى زيادة في القرآن وذلك ممنوع ، وإن وافق ذلك موضع نبر وهمز صيروها نبرات وهمزات ، والبرة حيثما وقعت من الحروف فإنما هي همزة واحدة لا غير ، إما ممدودة وإما مقصورة . فإن قيل : وقد روى عبد الله بن مغفل قال : قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم في سيره سورة الفتح على راحته فرجع في قراءته ، وذكره البخاري وقال في صفة الترجيع : آه آه ثلاث مرات .

قلنا : ذلك محمول على إشباع المد في موضعه ، ويحتمل أن يكون حكاية صوته عند هز الراحلة كما يعتري رافع صوته إذا كان راجعاً من انضباط صوته وتطعيه لأجل هز المزكوب ، وإذا احتمل هذا فلا حجة فيه . وقد خرج أبو محمد عبد النبي بن سعيد الحافظ من حديث قتادة عن عبد الرحمن ابن أبي بكر عن أبيه قال : كانت قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم المد ليس فيها ترجيع . وروى ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم مؤذن يطرب ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الأذان سهل وإذا كان أذانك ممحاً سهلاً وإلا فلا تؤذن » أخرجه الدارقطني في سننه . فإذا كان النبي صلى الله عليه وسلم قد منع ذلك في الأذان فأحرى ألا يؤذنه في القرآن الذي حفظه الرحمن ، فقال وقوله الحق : (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) .
وقال تعالى : (لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَقْرِئُ مِنْ حِكْمٍ مَجِيدٍ) .

(١) لعل أهل العبارة - والذين قرأوا شبات - أمروا بقراءة الواحدة ثلاثاً .

قلت : وهذا الخلاف انما هو ما لم يفهم معنى القرآن بتريد الأصوات وكثرة الترجمات ، فان زاد الأمر على ذلك حتى لا يفهم معناه فذلك حرام باتفاق كما يفعل القراء بالذيار المصرية الذين يقرءون أمام الملوك والجنائز ، ويأخذون على ذلك الأجور والجوائز ، ضل سعيهم ، وخاب عملهم ، فيستحلون بذلك تغيير كتاب الله ، ويؤثرون على أنفسهم الاجترأ على الله بأن يزيدوا في تنزيله ما ليس فيه ، جهلا بدينهم ومروقا عن سنة نبيهم ، ورفضاً لسير الصالحين فيه من سلفهم ، وزوعاً الى ما يزين لهم الشيطان من أعمالهم ، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ؛ فهم في غيهم يترددون ، ويكاتب الله يتلاعبون ، فإنا لله وإنا إليه راجعون ، لكن قد أخبر الصادق أن ذلك يكون فكان كما أخبر صلى الله عليه وسلم .

ذكر الامام الحافظ أبو الحسين رزين وأبو عبد الله الترمذى الحكيم في نوادر الأصول من حديث حذيفة : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «اقرأوا القرآن بلحون العرب وأصواتها وإياكم ولحون أهل الفسق ولحون أهل الكاين وسيجيء بعدى قوم يرجعون بالقرآن ترجيع الغناء والنوح لا يماوز حناجرهم مفتونة قلوبهم وقلوب الذين يعجبهم شأنهم» . اللحن : جمع لحن وهو التطريب وترجيع الصوت وتحسينه بالقراءة والشعر والغناء .

قال علماؤنا : ويشبه أن يكون هذا الذى يفعله قراء زماننا بين يدى الوعاظ وى المجالس من اللحن الأعجمية التى يقرءون بها ، ما نهى عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم . والترجيع فى القراءة تريد الحروف كقراءة النصارى ، والترتيل فى القراءة هو التانى فيها والتهمل وتبيين الحروف والحركات تشبها بالنثر المرتل وهو المشبه بنور الأقوان وهو المطلوب فى قراءة القرآن ؛ قال الله تعالى : ﴿ وَتَرَى الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً ﴾ . وسئلت أم سلمة عن قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم وصلاته فقالت : ما لكم وصلاته ! ثم نعمت قراءته فإذا هى تمت قراءة مفسرة حرفاً حرفاً . أخرجه النسائى وأبو داود والترمذى وقال : هذا حديث حسن صحيح غريب ؛

باب تحذير أهل القرآن والعلم من الرياء وغيره

قال الله تعالى : ﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ﴾ . وقال تعالى : ﴿ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَسْلُمْ سَلَامًا وَلَا يُتْرِكَ لِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾ . روى مسلم عن أبى هريرة قال : سمعت رسول

الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن أول الناس يقضى عليه يوم القيامة رجل استشهد فأتى به فزفه نعمه فرفها قال فما علمت فيها قال فأكنت فيك حتى استشهدت قال كذبت ولكنك فأكنت لفيك جرى . فقد قيل ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار ورجل تعلم العلم وعلمه وقرأ القرآن فأتى به فزفه نعمه فرفها قال فما علمت فيها قال تعلمت العلم وعلمته وقرأت فيك القرآن قال كذبت ولكنك تعلمت العلم ليقال علم وقرأت القرآن ليقال هو قارئ فقد قيل ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار ورجل وسع الله عليه وأعطاه من أصناف المال كله فأتى به فزفه نعمه فرفها قال فما علمت فيها قال ما تركت من سبيل تحب أن يتفق فيها إلا أنهقت فيها لك قال كذبت ولكنك فعلت ليقال هو جواد فقد قيل ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار . وقال الترمذي في هذا الحديث : ثم ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم على ركبتي ، فقال : « يا أبا هريرة أولئك الثلاثة أول خلق الله تسعيرهم النار يوم القيامة » . أبو هريرة اسمه عيد الله وقيل : عيد الرحمن ، وقال : كذبت أبا هريرة لأنني حملت هرة في كفي فראني رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : « ما هذه » قلت : هرة ، فقال : « يا أبا هريرة » . قال ابن عبد البر : وهذا الحديث فيمن لم يرد بسمله وعلمه وجه الله تعالى . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من طلب العلم لنير الله أو أراد به غير الله فليتبوأ مقعده من النار » .

ونخرج ابن المبارك في رقايقه عن العباس بن عبد المطلب قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يظهر هذا الدين حتى يحاوز البحار وحتى تخاض البحار بالليل في سبيل الله تبارك وتعالى ثم يأتي أقوام يقرءون القرآن فإذا قرعوه قالوا من أنفأ منا من أعلم منا » ثم انفتحت إلى أصحابه فقال : « هل ترون في أولئك من خير » قالوا : لا قال : « أولئك منكم وأولئك من هذه الأمة وأولئك هم وقود النار » . وروى أبو داود والترمذي عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من تعلم علماً مما يتفنى به وجه الله لا يتعلمه إلا ليصيب به عرضاً من الدنيا لم يجد عرف الجنة يوم القيامة » يعني ربحها . قال الترمذي : حديث حسن . وروى عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « تؤذوا بالله من جب الحزن » قالوا : يا رسول الله وما جب الحزن ؟ قال : « وأد في جهنم تؤذونه منه جهنم في كل يوم مائة مرة » قيل : يا رسول الله ، ومن يدخله ؟ قال : « التزاة »

المراحم بإعمالهم » قال : هذا حديث غريب . وفي كتاب أسد بن موسى : أت النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إن في جهنم لواديا إن جهنم لتعوذ من شر ذلك الوادي كل يوم سبع مرات وإن في ذلك الوادي لبلبا إن جهنم وذلك الوادي ليتعوذان بالله من شر ذلك الحب وإن في الحب لحية وإن جهنم والوادي والحب ليتعوذون بالله من شر تلك الحية سبع مرات أصلا الله للأشقياء من حملة القرآن الذين يصعبون الله » فيجب على حامل القرآن وطالب العلم أن يتق الله في نفسه ويخلص العمل لله ، فإن كان يتق له شيء مما يكره فليادر التوبة والإجابة ، وليتدبئ بالإخلاص في التوبة وعمله ، فألذي يلزم حامل القرآن من التحفظ أكثر مما يلزم غيره ، كما أن له من الأجر ما ليس لغيره . وروى الترمذي عن أبي الدرداء قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أنزل الله في بعض الكتب أو أوحى إلى بعض الأنبياء قل للذين يتفقهون لغير الدين ويتعلمون لغير العمل ويطلبون الدنيا بعمل الآخرة يلبسون للناس مسوك البكاش وقلوبهم كقلوب الذئاب ألتهم أحل من العسل وقلوبهم أمر من الصبر : لما يمتدحون ويستمعون لا يمتحن لهم فتنة تذر الحليم فيهم حيران » .

ونخرج الطبري في كتاب آداب النفوس : حدثنا أبو كريب محمد بن العلاء حدثنا الحارث بن عمرو بن عاصم الجبل عن ابن صدقة عن رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم أو من حديثه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تخادع الله فإنه من يخادع الله يخدعه الله نفسه يخدع لو بشيء » قالوا : يا رسول الله وكيف يخادع الله ؟ قال : « تعمل بما أمرك الله به وتطلب به غيره وأتقوا الرياء فإنه الشرك وإن المرأى يدعى يوم القيامة على رموس الأشهاد بأربعة أسماء ينسب إليها يا كافر يا فاجر يا غادر يا خاسر فسل عملك وبطل أجرك فلا خلاق لك اليوم فالتمس أجرك من كنت تعمل له يا مخادع » . وروى طه بن عبيد الله بن مسعود قال : كيف أتتم إذا لمستم فتنة يربو فيها الصغير ويهرم الكبير وتتخذ سنة مبتدعة يجرى عليها الناس فإذا غير منها شيء قيل : قد ضرت السنة قيل : متى ذلك يا أبا عبد الرحمن ؟ قال : إذا كثرت أترائك ، وكثر أفعالك ، وكثر أمتراك ، وكثر أمتاؤك ، واتمست الدنيا بعمل الآخرة ، وتفق لغير الدين . وقال سفيان بن عيينة : بلغنا عن ابن عباس أنه قال : لو أن حملة القرآن أخذوه بمقته وما ينبغي لأحبهم الله ، ولكن طلبوا به الدنيا

(١) في بعض النسخ « أبو بكر بن محمد » والصواب ما أوردناه .

فأبغضهم الله، وهاتوا على الناس . وروى عن أبي جعفر محمد بن علي في قول الله تعالى : ﴿ فَكَبِّرُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَائِبُونَ ﴾ قال : قوم وصفوا الحق والعدل بالسقم ، وثانفوه الى غيره . وسيأتي لهذا الباب مزيد بيان في أثناء الكتاب إن شاء الله تعالى .

باب ما ينبغي لصاحب القرآن أن يأخذ نفسه به ولا يغفل عنه .

أقول ذلك أن يخلص في طلبه لله جل وعز كما ذكرنا ، وأن يأخذ نفسه بقراءة القرآن في ليله ونهاره في الصلاة أو في غير الصلاة ثلاثا يسه . روى مسلم عن ابن عمر : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إنما مثل صاحب القرآن كمثل صاحب الإبل المعلقة إن عاهد عليها أمسكها وإن أطلقها ذهبته وإذا قام صاحب القرآن قرأه بالليل والنهار ذكره ، وإن لم يقرأ به نسيه » وينبغي له أن يكون لله حامدا ، ولنعمه شاكرا ، وله ذاكرا ، وعليه متوكلا ، وبه مستعينا ، وإليه راغبا ، وبه مستعيا ، ولولت ذاكرا ، وله مستعنا . وينبغي له أن يكون خائفا من ذنبه ، راجيا مغفوره ، ويكون الخوف في محبة أطلب إليه ، إذ لا يعلم بما يغتم له ، ويكون الرجاء عند حضور أجله أقوى في نفسه ، لحسن الظن بالله . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا يموت أحدكم إلا وهو يحسن بالله الظن » أي أنه يرجوه ويفرله . وينبغي له أن يكون عالما بأهل زمانه ، متحفظا من سلطانه ، سامعا في خلاص نفسه ، ونجاة مهجته ، مقاما بين يديه ما يقدر عليه من عرض دنياه ، مجاهدا لنفسه في ذلك ما استطاع . وينبغي له أن يكون أهم أموره عنده الورع في دينه ، واستعمال تقوى الله ومراقبته فيما أمره به ونهاه عنه . وقال ابن مسعود : ينبغي لقارئ القرآن أن يعرف بلبه إذا الناس تأمّنون ، وبناهاره إذا الناس مستيقظون ، وبسكاته إذا الناس يضحكون ، وبصمته إذا الناس يخوضون ، وبخشوعه إذا الناس يخجلون ، وبجوزه إذا الناس يفرحون . وقال عبد الله بن عمرو : لا ينبغي لحامل القرآن أن يخوض مع من يخوض ، ولا يجهل مع من يجهل ، ولكن يسفو ويصفع لحق القرآن ، لأن في جوفه كلام الله تعالى . وينبغي له أن يأخذ نفسه بالتصاوين عن طرق الشهوات ، ويقل الضحك والكلام في مجالس القرآن وفيها بما لا فائدة فيه ، ويأخذ نفسه بالحلم والوقار ، وينبغي له أن يتواضع للفقراء ويتعجب التكبر والإعجاب ويتقيا عن الدنيا وأبنائها إن خاف على نفسه الفتنة ، ويترك الخلد والمراء ، ويأخذ نفسه بالرفق والأدب . وينبغي له أن يكون عن يؤمن شرة ،

ويرى خيره ويسلم من ضرره، وألا يسمع ممن نم عنده؛ ويصاحب من يعاونه على الخير ويذله على الصلح ومكارم الأخلاق، ويرينه ولا يشينه. وينبغي له أن يتعلم أحكام القرآن، فيفهم عن الله مراده وما فرض عليه، فينتفع بما يقرأ ويعمل بما يتلو. فما أفتح لحامل القرآن أن يتلو فرائضه وأحكامه عن ظهر قلب وهو لا يفهم ما يتلو، فكيف يعمل بما لا يفهم معناه. وما أفتح أن يسأل عن فقه ما يتلو ولا يدره؛ فممثل من هذه الحالة إلا كتل الحمار يحمل أسفارا. وينبغي له أن يعرف المكي من المدني ليفرق بذلك بين ما خاطب الله به عباده في أول الإسلام، وما نذهب إليه في آخر الإسلام، وما افترض الله في أول الإسلام، وما زاد عليهم من الفرائض في آخره. فالمدني هو الناصح للمكي في أكثر القرآن، ولا يمكن أن يفسخ المكي للمدني لأن المنسوخ هو المتقدم في النزول قبل الناسخ له. ومن كماله أن يعرف الإعراب والغريب، فذلك مما يسهل عليه معرفة ما يقرأ، ويزيل عنه الشك فيما يتلو. وقد قال أبو جعفر الطبري: سمعت الجرجي يقول: أنا منذ ثلاثين سنة أفتى الناس في الفقه من كتاب سيويه، قال محمد بن يزيد: وذلك أن أبا عمر الجرجي كان صاحب حديث، فلما علم كتاب سيويه تفقه في الحديث، إذ كان كتاب سيويه يتعلم منه النظر والتفسير، ثم ينظر في السنن الماثورة الثابتة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، فيها يصل الطالب إلى مراد الله عز وجل في كتابه، وهي فتوح له أحكام القرآن فصحا، وقد قال الضحاك في قوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكُتَّابَ﴾. قال: حق كل من تعلم القرآن أن يكون قهيا.

وذكر ابن أبي الحوارى قال: أتينا فضيل بن عياض سنة خمس وثمانين ومائة ونحن جماعة، فوقفنا على الباب فلم يأذن لنا بالدخول، فقال بعض القوم: إن كان خارجا لثني، فسيخرج ثلاثرة القرآن، فأمرنا قارئا فقرأ فأطلع علينا من كوة، قلنا: السلام عليك ورحمة الله، فقال: وعليكم السلام، قلنا: كيف أنت يا أبا علي، كيف حالك؟ فقال: أنا من الله في مافية ومنكم في أذى، وإن ما أتم فيه حلت في الإسلام، فإنا لله وإنا إليه راجعون، ما هكذا كنا نطلب العلم، ولكننا كنا نأتي المشيخة فلا نرى أنفسنا أهلا للجلوس معهم، فنجلس دونهم ونسرق السمع، فإذا مر الحديث سالناهم إعادته وقيدناه، وأتم طلبون العلم بالجهل، وقد ضيعتم كتاب الله ولو طلبتم كتاب الله لوجدتم فيه شفاء لما تريدون، قال: قلنا قد تعلمنا القرآن، قال: إن في تعلمكم القرآن شغلا لأعماركم

وأعمار أولادكم؛ قلنا: كيف يا أبا علي؟ قال: لن تعلموا القرآن حتى تعرفوا إعرابه، ومحكمه من متشابهه، وناسخه من منسوخه؛ فإذا عرفت ذلك استغنيت عن كلام فضيل وآبن عينة، ثم قال: أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم، بسم الله الرحمن الرحيم ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّلُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ . قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ .

قلت: فإذا حصلت هذه المراتب لقارئ القرآن كان ماهرا بالقرآن، وعالما بالفرقان؛ وهو قريب على من قربه الله عليه، ولا يتفجع بشيء، مما ذكرنا حتى يخلص النية فيه لله جل ذكره عند طلبه أو بعد طلبه كما تقدم. فقد يتدنى الطالب للعلم يريد به المباهاة والشرف في الدنيا، فلا يزال به فهم العلم حتى يتبين أنه على خطأ في اعتقاده فيتوب من ذلك ويخلص النية لله تعالى، فيتفجع بذلك ويحسن جاله. قال الحسن: كنا نطلب العلم للدنيا نجوزنا إلى الآخرة. وقاله سفيان الثوري. وقال حبيب بن أبي ثابت: طلبنا هذا الأمر وليس لنا فيه نية ثم جاءت النية بعد.

باب ما جاء في إعراب القرآن وتعليمه والحث عليه وثواب من قرأ القرآن معربا
قال أبو بكر بن الأنباري: جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم، وعن أصحابه وتابعيه رضوان الله عليهم من تفضيل إعراب القرآن، والحرص على تعليمه، وذم الخن وكراهيته ما وجب به على قراء القرآن أن يأخذوا أنفسهم بالاجتهاد في تعلمه.

من ذلك ما حدثنا يحيى بن سليمان الضبي قال حدثنا محمد - يعني ابن سعيد - قال حدثنا أبو معاوية عن عبد الله بن سعد المقرئ عن أبيه عن جده عن أبي هريرة: أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «أعربوا القرآن واتمسوا غرائبه». حدثني أبي قال حدثنا إبراهيم بن الحيثم قال حدثنا آدم - يعني ابن أبي إياس - قال حدثنا أبو الطيب المروزي قال حدثنا عبد العزيز بن أبي رواد عن نافع عن ابن عمر، قل: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من قرأ القرآن فلم يعرفه وكل به ملك يكتب له كما أنزل بكل حرف عشرين حسنة فإن أعرب بعضه وكل به بملكان يكتبان له بكل حرف عشرين حسنة فإن أعرب به وكل به أربعة أملاك يكتبون له بكل حرف سبعين حسنة». وروى جوير عن الضحاك قال: قال عبد الله بن مسعود: جردوا القرآن وزينوه بأحسن

الأسوات ، وأعروه فانه عريّ ولقي يجب أن يعرب به . وعن مجاهد عن ابن عمر قال : أعربوا القرآن . وعن محمد بن عبد الرحمن بن زيد قال : قال أبو بكر وعمر رضي الله عنهما : إعراب القرآن أحب إلينا من حفظ حروفه . وعن الشعبي قال : قال عمر رحمه الله : من قرأ القرآن فأعربه كان له عند الله أجر شهيد . وقال مكحول : بلغني أن من قرأ بإعراب كان له من الأجر ضعفان ممن قرأ غير إعراب . وروى ابن جريح عن عطاء عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أحب العرب لثلاث لثني عريّ والقرآن عريّ وكلام أهل الجنة عريّ » . وروى سيفان عن أبي حمزة قال : قيل للحسن في قوم يتعلمون العربية قال : أحسنوا ، يتعلمون لغة نبيهم صلى الله عليه وسلم . وقيل للحسن : إن لنا إماما يلحن ، قال : أعروه .

وعن ابن أبي مليكة قال : قدم أعرابي في زمان عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فقال : من يقرئني مما أنزل الله على عبد صلى الله عليه وسلم ؟ قال : فأقرأه رجل براءة ، فقال : أن الله برئ من المشركين ورسوله بالجو ، فقال الأعرابي : أو قد برئ الله من رسوله ! فإن يكن الله برئ من رسوله فانا أبرأ منه ، فبلغ عمر مقالة الأعرابي فنداه ، فقال : يا أعرابي أتبنا من رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال : يا أمير المؤمنين ، إني قمت المدينة ولا علم لي بالقرآن فسألت من يقرئني ، فأقرأني هذا سورة براءة ، فقال : أن الله برئ من المشركين ورسوله ، قلت : أو قد برئ الله من رسوله ، إن يكن الله برئ من رسوله فانا أبرأ منه ، فقال عمر : ليس هكذا يا أعرابي ، قال : فكيف هي يا أمير المؤمنين ؟ قال : (أَنَّ اللَّهَ بَرِيٌّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ) فقال الأعرابي : وأنا والله أبرأ مما برئ الله ورسوله منه ، فأمر عمر بن الخطاب رضي الله عنه ألا يقرئ الناس إلا عالم باللغة ، وأمر أبا الأسود فوضع النحو .

وعن علي بن الجعد قال : سمعت شعبة يقول : مثل صاحب الحديث الذي لا يعرف العربية مثل الحمار عليه غلالة لا يلق فيها . وقال حماد بن سلمة : من طلب الحديث ولم يتعلم النحو أو قال العربية فهو كمثل الحمار تلقى عليه غلالة ليس فيها شعير . قال ابن عطية : إعراب القرآن أصل في الشريعة ، لأن بذلك تقوم معانيه التي هي الشرع .

قال ابن الأثيري : وجاء عن أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وتابعهم رضوان الله عليهم ، من الاحتجاج على غريب القرآن ومشكله باللغة والشعر ما بين صحة مذهب النحويين في ذلك ، وأوضح

فساد مذاهب من أنكر ذلك عليهم . من ذلك ما حدثنا عبيد بن عبد الواحد بن شريك البزاز قال حدثنا ابن أبي مريم قال : أنبأنا ابن فروخ ، قال أخبرني أسامة قال أخبرني عكرمة : أن ابن عباس قال : إذا سألوني عن غريب القرآن فأتهموه في الشعر ، فإن الشعر ديوان العرب . وحدثنا إدريس ابن عبد الكريم قال حدثنا خلف قال حدثنا حماد بن زيد عن علي بن زيد بن جدعان قال سمعت سعيد بن جبيرة ويوسف بن مهران يقولان : سمعنا ابن عباس يسأل عن الشيء من القرآن فيقول فيه هكنا وهكنا ، أما سمعتم الشاعر يقول كذا وكذا . وعن عكرمة عن ابن عباس ، وسأله رجل عن قول الله جل وعز : ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾ قال : لا تلبس ثيابك على غدر ، وتمثل بقول غيلان التقي :

فإني بعد الله لا ثوبَ غديرٍ لَيْسْتُ وَلَا مِنْ سَوَةِ أَتْعِ

وسأل رجل عكرمة عن الزنيم قال : هو ولد الزنا ، وتمثل بهت شعر :

زَنِيمٌ لَيْسَ يُعْرِفُ مَنْ أَبُوهُ بَنَى الْأُمُّ ذُو حَسِبٍ لَتِيمٍ

وعنه أيضا الزنيم : الدعي الفاحش اللئيم ، ثم قال :

زَنِيمٌ تَدَاعَاهُ الرِّجَالُ زِيَادَةً كَمَا زِيدَ فِي عَرَضِ الْأَدِيمِ أَكْرَامُهُ

وعنه في قوله تعالى : ﴿ ذَوَاتَا أَفْتَانٍ ﴾ قال : ذواتا ظل وأغصان ، ألم تسمع الى قول الشاعر :

ما حاج شوقك من هديل حامية تدعو على قنن النصوص حماما
تدعو أبا فرخين صادف حائرا ذا حيلين من الصقور فطاما

وعن عكرمة عن ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ ﴾ قال : الأرض ، قاله ابن عباس ، وقال أمية بن أبي الصلت : « عندهم لخم وبحر ولخم ساهرة » . قال ابن الأنباري : والرواة يروون هذا البيت :

وفيها لخم ساهرة وبحير وما فاهوا به لخم مقيم

(١) أورد الألويسي في تفسيره روح المعاني هذا البيت عند قوله تعالى « وثيابك فطهر » برأيه أخرى هكذا :

فإني بعد الله لا ثوبَ غديرٍ لَيْسْتُ وَلَا مِنْ بَدْرَةِ أَتْعِ

(٢) كذا في الأصول ولعل ابن عباس يريد ما تحبسه البيت التي قاله أمية والذي ذكره ابن الأنباري فإني والله منزهة

قول ابن الأنباري صاحب البيان في مادة سهر وصاحب تفسير روح المعاني ج ١ ص ٢٨٦ طبع بولاق .

وقال نافع بن الأزرق لابن عباس: أخبرني عن قول الله جل وعز: (لَا تَأْخُذْ سِتْرَةَ وَلَا تَوْمَ)
ما السِتْرَةُ؟ قال: الناس؛ قال زهير بن أبي سلمى:

لَا سِتْرَةَ فِي طَوَالِ اللَّيْلِ تَأْخُذُهُ = وَلَا يَسَامُ وَلَا فِي أَمْرِهِ فَتُسَدُّ^(١)

باب ما جاء في فضل تفسير القرآن وأهله

قال ملائكة راحة الله عليهم:

وأما ما جاء في فضل التفسير من الصعوبة والثابته، فمن ذلك: أن علي بن أبي طالب رضي الله عنه ذكر جابر بن عبد الله ووصفه بالعلم؛ فقال له رجل: — جمعت فداك — تصف جابرا بالعلم وأنت أنت! فقال: إنه كان يعرف تفسير قوله تعالى: (إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَأْدُكَ إِلَى مَصَادِقِهِ) . وقال مجاهد: أحب الخلق إلى الله تعالى أعلمهم بما أنزل. وقال الحسن: والله ما أنزل الله آية إلا أحب أن يعلم فيما أنزل وما يعني بها. وقال الشعبي: رجل مسروق إلى البصرة في تفسير آية، فقيل له أنت الذي يفسرها رجل إلى الشام، فتجهز ورجل إلى الشام حتى علم تفسيرها. وقال حكمة: في قوله عز وجل: (وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ) طلبت اسم هذا الرجل أربع عشرة سنة حتى وجدته. وقال ابن عبد البر: هو ضمرة بن حبيب وسأني. وقال ابن عباس: مكثت سنتين أريد أن أسأل عمر عن المرأتين اللتين تظاهرتا على رسول الله صلى الله عليه وسلم، ما يعنيهما إلا مهاجته، فسأته فقال: هي حفصة وعائشة. وقال إياس بن معاوية: مثل الذين يقرءون القرآن وهم لا يعلمون تفسيره، كشبل قوم جامع كتاب من ملكهم ليلا وليس عندهم مصباح، فتداخلتهم روعة ولا يدرون ما في الكتاب؛ ومثل الذي يعرف التفسير كمثل رجل جاءهم بمصباح فقرأوا ما في الكتاب.

باب ما جاء في حامل القرآن ومن هو وفيمن عاده

قال أبو عمر: روى من وجوه فيها لين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: « من تعظيم جلال الله إكرام ثلاثة، الإمام الملقط، وذو الشبهة المسلم، وحامل القرآن غير التالى فيه ولا الجاني عنه »

وقال أبو عمر : وحمل القرآن هم المألون بأحكامه ، وحلاله وحرامه ، والمألون بما فيه . وروى أنس : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « القرآن أفضل من كل شيء فمن قرأ القرآن فقد وقرأه ومن استخف بالقرآن استخف بحق الله تعالى حملة القرآن هم المحفوفون برحمة الله المعظمون كلام الله الملهسون نور الله فمن والاهم فقد والى الله ومن عاداهم فقد استخف بحق الله تعالى » .

باب ما يلزم قارئ القرآن وحامله من تعظيم القرآن وحرمة

قال الترمذي الحكيم أبو عبد الله في نوادر الأصول : فمن حرمة القرآن ألا يمسها إلا طاهراً . ومن حرمة أن يقرأ وهو على طهارة . ومن حرمة أن يسلك ويتخلل فيطيب فاه ، إذ هو طريقه . قال يزيد بن أبي مالك : إن أنواعكم طرق من طرق القرآن ، فطهروها ونظفوها ما استطعتم . ومن حرمة أن يتلصص كما يتلصص للدخول على الأمير لأنه مناج . ومن حرمة أن يستقبل القبلة لقراءته . وكان أبو العالية إذا قرأ أغم ولبس وارتنى واستقبل القبلة . ومن حرمة أن يتخضمض كلما تنح . وروى شعبة عن أبي حمزة عن ابن عباس : أنه كان يكون بين يديه تور إذا تنح مضمض ثم أخذ في الذكر وكان كلما تنح مضمض . ومن حرمة إذا تناب أن يمسك عن القراءة لأنه إذا قرأ فهو مخاطب بربه ومناج ، والتناوب من الشيطان . قال مجاهد : إذا تنابت وأنت تقرأ القرآن فأسك عن القرآن تعظيماً حتى يذهب تنابك . قال عكرمة : يريد أن في ذلك الفعل إجلالاً للقرآن . ومن حرمة أن يستعبد بالله عند ابتداءه للقراءة من الشيطان الرجيم ، ويقرأ بسم الله الرحمن الرحيم إن كان ابتداء قراءته من أول السورة أو من حيث بلغ . ومن حرمة إذا أخذ في القراءة لم يقطعها ساعة فساعة بكلام الآدميين من غير ضرورة . ومن حرمة أن يخلو بقراءته حتى لا يقطع عليه أحد بكلام فيخلطه بجمابه ، لأنه إذا فعل ذلك زال عنه سلطان الاستعاذة الذي استعاذ في البدء . ومن حرمة أن يقرأ على قودة وترسيل وترتيل . ومن حرمة أن يستعمل فيه ذهنه وفهمه حتى يعقل ما يخاطب به . ومن حرمة أن يقف على آية الوعد فيرغب إلى الله تعالى ويسأله من فضله ، وأن يقف على آية الوعيد فيستجير بالله منه . ومن حرمة أن يقف على أمثاله فيتمثلها ؛ ومن حرمة أن يتخمس غرابته . ومن حرمة أن يؤتى لكل حرف حقه من الأداء حتى يبرز الكلام باللفظ تاماً ، فإن

له بكل حرف عشر حسنة . ومن حرمة اذا انتهت قراءته أن يصلي ربه ويشهد بالبلاغ لرسوله صلى الله عليه وسلم ، ويشهد على ذلك أنه حي ، فيقول : صدقت ربنا وبلغ رسولاك . ونحن على ذلك من الشاهدين ؛ اللهم اجعلنا من شهداء الحق ، الثابتهين بالقسط ، ثم يدعو بدعوات ، ومن حرمة اذا قرأه ألا ينقطع الآي من كل سورة يقرأ ، فإنه روى لنا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنه من يخلل وهو يقرأ من كل سورة شيئا فأصره أن يقرأ على السور أو كما قال . ومن حرمة اذا وضع الصحيفة ألا يتركه منشورا وألا يضع فوقه شيئا من الكتب حتى يكون أبدا عاليا لسائر الكتب ، علما كان أو غيره ، ومن حرمة أن يضعه في حجرة اذا قرأه أو على شيء بين يديه ولا يضعه بالأرض . ومن حرمة ألا يحويه من اللوح بالبصاق ولكن يمسحه بالماء . ومن حرمة اذا غسله بماء أن يثوب للنجاسات من المواضع التي توطأ ، فإن تلك النجاسة حرة ، وكان من قبلنا من السلف منهم من يستشفى بنسائه ، ومن حرمة ألا يتخذ الصحيفة اذا بليت ودرست وقاية للكتب ؛ فإن ذلك جفاء عظيم ، ولكن يجوزها بالماء . ومن حرمة ألا يغسل يوما من أيامه من النظر في المصحف مرة . وكان أبو موسى يقول : إني لأشعبي ألا أنظر كل يوم في عهد ربي مرة . ومن حرمة أن يعطى عليه حفظها منه فإن العين تؤدي إلى النفس وبين النفس والصدر حجاب ، والقرآن في الصدر فإذا قرأه عن ظهر قلب إنما يسمع أذنه فتؤدي إلى النفس ، فإذا نظر في الخط كانت العين والأذن قد اشتغلا في الأداء وفلك أوفر للأداء ؛ وكان قد أخذت العين حفظها كالأذن . روى زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أعطوا أعينكم حفظها من العبادة » قالوا : يا رسول الله وما حفظها من العبادة ؟ قال : « النظر في المصحف والتفكير فيه والاعتبار عند مجانبته » . وروى مكحول عن عبادة بن الصامت قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أفضل عبادة أمي قراءة القرآن نظرا » . ومن حرمة ألا يتأوله عند ما يمرض له شيء من أمر الدنيا . حدثنا عمرو بن زياد الحنظلي قال حدثنا هشيم بن بشير عن المغيرة عن إبراهيم قال : كان يكره أن يتأول شيء من القرآن عند ما يمرض له شيء من أمر الدنيا ، والتأويل مثل قولك للرجل اذا جاءك : يَحْتَ مَلِّ قَدِيرٍ يا مُوسَى ؛ ومثل قوله تعالى : ﴿ كَلُوا وَاشْرَبُوا هَنَاتٍ بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْآخِلَةِ ﴾ هذا عند حضور الطعام وأشباه هذا . ومن حرمة ألا يقال : سورة كذا كقبولك : سورة التعل وسورة البقرة وسورة النساء ولكن يقال : السورة التي يذكر فيها كذا . قلت : هذا يمارضه

قوله صلى الله عليه وسلم : « الآيتان من آخر سورة البقرة من قرأ بهما في ليلة كفتاه » ترجمه البخارى
ومسلم من حديث عبدالله بن مسعود . ومن حرمة ألا يتل منكوسا كفعل معلى الصبيان يتمس
أحدهم بذلك أن يرى الحق من نفسه والمهارة ، فان تلك مخالفة . ومن حرمة ألا يقهر في قراءته
كفعل هؤلاء الممزجين المبتدئين المنتطعين في إبراز الكلام من تلك الأقواء المثنة تكلفا ، فإن ذلك
محدث ألقاه اليهم الشيطان فقبلوه عنه . ومن حرمة ألا يقرأه بالحن الغناء كلحون أهل النسي
ولا يترجع النصارى ولا نوح الرهبانية ، فإن ذلك كله زيغ وقد تقدم . ومن حرمة أن يحلل تحطيطه
إذا خطه . وعن أبي حنيفة أنه كان يكتب المصاحف بالكوفة ، فتر على رضى الله عنه فنظر الى
كتابته ، فقال له : أجل قلبك ، فأخذت القلم فقططته من طرفه قطا ، ثم كتبت وعلى رضى الله عنه
قائم ينظر الى كتابتي ، فقال : هكذا توره كما توره الله عز وجل . ومن حرمة ألا يجهر بعض على بعض
في القراءة فيفسد عليه حتى ينفذ اليه ما يسمع ويكون كهشة المغالبة . ومن حرمة ألا يجارى
ولا يجادل فيه في القراءات ، ولا يقول لصاحبه : ليس هكذا هو ، ولعله أن تكون تلك القراءة صحيحة
جائزة من القرآن ، فيكون قد مجد كتاب الله . ومن حرمة ألا يقرأ في الأسواق ولا في مواطن اللغط
واللغو ويجمع السفهاء ، ألا ترى أن الله تعالى ذكر عباد الرحمن وأثنى عليهم بأنهم إذا مروا باللغو مروا
كراما ، هذا لمروره بنفسه ، فكيف إذا مر بالقرآن الكريم تلاوة بين ظهرائى أهل اللغو ويجمع
السفهاء . ومن حرمة ألا يتوسد المصحف ولا يعتمد عليه ولا يرى به الى صاحبه إذا أراد أن يتأوله .
ومن حرمة ألا يصفر المصحف ، روى الأعمش عن إبراهيم عن علي رضى الله عنه قال : لا يصفر
المصحف . قلت : وروى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه رأى مصحفا صغيرا في يد رجل
فقال : من كتبه ؟ قال : أنا ، فضربه بالذرة ، وقال : عظموا القرآن . وروى عن رسول الله
صلى الله عليه وسلم أنه نهى أن يقال : مسجداً أو مصحف . ومن حرمة ألا يخط فيه ما ليس منه .
ومن حرمة ألا يحل بالذهب ولا يكتب بالذهب فتخط به زينة الدنيا . وروى منيرة عن إبراهيم :
أنه كان يكره أن يحل المصحف أو يكتب بالذهب أو يعلم عند رموض الآى أو يصفر . وعن
أبي الدرداء قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا زجرتكم مساجدكم وطبتم مصاحفكم
فألبار عليكم » وقال ابن عباس ورأى مصحفا قد زين بفضة : فترنوه بالسارق ، وزينه في جوفه .

ومن حرمة ألا يكتب على الأرض ولا على حائط كما يفعل هذه المساجد الحديثة . حدثنا محمد بن علي الشقيق عن أبيه عن عبد الله بن المبارك عن سفيان عن محمد بن الزبير قال : سمعت عمر بن عبد العزيز يحدث قال : مر رسول الله صلى الله عليه وسلم بكتاب في أرض ، فقال لشاب من هذيل : « ما هذا » قال : من كتاب الله كتيبه يهودي ؛ فقال : « لمن الله من فعل هذا ، لا تضعوا كتاب الله إلا موضعه » . قال محمد بن الزبير : رأى عمر بن عبد العزيز أنها لا يكتب القرآن على حائط فضر به . ومن حرمة أنه إذا اغتسل بكتابه مستشفيا من سقم ألا يصبه على كاسية ، ولا في موضع نجاسة ولا على موضع يوطأ ، ولكن ناحية من الأرض في بقعة ، لا يطؤه الناس ، أو يحفر حفرة في موضع طاهر حتى ينصب من جسده في تلك الحفرة ثم يكسبها ، أو في نهركير يختلط بمائه فيجري . ومن حرمة أن يفتحته كلما ختمه حتى لا يكون كهيئة المهجور ، ولذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا ختم يقرأ من أول القرآن قدر خمس آيات ، لئلا يكون في هيئة المهجور . وروى ابن عباس قال : جاء رجل فقال : يا رسول الله أي العمل أفضل ؟ قال : « عليك بالحلل المرتحل » قال : وما الحلل المرتحل ؟ قال : « صاحب القرآن يضرب من أوله حتى يبلغ آخره ثم يضرب من أوله كلما حل أو تحلل » .

قلت : ويستحب له إذا ختم القرآن أن يجمع أهله . ذكر أبو بكر الأنباري أنبأنا إدریس حدثنا خلف حدثنا وكيع عن مسعر عن قتادة : أن أنس بن مالك كان إذا ختم القرآن جمع أهله ودعا . وأخبرنا إدریس حدثنا خلف حدثنا جرير عن منصور عن الحكم قال : كان مجاهد وعبد بن أبي لابة وقوم يعرضون المصاحف ، فإذا أرادوا أن يحنموا وجهوا إلينا أحضرونا ، فإن الرحمة تنزل عند ختم القرآن ، وأخبرنا إدریس حدثنا خلف حدثنا هشيم العوام عن إبراهيم عن التيمي قال : من ختم القرآن أول النهار صلت عليه الملائكة حتى يمسي ، ومن ختم أول الليل صلت عليه الملائكة حتى يصبح ؛ قال : فكانوا يستحبون أن يحنموا أول الليل وأول النهار . ومن حرمة ألا يكتب التعاويذ منه ثم يدخل به في الخلاء إلا أن يكون في غلاف من آدم أو فضة أو غيره ، فيكون كأنه في صدرك . ومن حرمة إذا كتيبه وشربه سمى الله على كل نفس وعظم النية فيه فإن الله يؤتيه على قدر نيته . روى ليث عن مجاهد قال : لا بأس أن يكتب القرآن ثم تسقيه المريض . وعن أبي جعفر قال : من وجد في قلبه قساوة فليكتب « يس » في جام بزعفران ثم يشربه . قلت : ومن حرمة ألا يقال : سورة صغيرة ؛ وكره

أبو العالية أن يقال : سورة صغيرة أو كبيرة ، وقال لمن سمعه قالها : أنت أصغر منها ، وأما القرآن فكله عظيم ذكره مكي رحمه الله . قلت : وقد روى أبو داود ما يعارض هذا من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أنه قال : ما من الفصل سورة صغيرة ولا كبيرة إلا قد سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يؤم بها الناس في الصلاة .

باب ما جاء من الوعيد في تفسير القرآن بالرأى والجرأة

على ذلك ومراتب المفسرين

روى عن عائشة رضى الله عنها قالت : ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يفسر من كتاب الله إلا آيا بعدد عليه إياهن جبريل . قال ابن عطية : ومعنى هذا الحديث في مفييات القرآن ، وتفسير مجمله ونحو هذا ، مما لا سبيل إليه إلا بتوقيف من الله تعالى . ومن جملة مفيياته ما لم يعلم الله به ، كوقت قيام الساعة ونحوها ، مما يستقرى من ألفاظه كعدد النسخات في الصور ، وكرتبة خلق السموات والأرض . روى الترمذى عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « اتقوا الحديث على إلا ما علمتم فمن كذب على متعمدا فليتبوأ مقعده من النار ومن قال في القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار » . وروى أيضا عن جندب قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من قال في القرآن برأيه فاصاب فقد أخطأ » قال : هذا حديث غريب . وأخرجه أبو داود وتكلم في أحد روايته . وزاد رزين : ومن قال برأيه فأخطأ فقد كفر . قال أبو بكر محمد بن القاسم ابن بشار بن محمد الأنبارى النحوى اللغوى في كتاب الرد : فسر حديث ابن عباس تفسيرين : أحدهما من قال في مشكل القرآن بما لا يعرف من مذاهب الأوائل من الصحابة والتابعين فهو متعز لسخط الله . والجواب الآخر وهو أثبت القولين وأصحهما معنى : من قال في القرآن قولاً يعلم أن الحق غيره فليتبوأ مقعده من النار . ومعنى يتبوأ : يتزل ويحلل ، قال الشاعر :

وَبُؤْتُ فِي صَحِيمٍ مَمْتَرِهَا فَتَمَّ فِي قَوْمِهَا مَبُؤُهَا ^(١)

وقال في حديث جندب : فحمل بعض أهل العلم هذا الحديث على أن الرأى معنى به الهوى : من قال في القرآن قولاً يوافق هواه ، لم يأخذه عن أئمة السلف فأصاب فقد أخطأ لحكمه على القرآن

(١) جاء في لسان العرب مادة بؤأ تحسرا لهذا البيت : أى نزلت من الكرم في صميم النسب .

بما لا يعرف أصله ، ولا يقف على مذاهب أهل الأثر والنقل فيه . وقال ابن عطية : ومعنى هذا أن يسأل الرجل عن معنى من كتاب الله عز وجل فيستور عليه برأيه دون نظر فيما قال العلماء لو اقتضت قوانين العلم كالتحقيق والأصول ؛ وليس يدخل في هذا الحديث أن يفسر النحويون لغته والنحويون نحوه والفقهاء معانيه ، ويقول كل واحد باجتهاده المبني على قوانين علم ونظر ، فإن التسائل على هذه الصفة ليس قائلاً لمجرد رأيه . قلت : هذا صحيح وهو الذي اختاره غير واحد من العلماء ، فإن من قال فيه بما سنح في وهمه وخطر على باله من غير استدلال عليه بالأصول فهو غلط ، وإن من استنبط معناه بحمله على الأصول المحكمة المتفق على معناها فهو ممدوح .

وقال بعض العلماء : إن التفسير موقوف على السماع لقوله تعالى : ﴿ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ ﴾ وهذا فاسد لأن النبي عن تفسير القرآن لا يحل إما أن يكون المراد به الاختصار على النقل والمسحوق وترك الاستنباط ، أو المراد به أمراً آخر ، وباطل أن يكون المراد به ألا يتكلم أحد في القرآن إلا بما سمعه ، فإن الصحابة رضي الله عنهم قد قرءوا القرآن واختلفوا في تفسيره على وجوه ، وليس كل ما قالوه سمعوه من النبي صلى الله عليه وسلم ، فإن النبي صلى الله عليه وسلم دعا لابن عباس وقال : « اللَّهُمَّ فَقِّهْهُ فِي الدِّينِ وَطَلِّمِ التَّوِيلَ » فإن كان التأويل مسموعاً كالتأويل فما فائدة تخصيصه بذلك ! وهذا بين لا إشكال فيه ؛ وسيأتي لهذا مزيد بيان في سورة النساء إن شاء الله تعالى . وإنما انتهى يحمل على أحد وجهين * أحدهما أن يكون له في الشيء رأي ، واليه ميل من طبعه وهواه ، فيتناول القرآن على وفق رأيه وهواه ، ليحتج على تصحيح غرضه ، ولو لم يكن له ذلك الرأي والهوى لكان لا يلوح له من القرآن ذلك المعنى ؛ وهذا النوع يكون تارة مع العلم كالذي يحتاج ببعض آيات القرآن على تصحيح بدعته ، وهو يعلم أن ليس المراد بالآية ذلك ، ولكن مقصوده أن يلبس على خصمه ؛ وتارة يكون مع الجهل ، وذلك إذا كانت الآية محتملة فيميل فهمه إلى الوجه الذي يوافق غرضه ، ويرجح ذلك الجانب برأيه وهواه ، فيكون قد فسر برأيه أي رأيه حمله على ذلك التفسير ، ولولا رأيه لما كان يترجح عنده ذلك الوجه . وتارة يكون له غرض صحيح فيطلب له دليلاً من القرآن ويستدل عليه بما يعلم أنه ما أريد به ، كمن يدعو إلى مجاهدة القلب القاسي ، فيقول : قال

(١) من قولهم : شقوا الحائط إذا صد عليه وهنى به ما التهم والافتكام بغيرة ولا تدير .

الله تعالى : (اذهب الى قُرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى) ويشير الى قلبه ويؤى الى أنه المراد بقُرْعَوْنَ ، وهذا الجنس قد يستعمله بعض الوراق في المقاصد الصحيحة تحسباً للكلام وترغيباً للسمع ، وهو ممنوع لأنه قياس في اللغة ، وذلك غير جائز . وقد تستعمله الباطنية في المقاصد الفاسدة لتعزير الناس ودعوتهم الى مذهبهم الباطلة ، فيقولون القرآن على وفق رأيهم ومنهيبهم على أمور يهابون قطعاً أنها غير مرادة . فهذه الفنون أحد وجهي المنع من التفسير بالرأى * الوجه الثاني أن يتسارع الى تفسير القرآن بظاهر العربية ، من غير استظهار بالسماح والقتل فيما يتعلق بفرائب القرآن ، وما فيه من الالتفات المهمة والمبسطة ، وما فيه من الاختصار والحذف والإضمار والتقديم والتأخير ؛ لمن لم يُحْكَمْ ظاهر التفسير ، وبادر الى استنباط المعاني فيعجز فهم العربية كثر غلطه ، ودخل في زمرة من فسر القرآن بالرأى ، والقتل والسماح لا بد له منه في ظاهر التفسير أولاً ليتق به مواضع الغلط ، ثم بعد ذلك يتبع الفهم والاستنباط ، والفرائب التي لا تفهم إلا بالسماح كثيرة ولا مطلع في الوصول الى الباطن قبل احكام الظاهر ، ألا ترى أن قوله تعالى : (وَآتَيْنَا نُوحًا الْآثَانَ مَيْمَرَةً فَظَلَمُوا بِهَا) معناه آية مبصرة فظلموا أنفسهم بقتلها ، فأناظر الى ظاهر العربية يظن أن المراد به أن الآثان كانت مبصرة ، ولا يدري بماذا ظلموا وأنهم ظلموا غيرهم وأنفسهم ، فهذا من الحذف والإضمار ، وأمثال هذا في القرآن كثير وما علنا هذين الوجهين فلا يتطرق الى النهي اليه والله أعلم .

قال ابن عطية : وكان جملة من السلف كعبد بن المسيب وعاصم الشعبي وغيرهما يفسرون تفسير القرآن ويتوقفون عنه توزعاً واحتياطاً لأنفسهم مع إدراكهم وتقدمهم . قال أبو بكر الأنباري : وقد كان الأئمة من السلف الماضي يتوزعون عن تفسير المشكل من القرآن ، فبعض يقدر أن الذي يفسره لا يوافق مراد الله عز وجل فيُحجج عن القول ، وبعض يُستفق من أن يُصل في التفسير إماماً يُبنى على مذهبه ويُقتضى طريقه ، فقليل متاخراً أن يفسر حرفاً برأيه ويخطئ فيه ، ويقول : إمامي في تفسير القرآن بالرأى فلان الإمام من السلف . وعن ابن أبي مليكة قال : سئل أبو بكر الصديق رضي الله عنه عن تفسير حرف من القرآن فقال : أي سمعاً تُطْلِقُ ؛ وأي أرضاً تُحْتَلِي ؛ وأين أذهب ؛ وكيف أصنع ؛ اذا قلت في حرف من كتاب الله بغير ما أراد تبارك وتعالى .

قال ابن عطية : وكانت جملة من السلف كثير عندهم يفسرون القرآن وهم أقوا على المسلمين في ذلك رضى الله عنهم ؛ وأما صدر المفسرين والمؤيد فيهم فـ علي بن أبي طالب رضى الله عنه ، ويتلوه عبد الله بن عباس وهو تجرد فيه للأمر وكلمه وتبعه العلماء عليه كجاهد وسعيد بن جبير وغيرهما ، والمحفوظ عنه في ذلك أكثر من المحفوظ عن علي . وقال ابن عباس : ما أخذت من تفسير القرآن فن علي بن أبي طالب ، وكان علي رضى الله عنه يلقى علي تفسير ابن عباس ويحضر علي الأخذ عنه ، وكان ابن مسعود يقول : يتم ترجمان القرآن عبد الله بن عباس . وقال عنه علي رضى الله عنه : ابن عباس كأنما ينظر إلى الغيب من ستر رقيق . ويتلوه عبد الله بن مسعود وأبي بن كعب وزيد ابن ثابت وعبد الله بن عمرو بن العاص ؛ وكل ما أخذ عن الصحابة فحسن مقدم لشهودهم التزويل وتزوله بلنتهم . وعن عامر بن واثلة قال : شهدت علي بن أبي طالب رضى الله عنه يخطب فسمعتة يقول في خطبته : سلوني فوالله لا تسألوني عن شيء يكون إلى يوم القيامة إلا حلتكم به ، سلوني عن كتاب الله فوالله ما من آية إلا أنا أعلم أبلي تزلت أم ينهار أم في سهل تزلت أم في جبل ؛ فقام إليه ابن الكواء فقال : يا أمير المؤمنين ما الذاريات ذروا ؟ وذكر الحديث . وعن المنهال بن عمرو قال : قال عبد الله بن مسعود : لو أعلم أحدا أعلم بكتاب الله مني تبليغه المطى لأتيته ؛ فقال له رجل : أما لقيت علي بن أبي طالب ؟ فقال : بلى قد لقيته . وعن مسروق قال : وجدت أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم مثل الإخاذ يروى الواحد والإخاذ يروى الإثنين ، والإخاذ لو ورد عليه الناس أجمعون لأصبرهم ، وإن عبد الله بن مسعود من تلك الآخاذ ؛ ذكر هذه المناقب أبو بكر الأنباري في كتاب الرد ، وقال : الإخاذ عند العرب : الموضع الذي يحبس الماء كالغدير . قال أبو بكر حنثا أحمد بن الهيثم بن خالد حنثا أحمد بن عبد الله بن يونس حنثا سلام عن زيد العمى عن أبي الصديق الناجي عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أرحم أمي بها أبو بكر وأقوام في دين الله عمر وأصدقهم حياء عثمان وأقضاهم علي وأفرضهم زيد وأقرؤهم لكتاب الله عن وجل

(١) من قولهم : أقيت على فلان إذا شفت عليه ورحته .

(٢) اسمه عبد الله بن أبي أرقط اليسكري كان في تاريخ الطبري في عدة مواضع .

(٣) جاء في حاشية يهاشم الأصل : أنه سمى زيدا العمى لأنه كان ينادى من وراء يمام . ويماضي تهذيب التهذيب . الكلام

على اسم زيد المذكور ؛ أنه لقب بذلك لأنه كان إذا سئل عن الشيء يقول : حتى أسأل عمي .

أبي بن كعب وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ بن جبل وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح وأبو هريرة وطاه من العلم وسلمان بجر من علم لا يدرك وما أغلّت الخضراء ولا أقلت الغبراء - أوقال - : البطحاء من ذى طجة أصدق من أبي ذر* .

قال ابن عطية : ومن المبرزين في التابعين الحسن البصري* ومجاهد وسعيد بن جبيرة وعلقمة* ، قرأ مجاهد على ابن عباس قراءة تفهم ووقوف عند كل آية ، ويتلوهم عزمة والضعاء وإن كان لم يلق ابن عباس ، وإنما أخذ عن ابن جبيرة ، وأما السدي* فكان طامر للشعبي* بطعن عليه وعلى أبي صالح^(١) لأنه كان يراهما مقصرين في النظر . قلت : وقال يحيى بن معين : الكلبي* ليس بشيء . وعن يحيى ابن سعيد القطان عن سفيان قال : قال الكلبي* : قال أبو صالح : كل ما حدثك كذب . وقال حبيب بن أبي ثابت : كنا نسمة الذروع زن* - يعني أبا صالح - مولى أم هانئ ، والذروع زن* : هو الكذاب بلفة الفرس . ثم حمل تفسير كتاب الله تعالى عدول كل خلف ، كما قال صلى الله عليه وسلم : « يحمل هذا العلم من كل خلف ضولوهُ يتفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين » ترجمه أبو عمر وغيره . قال الخطيب أبو بكر أحمد بن علي البغدادى* : وهذه شهادة من رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنهم أعلام الدين وأئمة المسلمين لحفظهم الشريعة من التحريف ، والاتصال للباطل ، ورد تأويل الأئمة الجاهل ، وأنه يجب الرجوع إليهم ، والمعول في أمر الدين عليهم ، رضى الله عنهم .

قال ابن عطية : وألف الناس فيه كعب الرزاق والمفضل وعلى بن أبي طلحة والبخاري وغيرهم . ثم إن محمد بن جرير رحمه الله جمع على الناس أشنات التفسير ، وقرب البعيد منها وشفى في الإستاذ . ومن المبرزين من التابعين أبو إسحاق الزجاج وأبو علي الفارسي* ، وأما أبو بكر النقاش وأبو جعفر النحاس فكثيرا ما استترك الناس طبعهما . وعلى سندهما مكى بن أبي طالب رضى الله عنه وأبو العباس المهدوي* متقن التأليف ، وكلهم مجتهد مأجور ورحمهم الله ونضر وجوههم .

(١) اسمه بإتمام بحجة بن آقين ، يرمى عن مولاه أم هانئ كما في التلاسة في أسماء الرجال .

باب تبيين الكتاب بالكسنة وما جاء في ذلك

قال الله تعالى : (وَأَتَرْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لَتَيْنِ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ) . وقال تعالى : (فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) . وقال تعالى : (وَأَنْتَ تَهْتَدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) وفرض طاعته في غير آية من كتابه وقرنها بطاعته عز وجل ، وقال تعالى : (وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا) . ذكر ابن عبد البر في كتاب العلم له عن عبد الرحمن ابن يزيد : أنه رأى عمرًا عليه ثيابة قبيى الحرم ، فقال : ائتني بآية من كتاب الله تنزع ثيابي ، قال : اقرأ عليه (وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا) وعن هشام بن عمار قال : كان طاوس يصلي ركعتين بعد العصر ، فقال ابن عباس : اتركهما ، فقال : إنما نهى عنهما أن نضفنا سنة ، فقال ابن عباس : قد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم من صلاة بعد العصر ، فلا أدرى أتعذب عليها أم تبرأ ، لأن الله تعالى قال : (وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ تَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ) . وروى أبو داود عن المقدم بن معديكرب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ألا وإنى قد أوتيت الكتاب ومثله معه ألا يوشك رجل شبعان على أريكته يقول عليكم بهذا القرآن فما وجدتم فيه من حلال فاحلوه وما وجدتم فيه من حرام فحرموه ألا لا يجل لكم الحمار الأمل ولا كل ذى ناب من السباع ولا لقطة معاهد إلا أن يستغنى عنها صاحبها ومن زل يقوم فليعلم أن يقره فإن لم يقره فله أن يعقهم بمثل قراه » .

قال الخطابي : قوله « أتيت الكتاب ومثله معه » يحتمل وجهين من التأويل : أحدهما أن معناه أنه أوتي من الوحي الباطن غير المتقو ، مثل ما أعطى من الظاهر المتقو ، والثاني أنه أوتي الكتاب وحيا يتل ، وأوتي من البيان مثله أى أذن له أن يبين ما في الكتاب فيم ويخص ويزيد عليه ويشرح ما في الكتاب ، فيكون في وجوب العمل به ولزوم قبوله كالظواهر المتقو من القرآن ، وقوله : « يوشك رجل شبعان » الحديث ، يحذر بهذا القول من مخالفة السنن التي منها مما ليس له في القرآن ذكر على ما ذهب إليه الخوارج والروافض ، فانهم تعلقوا بظواهر القرآن وتركوا السنن التي قد ضمنها بيان الكتاب ، قال : فتصبروا وضلوا ، قل والأريكة : السرير ، ويقال : إنه لا يسمى

أريكة حتى يكون في حجلة ، قال : وإنما أراد بالأريكة أصحاب الترفه والذمة الذين لم يملوا البيوت ولم يطلبوا العلم من مظانه ؛ وقوله : «إلا أن يستغنى عنها صاحبها» معناه أن يتركها صاحبها لمن أخذها استغناء عنها ؛ كقوله : (فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا وَاسْتَفْتَى اللَّهُ) معناه تركهم الله استغناء عنهم ؛ وقوله : «قله» أن يستغنى بهم بمثل قراه « هذا في حال المضطر الذي لا يجد طعاما ويخاف التلف على نفسه ، فله أن يأخذ من ما لم يقدر قراه عوض ما حرموه من قراه . ويعقبهم يروى مشددا وخففا من المعاقبة ، ومنه قوله تعالى : (وَإِنْ مَاقَبْتُمْ) أى فكأت الغلبة لكم فغنتم منهم ، وكذلك لهذا أن يغنى من أموالهم بقدر قراه ؛ قال : وفي الحديث دلالة على أنه لا حاجة بالحديث إلى أن يمرض على الكتاب ، فإنه مهما ثبت من رسول الله صلى الله عليه وسلم كان حجة بنفسه ؛ قال : فأما ما رواه بعضهم أنه قال : «إنما جاءكم الحديث فأعرضوه على كتاب الله فإن وافقه فخذوه وإن لم يوافقه فأتروكه » فإنه حديث باطل لا أصل له .

ثم البيان منه صلى الله عليه وسلم على ضربين : بيان لمجمل في الكتاب ، كإيائه للصلوات الخمس في موافقتها وبجودها وركوعها وسائر أحكامها ، وإيائه لمقدار الزكاة ووقتها وما الذي تؤخذ منه من الأموال ، وإيائه لمناسك الحج ، قال صلى الله عليه وسلم إذ حج بالناس : «خلوا عنى مناسككم» وقال : «صلاوا كما رأيتموني أصلي» أخرجه البخارى . وروى ابن المبارك عن عمران بن حصين أنه قال لرجل : إنك رجل أحمق ، أتعبد الظاهر في كتاب الله أريما لا يحجر فيها بالقراءة ؟ ثم حدد عليه الصلاة والزكاة ونحو هذا ، ثم قال : أتعبد هذا في كتاب الله تعالى مفسرا ! إن كتاب الله تعالى أهم هذا ، وإن السنة تفسر هذا .

وروى الأوزاعي عن حسان بن عطية قال : كان الوحي يزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم ويحضره جبريل بالسنة التي تفسر ذلك . وروى سعيد بن منصور : حدثنا عيسى بن يونس عن الأوزاعي عن مكحول قال : القرآن أوحى إلى السنة من السنة إلى القرآن . وبه عن الأوزاعي قال : قال يحيى ابن أبي كثير : السنة قاضية على الكتاب ، وليس الكتاب قاض على السنة . قال الفضل بن زياد : سمعت أبا عبد الله - يعنى أحمد بن حنبل - وسئل عن هذا الحديث الذي روى أن السنة قاضية على الكتاب ، فقال : ما أجسر على هذا أن أقوله ، ولكنى أقول : إن السنة تفسر الكتاب وتبينه .

وبيان أثر وهو زيادة على حكم الكتاب كتحريم نكاح المرأة على عمتها وخالتها ، وتحريم الحجر الأحملة وكل ذي ناب من السباع ، والقضاء باليمين مع الشاهد وغير ذلك ، على ما يأتي بيانه إن شاء الله تعالى .

باب كيفية التعلم والفقهاء لكتاب الله تعالى وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم وما جاء الله به من نهي على من تقدم العمل به دون حفظه

ذكر أبو عمرو الثاني في كتاب البيان له بإسناده عن عثمان وابن مسعود وأبي : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقرئهم القرآن والعمل جميعاً . وذكر عبد الرزاق عن معمر بن عطاء بن السائب عن أبي عبد الرحمن السائي قال : كنا إذا تعلمنا عشر آيات من القرآن لم نتعلم المشي التي يسلكها حتى نعرف حلالها وحرامها وأمرها ونهيها . وفي موطن مالك : أنه بلغه أن عبد الله بن عمر مكث على سورة البقرة ثمانين سنة يتعلمها . وذكر أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت الحافظ في كتابه المسقى في ذكر أسماء من روى عن مالك : عن مرداس بن محمد بن بلال الأشعري قال : حدثنا مالك عن نافع عن ابن عمر قال : تعلم عمر البقرة في اثنتي عشرة سنة ، فلما ختمها نحر جزورا . وذكر أبو بكر الأنباري : حدثني محمد بن شعيب بن حنبل عن حسين بن الأسود حدثنا عبد الله بن موسى عن زياد بن أبي مسلم أبي عمرو عن زياد بن عرق قال : قال عبد الله بن مسعود : إنا يصعب علينا حفظ ألفاظ القرآن ، ويسهل علينا العمل به ، وإن من بعدنا يسهل عليهم حفظ ألفاظ القرآن ، ويصعب عليهم العمل به .

حدثنا إبراهيم بن موسى حدثنا يوسف بن موسى حدثنا الفضل بن دكين حدثنا إسماعيل بن إبراهيم ابن المهاجر عن أبيه عن مجاهد عن ابن عمر قال : كان الفضائل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم في صدر هذه الأمة لا يحفظ من القرآن إلا السورة أو نحوها ، ورزقوا العمل بالقرآن ، وإن أئمة هذه الأمة يقرعون القرآن منهم الصبي والأعمى ولا يرزقون العمل به . حدثني حسن ابن عبد الوهاب أبو محمد بن أبي الخير حدثنا أبو بكر بن حماد المقرئ قال : سمعت خلف بن هشام

البارى يقول : ما أظن القرآن إلا عارية في أيدينا ، وذلك أثاروا أن عمر بن الخطاب حفظ البقرة في بضع عشرة سنة ، فلما حفظها نحر جزوا شكر الله ، وإن الغلام في دعرك هذا مجلس بين يدي فقرأ ثلث القرآن لا يسقط منه حرفا ، لما أحسب القرآن إلا عارية في أيدينا . وقال أهل العلم بالحديث : لا ينبغي لطالب الحديث أن يقتصر على سماع الحديث وكتبه ، دون معرفته وفهمه ، فيكون قد أتمب نفسه من غير أن يظهر بطلان ، ولكن يحفظه للحديث على التدرج قليلا قليلا مع الليالي والأيام . ومن ورد عنه ذلك من حفاظ الحديث شعبة وأبن عتبة ومعمرو ، قال معمر : سمعت الزهري يقول : من طلب العلم جملة فانه جملة ، وإنما يدرك العلم حديثا وحديثين والله أعلم . وقال معاذ بن جبل : اعلما ما شتم أن تعلموا فلن يأجركم الله بعلومه حتى تعملوا . قال ابن عبد البر : وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم مثل قول معاذ من رواية عباد بن عبد الصمد ، وفيه زيادة أن العلماء همم النارية ، وأن السفهاء همم الرواية . وروى موقوفا وهو أول من رواية من رواه مرفوعا ، وعباد بن عبد الصمد ليس بمن يوجب به ، ولقد أحسن القائل في نظمه في فضل العلم وشرف الكتاب العزيز والسنة النبوية :

إن العلوم وإن جلت عاصمها	فقطبها ما به الإيمان قد وجبا
هو الكتاب العزيز الله يحفظه	وبعد ذلك لم فترج الكراما
فذلك فألم حديث المصطفى فيه	نور النبوة سن الشرع والأديا
وبعد هذا علوم لا آتياه لما	فأكثر لضحك يامن آثر الطلما
والعلم كثر تجسده في معاده	ياها الطالب أبحث وأنظر الكتب
واقل بفهم كتاب الله فيه أت	كل العلوم تدبره تر الحجا
وأقرأ حديث حديث المصطفى وسلم	مولك ما تشتهي يقضى لك الأديا
من ذاق علما لعلم الدين سره	أنا تريد منه قال وأطربا

باب معنى قول النبي صلى الله عليه وسلم : « إن هذا القرآن

أنزل على سبعة أحرف فأقرءوا ما تيسر منه »

روى مسلم عن أبي بن كعب : أن النبي صلى الله عليه وسلم كان عند أضائة بن غفار ، فأتاه جبريل عليه السلام فقال : إن الله يأمرك أن تقرئ أمك القرآن على حرف ، فقال : « أسأل الله معافاته ومغفرته وإن أمي لا تطيق ذلك » ثم أتاه الثانية فقال : إن الله يأمرك أن تقرئ أمك القرآن على حرفين ، فقال : « أسأل الله معافاته ومغفرته وإن أمي لا تطيق ذلك » ثم جاءه الثالثة فقال : إن الله يأمرك أن تقرئ أمك القرآن على ثلاثة أحرف ، فقال : « أسأل الله معافاته ومغفرته وإن أمي لا تطيق ذلك » ثم جاءه الرابعة فقال : إن الله يأمرك أن تقرئ أمك القرآن على سبعة أحرف فأبى ما قرءوا عليه فقد أصابوا . وروى الترمذى عنه قال : لقي رسول الله صلى الله عليه وسلم جبريل فقال : « يا جبريل إني بعثت إلى أمة أمة منهم المعجوز والشيخ الكبير والعمام والجارية والرجل الذي لا يقرأ كتاباً قط فقال لي يا محمد إن القرآن أنزل على سبعة أحرف » قال : هذا حديث حسن صحيح ، وثبت في الأمهات : البخارى ومسلم والموطأ وأبى داود والنسائى وغيرها من المصنفات والمسندات قصة عمر مع هشام بن حكيم ، وبسائى بكاه في آخر الباب مبينا أن شاء الله تعالى .

وقد اختلف العلماء في المراد بالأحرف السبعة على خمسة وثلاثين قولاً ذكرها أبو حاتم محمد ابن حبان البستي ، فذكر منها في هذا الكتاب خمسة أقوال :

الأول وهو الذى عليه أكثر أهل العلم كسفيان بن عيينة وعبد الله بن وهب والطبري والطحاوى وغيرهم : أن المراد سبعة أوجه من المعاني المتعارفة بالعاط غنقة ، نحو أقبل وتسال وهلم . قال الطحاوى : وأبين ما ذكر في ذلك حديث أبي بكر قال : جاء جبريل إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال : اقرأ على حرف ، فقال ميكائيل : استرده ، فقال : اقرأ على حرفين فقال ميكائيل : استرده حتى بلغ الى سبعة أحرف ، فقال : اقرأ فكل شاف كاف إلا أن تخط آية رحمة بآية عذاب أو آية

(١) الأضائة : غير مستعمل فيل هو مسيل الماء إلى الندير . وهو موضع قريب من مكة فوق سرف . وغفار .

خليفة عمر بن الخطاب .

عذاب بآية رحمة، على نحو هلم وتعال وأقبل وانهب وأسرع وعجل . وروى ورفاء عن ابن أبي نجيح عن مجاهد عن ابن عباس عن أبي بن كعب : أنه كان يقرأ : (الَّذِينَ آمَنُوا أَنْظَرُونَا) للذين آمنوا أهلونا، للذين آمنوا أخرونا، للذين آمنوا أرقبونا . وبهذا الاستناد عن أبي كان يقرأ : (كُلًّا أَضَاءَ لَهُمْ مَشْوَ فِيهِ) مروا فيه، سوا فيه . وفي البخاري ومسلم قال الزهري : إنما هذه الأحرف في الأمر الواحد ليس يختلف في حلال ولا حرام .

قال الطحاوي : إنما كانت السبعة للناس في الحروف لمجزم عن أخذ القرآن على غير لغاتهم ، لأنهم كانوا أميين لا يكتب إلا القليل منهم ، فلما كان يشق على كل ذي لغة أن يقول إلى غيرها من اللغات ؛ ولو رام ذلك لم يتبها له إلا بمشقة عظيمة ، فوسع لهم في اختلاف الألفاظ إذ كان المعنى متفقاً ، فكانوا كذلك حتى كثرت منهم من يكتب وعادت لغاتهم إلى لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ففسدوا بذلك على تحفظ ألفاظه ، فلم يسمعهم حينئذ أن يقرءوا بخلافها . قال ابن عبد البر : فإن بهذا أن تلك السبعة الأحرف إنما كان في وقت خاص لضرورة دعت إلى ذلك ، ثم ارضعت تلك الضرورة فارتفع حكم هذه السبعة الأحرف ، وعاد ما يقرأ به القرآن على حرف واحد .

روى أبو داود عن أبي قال : قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : "يا أباي إني أقرئت القرآن فقيل لي على حرف أو حرفين فقال الملك الذي معي قل على حرفين فقيل لي على حرفين أو ثلاثة فقال الملك الذي معي قل على ثلاثة حتى بلغ سبعة أحرف ثم قال ليس منها إلا شاف كاف إن قلت سيماعلياً، هنرياً حكيمياً، ما لم تخط آية عذاب برحمة أو آية رحمة بعذاب " . وأسند ثابت بن قاسم نحو هذا الحديث عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وذكر من كلام ابن مسعود نحوه . قال القاضي ابن الطيب : وإذا ثبتت هذه الرواية — يريد حديث أبي — حمل على أن هذا كان مطلقاً ثم نسب ، فلا يجوز للناس أن يبدلوا أسماء الله تعالى في موضع غيره مما يوافق معناه أو يخالف .

القول الثاني قال قوم : هي سبع لغات في القرآن على لغات العرب كلها ؛ بمنها وزارها ، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يعجل شيئاً منها، وكان قد أوتي جوامع الكلم ، وليس معناه أن يكون في الحرف الواحد سبعة أوجه ، ولكن هذه اللغات السبع متفرقة في القرآن ، فبعضه بلغة قريش ، وبعضه بلغة هذيل ، وبعضه بلغة هوازن ، وبعضه بلغة اليمن قال الخطابي : على أن في القرآن ما قد

قريش بسببه أوسيه، وهو قوله : (وَعَبْدَ الطَّائِفَتِ) . وقوله : (أَرْسِلْهُ مَعًا غَدًا يَرْتَعِ وَيَلْبَسْ) وذكروا وجوها كانت يذهب إلى أن بعضه أنزل على سبعة أحرف لا كله ، وإلى هذا القول بأن القرآن أنزل على سبعة أحرف على سبع لغات ، ذهب أبو عبيد القاسم بن سلام واختاره ابن عطية قال أبو عبيد : وبعض الأحياء أسعد بها وأكثر حفظا فيها من بعض ، وذكروا حديث ابن شهاب عن أنس أن عثمان قال لم حين أمرهم أن يكتبوا المصاحف : ما اختلفتم أتم وزيد فاكتبوه بلغة قريش ، فانه نزل بلتهم . ذكره البخاري وذكروا حديث ابن عباس قال : نزل القرآن بلغة الكهين كعب قريش وكعب خزاعة قيل : وكيف ذلك ؟ قال : لان الدار واحدة . قال أبو عبيد : يعني أن خزاعة حيران قريش فأخذوا بلتهم .

قال القاضي ابن الطيب رضى الله عنه : معنى قول عثمان : فانه نزل بلسان قريش ، يريد معظمه وأكثه ، ولم يتم دلالة قاطعة على أن القرآن بأسره منزل بلغة قريش فقط ، إذ فيه كلمات وحروف وهي خلاف لغة قريش ، وقد قال الله تعالى : (إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا) ولم يقل قريشيا ، وهذا يدل على أنه منزل بجميع لسان العرب ، وليس لأحد أن يقول : إنه أراد قريشيا من العرب دون غيرها ، كما أنه ليس له أن يقول : أراد لغة عدنان دون بقطان ، أو ربيعة دون مضر ، لان اسم العرب يتناول جميع هذه القبائل تناولاً واحداً .

وقال ابن عبد البر : قول من قال : إن القرآن نزل بلغة قريش معناه عندى فى الأغلب والله أعلم ، لأن غير لغة قريش موجود فى صحيح القراءات من تحقيق الهمزات ونحوها ، وقريش لا تهتم . وقال ابن عطية : معنى قول النبي صلى الله عليه وسلم : «أنزل القرآن على سبعة أحرف» أى فيه عبارة سبع قبائل بلغة جعلتها نزل القرآن ، فيعبر عن المعنى فيه مرة بعبارة قريش ، ومرة بعبارة هذيل ، ومرة بنهر ذلك بحسب الأنفصاح والأوجز فى اللفظ ؛ ألا ترى أن فطر معناه عند غير قريش ابتدأ بفطمت فى القرآن فلم يتجه لابن عباس ، حتى اختصم إليه أعرابيان فى بشر ، فقال أحدهما : أنا فطرتها ؛ قال ابن عباس : ففهمت حينئذ موقع قوله تعالى : (فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ) . وقال أيضا : ما كنت أدرى معنى قوله تعالى : (رَبَّنَا أَفْرِغْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ) . حتى سمعت بنت ذى يزن تقول لزوجها : تمال أفانك أى أحاكك ، وكذلك قال عمر بن الخطاب وكان لا يفهم معنى قوله تعالى : (أَوْ يَأْخُذَهُمْ

عَلَى تَحْوِيفٍ) أى على تنقص لهم . وكذلك اتفق لقطبة بن مالك إذ سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ في الصلاة : (وَالنَّمْلُ أَيْسَقَاتٍ) ذكره مسلم في باب القراءة في صلاة الفجر إلى غير ذلك من الأمثلة .
القول الثالث : أن هذه اللغات السبع إنما تكون في مضر قاله قوم ، واحتجوا بقول عثمان : نزل القرآن بلغة مضر ، وقالوا : جاز أن يكون منها لقريش ، ومنها لكثانة ، ومنها لأسد ، ومنها لهذيل ، ومنها لثيم ، ومنها لضبة ، ومنها لقيس ، قالوا : فهذه قبائل مضر تستوعب سبع لغات على هذه المراتب ؛ وقد كان ابن مسعود يجب أن يكون الذين يكتبون المصاحف من مضر . وأنكر آخرون أن تكون كلها في مضر ، وقالوا : في مضر شواذ لا يجوز أن يقرأ القرآن بها ، مثل كشكشة قيس ، وتمتعة تميم ، فأما كشكشة قيس فإنهم يحلون كاف المؤنث شيئا فيقولون في : (جَعَلَ رَبُّكَ تَحَنُّكَ مِرْيًا) . جعل ربك تحنن مرياً ، وأما تمتعة تميم فيقولون في الناس : الناس ، وفي أكياس : أكيات ، قالوا : وهذه لغات يرغب عن القرآن بها ولا يحفظ عن السلف فيها شيء .

وقال آخرون : أما إبدال الهمزة عينا وإبدال حروف الخلق بعضها من بعض فشهور عن الفصحاء ، وقد قرأ به الجلة واحتجوا بقراءة ابن مسعود : ليسجنته حتى حين ذكرها أبو داود ، ويقول ذى الرمة :

فميناك عيناها وجيدك جيدها • ولونك إلا عنها غير طائل

القول الرابع : ما حكاه صاحب الدلائل عن بعض العلماء وحكى نحوه القاضي ابن الطيب قال : تدرت وجوه الاختلاف في القراءة فوجدتها سبعا : منها ما تتغير حركته ولا يزول معناه ولا صورته ؛ مثل : (هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ) وأطهر ، (وَيَضِيقُ صُدْرِي) ويضيق ؛ ومنها ما لا تتغير صورته ويتغير معناه بالإعراب ؛ مثل : (رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا) وباعد ؛ ومنها ما تبقى صورته ويتغير معناه باختلاف الحروف ، مثل قوله : (نَنْشُرْهَا) ونشرها ومنها ما تتغير صورته ويبقى معناه ؛ (كَالْعَيْنِ الْمَنُوشِ) وكالصف المنفوش ؛ ومنها ما تتغير صورته ومعناه ، مثل : (وَطَلَعَ مَنُشُودٌ) وطلع منشود ؛ ومنها بالتقديم والتأخير كقوله : (وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ) وجاءت سكرة الحق بالموت ؛ ومنها بالزيادة والنقصان مثل قوله : تسع وتسعون نعمة أنفى وقوله : وأما النعام فكان كافرا وكان أبراه مؤمينا وقوله : فإن الله من بعد أكرهين لمن غفور رحيم .

القول الخامس : أن المراد بالأحرف السبعة معاني كتاب الله تعالى ، وهي أمر ونهى ووعد ووعيد وقصص ومجادلة وأمثال . قال ابن عطية : وهذا ضعيف لأن هذا لا يسمى أحرفاً ، وأيضاً فالاجماع على أن التوسعة لم تقع في تحليل حلال ولا في تغيير شيء من المعاني . وذكر القاضي ابن الطيب في هذا المعنى حديثاً عن النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم قال : ولكن ليست هذه هي التي أجاز لهم القراءة بها ، وإنما الحرف في هذه بمعنى الجهة والطريقة ؛ ومنه قوله تعالى : (وَيُنَاسِئُ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ عَلَى حَرْفٍ) فكذلك معنى هذا الحديث على مسجع طرائق من تحليل وتحريم وغير ذلك . وقد قيل : إن المراد بقوله عليه السلام : « أنزل القرآن على سبعة أحرف » القراءات السبع التي قرأ بها القراء السبعة ، لأنها كلها صححت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهذا ليس بشيء ، لظهور بطلانه على ما يأتي .

(فصل) قال كثير من علماء كالداودي وابن أبي صفرة وغيرهما : هذه القراءات السبع التي تنسب هؤلاء القراء السبعة ليست هي الأحرف السبعة التي اتسعت الصحابة في القراءة بها ، وإنما هي راجعة إلى حرف واحد من تلك السبعة ، وهو الذي جمع عليه عثمان المصحف ، ذكره ابن النحاس وغيره ؛ وهذه القراءات المشهورة هي اختيارات أولئك الأئمة القراء ، وذلك أن كل واحد منهم اختار فيما روى وعلم ونجيه من القراءات ما هو الأحسن عنده والأولى ، فالتزمه طريقة ورواه وأقرأ به واشتهر عنه ، وعرف به ونسب إليه ، فقيل : حرف ناقص ، وحرف ابن كثير ، ولم يمنع واحد منهم اختيار الآخر ولا أنكره بل سوّفه وجوّزه ، وكل واحد من هؤلاء السبعة روى عنه اختيارات أو أكثر وكل صحيح ، وقد أجمع المسلمون في هذه الأعصار على الاعتقاد على ما سمع عن هؤلاء الأئمة مما روه ورواه من القراءات وكتبوا في ذلك مصنفات ، فاستمر الاجماع على الصواب ، وحصل ما وعد الله به من حفظ الكتاب ؛ وعلى هذا الأئمة المتقدمون والفضلاء المحققون كالقاضي أبي بكر بن الطيب والطبري وغيرهما . قال ابن عطية : ومضت الأعصار والأعصار على قراءة السبعة وبها يصلح لأنها ثبتت بالاجماع ؛ وأما شاذ القراءات فلا يصلح به لأنه لم يجمع الناس عليه ، أما أن المروى منه عن الصحابة رضي الله عنهم وعن علماء التابعين فلا نعتقد فيه إلا أنهم روه ، وأما ما يؤثر عن أبي السائب ومن قارنه فإنه لا يوثق به ، قال غيره : أما شاذ القراءة عن المصاحف المتواترة فليست بقرآن ، ولا يعمل بها على أنها منه ،

وأحسن عاملها أن تكون بيان تأويل مذهب من نسبت إليه كقراءة ابن مسعود : فصيham ثلاثة أيام متتابعات ، فأما لو صرح الزاوي بسامها من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأختلف العلماء في العمل بذلك على قولين : النفي والاثبات ، ووجه النفي أن الزاوي لم يروه في معرض الخبر بل في معرض القرآن . ولم يثبت فلا يثبت ، والوجه الثاني أنه وإن لم يثبت كونه قرأاً فقد ثبت كونه سنة ، وذلك يوجب العمل كسائر أخبار الأحاد .

فصل في ذكر معنى حديث عمرو هشام . قال ابن عطية : أباح الله تعالى لنبيه عليه السلام هذه الحروف السبعة وعارضه بها جبريل عليه السلام في مرضه على الوجه الذي فيه الإعجاز وجودة الرصف ، ولم تقع الإباحة في قوله عليه السلام : « فلقروا ما تيسر منه » بأن يكون كل واحد من الصحابة إذا أراد أن يبدل اللفظة من بعض هذه الثلاث جعلها من تلقاء نفسه ، ولو كان هذا لتعجب إعجاز القرآن ، وكان معزماً أن يبدل هذا وهذا حتى يكون غير الذي نزل من عند الله ، وإنما وقعت الإباحة في الحروف السبعة للنبي صلى الله عليه وسلم ليوسع بها على أمته ، فأقرأ مرة لأبي بيا عارضة به جبريل ، ومرة لابن مسعود بما عارضه به أيضاً ، وعلى هذا نجى قراءة عمر بن الخطاب لسورة الفرقان ، وقراءة هشام بن حكيم لها ، وإلا فكيف يستقيم أن يقول النبي صلى الله عليه وسلم في كل قراءة منهما ، وقد اختلفتا : « هكذا أقرأني جبريل » هل ذلك إلا أنه أقرأ مرة بهنـه ومرة بهذه وعلى هذا يحمل قول أنس حين قرأ : إن ناشئة الليل هي أشد وطأ وأصوب قبلا فقليل له : إنما قرأ وأقوم قبلا . فقال أنس : وأصوب قبلا وأقوم قبلا وأما واحد ، فأما معنى هذا أنها مروية عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وإلا فلو كان هذا لأحد من الناس أن يضعه لبطل معنى قوله تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ . روى البخاري ومسلم وغيرهما عن عمر بن الخطاب قال : سمعت هشام بن حكيم يقرأ سورة الفرقان على غير ما أقرأها ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أقرأها ، فكنت أن أعجل عليه ، ثم أمهلت حتى أنصرف ثم ليته بردائه ، فبغت به رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت : يا رسول الله ، إني سمعت هذا يقرأ سورة الفرقان على غير ما أقرأتها ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أرسله ، أقرأ » فقرأ القراءة التي سمعته يقرأ ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

”هكذا أنزلت“ ثم قال لي : ”اقرأ“ فقرأت فقال : ”هكذا أنزلت إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف فأقوموا ما تيسر منه“ .

قلت : وفي معنى حديث عمر هذا، ما رواه مسلم عن أبي بن كعب قال : كنت في المسجد فدخل رجل يصلي، قرأ قراءة أنكبتها عليه، ثم دخل آخر فقرأ قراءة سوى قراءة صاحبه، فلما قضينا الصلاة دخلنا جميعا على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقلت : إن هذا قرأ قراءة أنكبتها عليه، ودخل آخر فقرأ سوى قراءة صاحبه، فأمرهما النبي صلى الله عليه وسلم، فقرأ أحسن النبي صلى الله عليه وسلم شأنهما، فسقط في نفسي من التكذيب ولا اذ كنت في الجاهلية، فلما رأى النبي صلى الله عليه وسلم ما قد غشيتني، ضرب في صدرى فقصت عرقا . وكأني أنظر إلى الله تعالى فرقا، فقال : ”يا أباي أرسل إلى أن أقرأ القرآن على حرف فرددت إليه أن هوّن على أمي فردّ إلى الثانية أن أقرأه على حرفين فرددت إليه أن هوّن على أمي فردّ إلى الثالثة أن أقرأه على سبعة أحرف ولك بكل ردة رددتكها مسألة تسألنيها فقلت : اللهم أخضر لأمتي وأخبرت الثالثة ليوم يرضى إلى فيه الخلق كلهم حتى إبراهيم عليه السلام“

قول أبي رضي الله عنه فسقط في نفسي معناه أعترفت بحيرة ودعشة أي أصابته نزغة من الشيطان لبشوش عليه حاله، ويكدر عليه وقته، فإنه عظم عليه من اختلاف القراءات ما ليس عظيما في نفسه ولا فای شيء يلزم من المحال والتكذيب من اختلاف القراءات، ولم يلزم ذلك والمحمد لله في السخ الذي هو أعظم، فكيف بالقراءة !

ولما رأى النبي صلى الله عليه وسلم ما أصابه من ذلك انطأ فنهى بأن ضربه في صدره، فأعقب ذلك بأن انشرح صدره وتورّ باطنه، حتى آل به الكشف والشرح إلى حالة المأينة، ولما ظهر له قبح ذلك انطأ خاف من الله تعالى وفاض بالعرف استحياء من الله تعالى، فكان هذا انطأ من قبيل ما قال فيه النبي صلى الله عليه وسلم — حين سأله : إنا نجد في أنفسنا ما يتعاظم أحدنا أن يتكلم به — قال : ”وقد وجدتموه“ قالوا : نعم قال : ”ذلك صريح الإيمان“ أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة . وسأى الكلام عليه في سورة الأعراف أن شاء الله تعالى .

باب ذكر جمع القرآن وميب كتب عثمان المصاحف وإحراقه ما سواها
وذكر من حفظ القرآن من الصحابة رضى الله عنهم في زمن النبي
صلى الله عليه وسلم

كان القرآن في مدة النبي صلى الله عليه وسلم متفرقا في صدور الرجال ، وقد كتب الناس منه في صحف وفي جريد وفي لحاف وطُرر وفي خزف وغير ذلك — قال الأصمعي : الخاف : حجارة بيض رقاق واحدها خُفَّة . والظُرر : حجر له حد كحد السكين والجمع ظُرار ، مثل رطب ورطاب ، ورُبَّع ورباع ، وطرزان أيضا مثل صرد وصردان — فلما استحر القتل بالقراء يوم اليمامة في زمن الصديق رضى الله عنه ، وقتل منهم في ذلك اليوم نيا قيل سبائة ، أشار عمر بن الخطاب على أبي بكر الصديق رضى الله عنهما بجمع القرآن مخافة أن يموت أشياخ القراء ، كآبٍ وابن مسعود وزيد ، فندب زيد بن ثابت إلى ذلك ، بقمعه غير مرتب السور ، بعد تعب شديد ، رضى الله عنه ، روى البخاري عن زيد بن ثابت قال : أرسل إلى أبو بكر مقتل أهل اليمامة وعنده عمر ، فقال أبو بكر : إن عرائني فقال إن القتل قد استحر يوم اليمامة بالناس ، وإنى أخشى أن يستحر القتل بالقراء في المواطن ، فيذهب كثير من القرآن إلا أن تجموه ، وإنى لأرى أن يجمع القرآن ، قال أبو بكر : فقلت لعمر كيف أفضل شيئا لم يضعه رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال : هو والله خير ، فلم يزل يراجعني حتى شرح الله لذلك صدري ، ورأيت الذي رأى عمر ، قال زيد : وعنده عمر جالس لا يتكلم ، فقال لي أبو بكر : إنك رجل شاب عاقل ولا تهملك ، كنت تكتب الوحي لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فتضع القرآن فاجمه ، فوافقه لو كلفني قل جبل من الجبال ما كان أهمل على — لما أمرني به من جمع القرآن ، قلت : كيف تفعلان شيئا لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال أبو بكر : هو والله خير ، فلم أزل أراجع حتى شرح الله صدري للذي شرح له صدر أبي بكر وعمر ، فقمت فتبعت القرآن أجمعه من الرقاق والأكاف والسب (٢) وصدور الرجال ، حتى وجدت من سورة التوبة آيتين مع خزيمة الأنصاري لم أبداهما مع

(١) الأكاف : جمع كف وهو مظم مرض يكون في أصل كنف الحيوان كانوا يكتبون فيه لغة القراطين عنهم .

(٢) السب : جمع سيب وهو جريد التفل إذا ترععه نومه .

فيه : (لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ) إلى آخرها . فكانت المصحف التي جمع فيها القرآن عند أبي بكر حتى نوافه الله ثم عند عمر حتى نوافه الله ثم عند حفصة بنت عمر . وقال الليث حدثني عبد الرحمن بن غالب عن ابن شهاب وقال : مع أبي خزيمة الأنصاري ، وقال أبو ثابت حدثنا إبراهيم وقال : مع خزيمة أو أبي خزيمة (فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ) .

وقال الترمذي في حديثه عنه : فوجدت آخر سورة براءة مع خزيمة بن ثابت (لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ) مَرَّزَ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ . فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ) . قال : حديث حسن صحيح .

وفي البخاري عن زيد بن ثابت قال : لما نسخنا المصحف في المصاحف فجدت آية من سورة الأحزاب ، كنت أسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأها ، لم أجدها مع أحد إلا مع خزيمة الأنصاري الذي جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم شهادته بشهادة رجلين (رَجُلًا صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ) . وقال الترمذي عنه : قدت آية من سورة الأحزاب كنت أسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأها (مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رَجُلًا صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ) فالتفتها فوجدتها عند خزيمة بن ثابت أو أبي خزيمة ، فالحقها في سورتها . قلت : فسقطت الآية الأولى من آخر براءة في الجمع الأول ، حل ما قاله البخاري والترمذي ، وفي الجمع الثاني فقدت آية من سورة الأحزاب . وحكي الطبري : أن آية براءة سقطت في الجمع الأخير ، والأول أصح والله أعلم . فإن قيل : فما وجه جمع عثمان الناس على مصحفه ، وقد سبقه أبو بكر إلى ذلك وفرغ منه ، قيل له : إن عثمان رضى الله عنه لم يصد بما صنع جمع الناس على تأليف المصحف ، ألا ترى كيف أرسل إلى حفصة : أن أرسل إلينا بالمصحف فنسخها في المصاحف ثم نردها إليك حل ما يأتي ، وإنما فعل ذلك عثمان لأن الناس اختلفوا في القراءات بسبب خرق الصحابة في البلدان واشتد الأمر في ذلك ، وعظم اختلافهم وتشبههم ، ووقع بين أهل الشام والعراق ما ذكره حذيفة رضى الله عنه ، وذلك أنهم اجتمعوا في غزوة أرمينية فقرأت كل طائفة بما روى لها ، فاختلوا وتنازعوا وأظهر بعضهم لكفار بعض والبراءة منه وتلافوا ، فاشفق حذيفة مما رأى منهم ، فلما قدم حذيفة المدينة فيها ذكر البخاري

والترمذى دخل الى عثان قبل أن يدخل الى بيته ، فقال أدرك هذه الأمة قبل أن تهلك ؛ قال :
 فيأذا ؟ قال : في كتاب الله ؛ إلى حضرت هذه الفتوة وجمعت ناسا من العراق والشام والنجاش ،
 فوصف له ما تقدم وقال : إلى أخشى عليهم أن يختلفوا في كتابهم كما اختلف اليهود والنصارى .
 قلت : وهذا أدل دليل على بطلان من قال : إن المراد بالأحرف السبعة قراءات الفتوة السبعة ،
 لأن الحق لا يختلف فيه ، وقد روى سويد بن غفلة عن علي بن أبي طالب أن عثان قال : ما ترون
 في المصاحف فإن الناس قد اختلفوا في القراءة حتى إن الرجل ليقول : إن قراءتي خير من قراءتك ،
 وقراءتي أفضل من قراءتك ، وهذا شبيه بالكفر ؛ قلنا : ما الرأي عندك يا أمير المؤمنين ؟ قال :
 الرأي عندي أن يسمع الناس على قراءة ، فإنكم إذا اختلفتم اليوم كان من بعدكم أشد اختلافًا قلنا :
 الرأي رأيك يا أمير المؤمنين . فأرسل عثان الى حفصة : أن أرسل اليها بالمصحف ننسخها في المصاحف
 ثم نردها اليك ، فأرسلت بها اليه فأمر زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاصي وعبد الرحمن
 ابن الحارث بن هشام فنسخوها في المصاحف ، وقال عثان للرهط القرشيين : اذا اختلفتم أتم وزيد
 ابن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش ، فإما نزل بلسانهم ، ففعلوا حتى اذا نسخوا
 المصحف في المصاحف رد عثان المصحف الى حفصة ، وأرسل الى كل أفق بمصحف مما نسخوا ،
 وأمر بما سوى ذلك من القرآن في كل صحيفة أو مصحف أن يحرق ؛ وكان هذا من عثان رضي الله عنه
 بعد أن جمع المهاجرين والأنصار وجملة أهل الاسلام وشاورهم في ذلك ، فاتفقوا على جمعه بما صح
 وثبت من القراءات المشهورة عن النبي صلى الله عليه وسلم وأطراح ما سواه ، واستصوبوا رأيه وكان
 رأيا سديدا موقفا رحمة الله عليه وعليهم أجمعين . وقال الطبري فيما روى : إن عثان قرن يزيد أبان
 ابن سعيد بن العاصي وحده وهذا ضعيف . وما ذكره البخاري والترمذى وغيرهما أصح ، وقال الطبري
 أيضا : إن المصحف التي كانت عند حفصة جلست إماما في هذا الجلع الأخير ، وهذا صحيح .

قال ابن شهاب : وأخبرني عبيد الله بن عبد الله أن عبد الله بن مسعود كره لزيد بن ثابت نسخ
 المصاحف ، وقال : يا مشر المسلمين ، أهنزل عن نسخ المصاحف ويتولاه رجل ، والله لقد أسلمت
 وإنه لقي صلب رجل كافرا ! — يريد زيد بن ثابت — ولذلك قال عبد الله بن مسعود : يا أهل
 العراق اكتموا المصاحف التي عندكم وغلواها ، فإن الله عز وجل يقول : (وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ

يَوْمَ الْقِيَامَةِ) فالتقوا الله بالمصاحف ، خرجه الترمذى . وسيأتى الكلام فى هذا فى سورة آل عمران ان شاء الله تعالى .

قال أبو بكر الأنبارى : ولم يكن الاختيار لزيد من جهة أبى بكر وعمر وعثمان على عبد الله بن مسعود فى جمع القرآن ، وعبد الله أفضل من زيد ، وأقدم فى الإسلام ، وأكثر سوابق ، وأعظم فضائل ، إلا لأن زيدا كان أحفظ للقرآن من عبد الله إذ وطأ كله ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم حن والذى حفظ منه عبد الله فى حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم نيف وسبعون سورة ، ثم تعلم الباقى بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم ، فألذى ختم القرآن وحفظه ورسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أولى بجمع المصحف وأحق بالإشارة والاختيار ، ولا ينبغي أن يظن جاهل أن فى هذا طعنا على عبد الله بن مسعود ، لأن زيدا اذا كان أحفظ للقرآن منه فليس ذلك موجبا لتقدمته عليه ، لأن أبى بكر وعمر رضى الله عنهما كان زيد أحفظ منهما للقرآن ، وليس هو خيرا منهما ولا مساويا لهما فى الفضائل والمناقب . قال أبو بكر : وما بدا من عبد الله بن مسعود من تكبر ذلك قسئ ، نتجه الغضب ، ولا يعمل به ولا يؤخذ به ، ولا يشك فى أنه رضى الله عنه . قد عرف بعد زوال الغضب عنه حسن اختيار عثمان ومن معه من اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبني على موافقتهم وترك الخلاف لهم ، فالشائع القائع المتعالم عند أهل الرواية والنقل : أن عبد الله بن مسعود تعلم بقية القرآن بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد قال بعض الأئمة : مات عبد الله بن مسعود قبل أن يختم القرآن . قال زيد بن هارون : المحدثان بمنزلة البقرة وآل عمران من زعم أنهما ليستا من القرآن فهو كافر بالله العظيم ، قليل له : يقول عبد الله بن مسعود فيهما ؟ فقال : لا خلاف بين المسلمين فى أن عبد الله بن مسعود مات وهو لا يحفظ القرآن كله . قلت : هذا فيه نظر وسيأتى ، وروى اسماعيل بن اسحاق وغيره قال حماد : أظنه عن أنس بن مالك ، قال : كانوا يختلفون فى الآية فيقولون اقرأها رسول الله صلى الله عليه وسلم فلان بن فلان ، فعسى أن يكون من المدينة على ثلاث ليال فيرسل إليه فيجاء به ، فيقال : كيف أقرأك رسول الله صلى الله عليه وسلم آية كذا وكذا ؟ فيكتبون كما قال . قال ابن شهاب : واختلفوا يومئذ فى التابوت ، فقال زيد : التابوت ، وقال ابن الزبير وسعيد بن العاصى التابوت ، فرفع اختلافهم الى عثمان فقال : اكتبوه بالتاء ، فإنه نزل بلسان قريش أخرجه البخارى والترمذى . قال ابن عطية :

قرأه زيد بإلهاء والقرشيون بالناء، فأثبتوه بالناء وكتبت للمصاحف على ما هو عليه فأبر البهر، ونسخ منها عثمان نسختا، قال غيره : قيل سبعة وقيل أربعة وهو الأكثر، ووجهها إلى الأفاق ، فوجهه للعراق والشام ومصر بأسماء، فاتخذها قراء الأمصار معتمد اختيارتهم ولم يخالف أحد منهم مصحفه على النحو الذي بلغه ، وما وجد بين هؤلاء القرء السبعة من الاختلاف في حروف يزيدنها بعضهم ويتقصها بعضهم فلذلك لأن كلا منهم اعتمد على ما بلغه في مصحفه ورواه، إذ قد كان عثمان كتب تلك المواضع في بعض النسخ ولم يكتبها في بعض إشمارا بأن كل ذلك صحيح ، وأن القراءة بكل منها جائزة . قال ابن عطية : ثم إن عثمان أمر بما سواها من المصاحف أن تحرق أو تحرق، تروى بإلهاء غير منقولة وتروى بإلهاء على معنى ثم تلغى ؛ ورواية إلهاء غير منقولة أحسن .

وذكر أبو بكر الأنباري في كتاب الرد عن سويد بن غفلة قال : سمعت علي بن أبي طالب كرم الله وجهه يقول : يا معشر الناس اتقوا الله وإياكم والتقوا في عثمان وقولكم : حرق المصاحف، فوافقه ما حرقها إلا عن ملأ من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم . وعن عمر بن سعيد قال : قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : لو كنت الوالي وقت عثمان لفعلت في المصاحف مثل الذي فعل عثمان ، قال أبو الحسن بن بطال : وفي أمر عثمان بحرق الصحف والمصاحف حين جمع القرآن جواز تحريق الكتب التي فيها أسماء الله تعالى، وأن ذلك إكرام لما وصي الله من الوطء بالأقدام، وطرحها في ضياع من الأرض . روى معمر عن ابن طلوس عن أبيه : أنه كان يحرق الصحف إذا اجتمعت عنده الرسائل فيها بسم الله الرحمن الرحيم . وحرق عمرو بن الزبير كتب قصه كانت عنده يوم الحزوة، وكره إبراهيم أن تحرق الصحف إذا كان فيها ذكر الله تعالى، وقول من حرقها أولى بالصواب، وقد فعله عثمان، وقد قال القاضي أبو بكر لسان الأمة : جائز للإمام تحريق الصحف التي فيها القرآن، إنما أتاه الاجتهاد إلى ذلك .

فصل - قال علماؤنا رحمته الله عليهم : وفي فعل عثمان رضي الله عنه رد على الحلولية والحشوية الثقاتين بقدم الحروف والأصوات، وأن القراءة والتلاوة قديمة، وأن الإيمان قديم، والروح قديم؛

(١) الحلولية : فرقة من المصنفة تقول : إن الله حال في كل شيء، وفي كل من معه شيء حتى جهنم، أن يخلق كل شيء أنه الله . والحشوية طائفة من المبتعة تسكوا بالقوام وتحموا إلى التمسيم وتبوءه .

وقد أجمعت الأمة وكل أمة من النصارى واليهود والبراهمة بل كل ملحد وموحد أن القديم لا يفعل ولا تتعاق به قدرة قادر بوجه ولا بسبب ، ولا يجوز العدم على القديم وأن القديم لا يصير محدثا ، والمحدث لا يصير قديما ، وأن القديم مالا أول لوجوده ، وأن المحدث هو ما كان بعد أن لم يكن ، وهذه الطائفة تحرق إجماع العقلاء من أهل الملل وغيرهم ؛ فقالوا : يجوز أن يصير المحدث قديما ، وأن العبد إذا قرأ كلام الله تعالى فعل كلاما لله قديما ، وكذلك إذا نحت حروفا من الآجر والخشب ، أو صاغ أحرفا من الذهب والفضة ، أو نسج ثوبا فنسج عليه آية من كتاب الله فقد فعل هؤلاء كلام الله قديما ، وصار كلامه منسوجا قديما ومنحوتا قديما ومصوفا قديما ؛ فيقال لهم : ما تقولون في كلام الله تعالى : أيجوز أن يذاب ويحرق ؟ فإن قالوا : نعم ، فارقوا الدين ، وإن قالوا : لا ، قيل لهم : فما قولكم في حروف مصورة آية من كتاب الله تعالى من شمع ، أو ذهب أو فضة أو خشب أو كافد فوقعت في النار فذابت واحتقرت فهل تقولون : إن كلام الله احترق ؟ فإن قالوا : نعم ، تركوا قولهم ؛ وإن قالوا : لا قيل لهم : أليس قلتم : إن هذه الكتابة كلام الله وقد احتقرت ! قلتم : إن هذه الأحرف كلامه وقد ذابت ؛ فإن قالوا : احتقرت الحروف وكلامه تعالى باق ، رجعوا إلى الحق والصواب ودانوا بالجواب ؛ وهو الذي قاله النبي صلى الله عليه وسلم ، منها على ما يقوله أهل الحق : «ولو كان القرآن في إهاب ثم وقع في النار ما احترق» وقال الله عز وجل : «نزلت عليك كتابا لا يغسله الماء تقرؤه نائما ويقظان» الحديث أخرجه مسلم ثبت بهذا أن كلامه سبحانه ليس بحرف ولا يشبه الحروف . والكلام في هذه المسألة يطول ونعيمها في كتب الأصول ، وقد بيناها في «الكتاب الأسنى» في شرح أسماء الله الحسنى .

فصل - وقد علمنا الرافضة - فحجهم الله تعالى - في القرآن ، وقالوا : إن الواحد يكفي في نقل الآية والحرف كما قلتم ، فانكم أنتم تقولون رجلا واحدا وهو خزيمة بن ثابت وحده آخر سورة براءة ، وقوله : **(مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِيسَالٌ)** فالجواب أن خزيمة رضى الله عنه لما جاء بهما تذكرهما كثير من الصحابة ، وقد كان زيد يعرفهما ، ولذلك قال : فقدت آيتين من آخر سورة التوبة ولو لم يعرفهما لم يدرك هل فقد شيئا أو لا فالآية إنما ثبتت بالإجماع لا بخزيمة وحده وجواب ثان إنما ثبتت بشهادة خزيمة وحده لقيام الدليل على صحته في حجة النبي صلى الله عليه وسلم ، فهي قرينة تنفي عن طلب شاهد آخر بخلاف آية

الأحزاب فإن تلك ثبتت بشهادة زيد وأبي خزيمة لسماعهما إياها من النبي صلى الله عليه وسلم . قال معناه المهلب ، وذكر أن خزيمه غير أبي خزيمه ، وأن أبا خزيمه الذي وجدت معه آية التوبة معروف من الأنصار ، وقد عرفه أنس وقال : نحن ورثاه ، والتي في الأحزاب وجدت مع خزيمه بن ثابت فلا تمارض ، والقصة غير القصة لا إشكال فيها ولا التباس . وقال ابن عبد البر : أبو خزيمه لا يوقف على صحة اسمه وهو مشهور بكنيته ، وهو أبو خزيمه بن أوس بن يزيد بن أصرم بن ثعلبة بن ختم بن مالك بن التجار ، شهد بدرًا وما بعدها من المشاهد ، وتوفي في خلافة عثمان بن عفان ، وهو أخو مسعود بن أوس ، قال ابن شهاب عن عبيد بن السباق عن زيد بن ثابت : وجدت آخر التوبة مع أبي خزيمه الأنصاري وهو هذا ، وليس بينه وبين الحارث بن خزيمه نسب ^(١) إلا اجتماعهما في الأنصار ، أحدهما أوسى والآخر خزيمى . وفي مسلم والبخارى عن أنس بن مالك قال : جمع القرآن على عهد النبي صلى الله عليه وسلم أربعة كلهم من الأنصار : ابن بن كعب ، ومعاذ بن جبل ، وزيد بن ثابت ، وأبو زيد . قلت لأنس : من أبو زيد ؟ قال : أحد حموتى . وفي البخارى أيضا عن أنس قال : مات النبي صلى الله عليه وسلم ولم يجمع القرآن غير أربعة : أبو الدرداء ، ومعاذ بن جبل ، وزيد ، وأبو زيد ، ونحن ورثاه . وفي أخرى قال : مات أبو زيد ولم يترك حقا ، وكان بدرًا ، واسم أبي زيد سعد بن عبيد . قال ابن الطيب رضى الله عنه : لا تمل هذه الآثار على أن القرآن لم يحفظه في حياة النبي صلى الله عليه وسلم ، ولم يجمعه غير أربعة من الأنصار كما قال أنس بن مالك ، فقد ثبت بالطرق المتواترة أنه جمع القرآن عثمان وعلى ونعم الباري وعبادة بن الصامت وصلى الله ابن عمرو بن العاص ، يقول أنس : لم يجمع القرآن غير أربعة يحتمل أنه لم يجمع القرآن وأخذ بقية من رسول الله صلى الله عليه وسلم غير تلك الجماعة ، فإن أكثرهم أخذ بعضه عنه وبعضه من غيره . وقد تظاهرت الروايات بأن الأئمة الأربعة جمعوا القرآن على عهد النبي صلى الله عليه وسلم لأجل سبقهم إلى الاسلام ، وإعظام الرسول صلى الله عليه وسلم لهم . قلت : لم يذكر القاضي ، عبد الله بن

(١) في الأصل الحارث بن خزيمه أبي خزيمه ، وقطيب بن خزيمه ، خزيمه بن الحارث بن الخزيمه ، خزيمه بن الحارث بن الخزيمه .

مسعود وسالم مولى أبي حذيفة رضى الله عنهما فيما رأيت ، وهما من جمع القرآن . روى جرير عن عبد الله بن يزيد الصبائي عن كميل قال :

قال عمر بن الخطاب : كنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم معه أبو بكر ومن شاء الله ، فرأى بعد الله بن مسعود وهو يصلي ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من هذا الذى يقرأ القرآن " . فقيل له : هذا عبد الله بن أم عبد ، فقال : " إن عبد الله يقرأ القرآن غصبا كما أنزل " . الحديث ، قال بعض العلماء : معنى قوله : « غصبا كما أنزل » أى أنه كان يقرأ الحرف الأول الذى أنزل عليه القرآن دون الحروف السبعة التى رخص لرسول الله صلى الله عليه وسلم فى قراءته عليها بعد معارضة جبريل عليه السلام القرآن إياه فى كل رمضان . وقد روى وكيع وجماعة معه عن الأعمش عن أبي ظبيان قال : قال لى عبد الله بن عباس : أى القراءتين تقرأ ؟ قلت : القراءة الأولى قراءة ابن أم عبد ؛ فقال لى : بل هى الآخرة ، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يعرض القرآن على جبريل فى كل عام مرة ، فلما كان العام الذى قبض فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم عرضه عليه مرتين ، فحضر ذلك عبد الله فلم ما نسخ من ذلك وما بدل . وفى صحيح مسلم عن عبد الله بن عمر قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « خذوا القرآن من أربعة من ابن أم عبد » . فبدأ به : « ومعاذ ابن جبل وأبى بن كعب وسالم مولى أبى حذيفة » . قلت : هذه الأخبار تدل على أن عبد الله جمع القرآن فى حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم خلاف ما تقدم ، والله أعلم .

وقد ذكر أبو بكر الأنبارى فى كتاب الرد : حدثنا عبد بن شهر ياز حدثنا حسين بن الأسود حدثنا يحيى بن آدم عن أبى بكر عن أبى إسحاق قال : قال عبد الله بن مسعود : قرأت من فى رسول الله صلى الله عليه وسلم اثنتين وسبعين سورة أو ثلاثا وسبعين سورة ، وقرأت عليه من البقرة الى قوله تعالى : (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ) . قال أبو إسحاق : وتعلم عبد الله بقية القرآن من جميع ابن جارية الأنصارى . قلت : فإن صح هذا صح الإجماع الذى ذكره يزيد بن هارون فلذلك لم يذكره القاضى أبو بكر بن الطيب مع من جمع القرآن وحفظه فى حياة النبي صلى الله عليه وسلم والله أعلم .

قال أبو بكر الأنبارى : حدثني إبراهيم بن موسى الخوزى حدثنا يوسف بن موسى حدثنا مالك بن اسماعيل حدثنا زهير عن أبى إسحاق قال : سألت الأسود ما كان عبد الله يصنع بسورة الأعراف ؟

فقال : ما كان يعلمها حتى قدم الكوفة ، قال : وقد قال بعض أهل العلم : مات عبد الله بن مسعود
رحمة الله عليه قبل أن يتعلم المؤمنون ، فلهذه العلة لم توجد في مصحفه ، وقيل : غير هذا على ما يأتي
ببانه آخر الكتاب عند ذكر المؤمنون أن شاء الله تعالى .

قال أبو بكر : والحديث الذي حدثناه إبراهيم بن موسى حدثنا يوسف بن موسى حدثنا عمر بن
هارون الخراساني عن ربيعة بن عثمان عن محمد بن حكيم القرظي قال : كان ممن ختم القرآن
ورسول الله صلى الله عليه وسلم حتى عثمان بن عفان وصلى بن أبي طالب وعبد الله بن مسعود ، حديث
ليس بصحيح عند أهل العلم ، إنما هو مقصور على محمد بن كعب فهو مقطوع لا يؤخذ به ولا يعول
عليه . قلت : قوله عليه السلام : «خذوا القرآن من أربعة من ابن أم عبد» . يدل على صحته
ومما يبين لك ذلك أن أصحاب القراءات من أهل الجواز والشام وال عراق كل منهم عزاء قراءته التي
اختارها إلى رجل من الصحابة قراها على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لم يستثن من جملة القرآن
شيئا ، فأسند طاصم قراءته إلى علي وابن مسعود ، وأسند ابن كثير قراءته إلى أبي ، وكذلك أبو عمرو
ابن العلاء أسند قراءته إلى أبي ، وأما عبد الله بن عامر فإنه أسند قراءته إلى عثمان ، وهؤلاء كلهم
يقولون : قرأنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأسند هذه القراءات متصلة ورجالها نقات
قوله الخطابي .

باب ما جاء في ترتيب سور القرآن وآياته وشكله ونقطه ومخرجه

وتعشيره وعدد حروفه وأجزائه وكلماته وآية

قال ابن الطيب : إن قال قائل : قد اختلف السلف في ترتيب سور القرآن ، فمنهم من كتب
في مصحفه السور على تاريخ نزولها ، وقسم المكي على المدني ، ومنهم من جعل في أول مصحفه الحمد ،
ومنهم من جعل في أوله : ﴿ أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ ﴾ وهذا أول مصحف علي رضي الله عنه ، وأما مصحف
ابن مسعود فإن أوله : ﴿ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ ثم البقرة ثم النساء على ترتيب مختلف ، ومصحف
أبي كان أوله الحمد ثم النساء ثم آل عمران ثم الأقسام ثم الأعراف ثم المائدة ثم ذلك على اختلاف
شديد . قال القاضي أبو بكر بن الطيب : فالجواب أنه يحتمل أن يكون ترتيب الصور على ما هي عليه
اليوم في المصحف كان على وجه الاجتهاد من الصحابة . وذكرنا ذلك مكي رحمه الله في تفسير سورة

براهة، وقد ذكر أن ترتيب الآيات في السور ووضع البسملة في الأوائل هو من النبي صلى الله عليه وسلم، ولما لم يأمر بذلك في أول سورة براءة تركت بلا بسملة، هذا أصح ما قيل في ذلك وسيأتي .

وذكر ابن وهب في جامعه قال : سمعت سليمان بن بلال يقول سمعت ربيعة يسأل : لم قلست البقرة وآل عمران، وقد نزل قبلهما بضع وثمانون سورة، وإنما نزلتا بالمدينة؟ فقال ربيعة: قد قلعتا وألف القرآن على علم من ألفه ، وقد اجتمعوا على العلم بذلك ، فهذا مما يقتضى إليه، ولا يسأل عنه . وقد ذكر سديد قال حدثنا معتمر عن سلام بن مسكين عن قتادة قال : قال ابن مسعود : "من كانت منكم مناسيا فليتأس باحسان رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنهم كانوا أبر هذه الأمة قلوبا، وأعمقها علما، وأقلها تكلفا، وأقومها هديا، وأحسنها حالا، اختارهم الله لصحبة نبيه صلى الله عليه وسلم وإقامة دينه، فاعرفوا لهم فضلهم، واتبعوهم في آثارهم، فإنهم كانوا على الهدى المستقيم" . وقال قوم من أهل العلم : إن تأليف سور القرآن على ما هو عليه في مصحفنا كان عن توفيق من النبي صلى الله عليه وسلم، وأما ما روى من اختلاف مصحف أبي وعلي وعبد الله فإنما كان قبل العرض الأخير، وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم رتب لهم تأليف السور بعد أن لم يكن عمل ذلك . روى يونس عن ابن وهب قال : سمعت مالك يقول : إنما ألف القرآن على ما كانوا يسمعون من رسول الله صلى الله عليه وسلم . وذكر أبو بكر الأباري في كتاب الرد : أن الله تعالى أنزل القرآن جملة إلى سماء الدنيا، ثم فرق على النبي صلى الله عليه وسلم في عشرين سنة، وكانت السورة تنزل في أمر يحدث، والآية جولية لمستخبر يسأل، ويوقف جبريل رسول الله صلى الله عليه وسلم على موضع السورة والآية، فأنشأ السور كأنشأ الآيات والحروف، فكله من عند خاتم النبيين، عليه السلام من رب العالمين، فمن أنشأ سورة مقدمة أو قدم أخرى مؤخرة فهو كمن أنشد نظم الآيات، وغير المعروف والكلمات، ولا حجة على أهل الحق في تقديم البقرة على الأشمام، والأنعام نزلت قبل البقرة لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذ عنه هذا الترتيب، وهو كان يقول : "ضعوا هذه السورة موضع كذا وكذا من القرآن" . وكان جبريل عليه السلام ينفه على مكان الآيات .

حدثنا يحيى بن الجلاب حدثنا أبو هشام حدثنا أبو بكر بن عياش عن أبي إسحاق عن البراء بن مالك عن أنس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : (يَسْتَوِيَنَّ قُلُوبُكُمُ اللَّهُ يَفْتِيَكُمْ فِي الْحِكَاةِ) . قال أبو بكر بن عياش :

وأخطأ أبو إسحاق لأن محمد بن السائب حدثنا عن أبي السائب عن ابن عباس قال : آخر ما نزل من القرآن : (وَأَقِمُّوا يُومًا تَرْجِعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ) . وقال جبريل للنبي عليهما السلام : يا محمد ضمهما في رأس ثمانين ومائتين من البقرة .

قال أبو الحسن بن بطال : ومن قال بهذا القول لا يقول : إن تلاوة القرآن في الصلاة والدرس يجب أن تكون مرتبة على حسب الترتيب الموقوف عليه في المصحف ، بل إنما يجب تأليف سورة في الرسم والخط خاصة ، ولا يعلم أن أحدا منهم قال : إن ترتيب ذلك واجب في الصلاة وفي قراءة القرآن ودرسه ، وأنه لا يحمل لأحد أن يتلفن الكهف قبل البقرة ولا الحج قبل الكهف ، ألا ترى قول عائشة رضي الله عنها للذي سألهما : لا يضرك أيه قرأت قبل ؛ وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ في الصلاة السورة في ركعة ، ثم يقرأ في ركعة أخرى بغير السورة التي تليها ؛ وأما ما روى عن ابن مسعود وابن عمر أنهما كرهما أن يقرأ القرآن منكوسا ؛ وقالا : ذلك منكوس القلب ، فإنما عنا بذلك من يقرأ السورة منكوسة ، ويتحدث من آخرها إلى أولها لأن ذلك حرام محظور ؛ ومن الناس من يتماطى هنا في القرآن والشعر ليزال لسانه بذلك ويقدر على الحفظ ، وهذا حظرة الله تعالى ومنعه في القرآن ، لأنه إفساد لسوره وبخلافه لما قصد بها .

ومما يدل على أنه لا يجب إثباته في المصاحف على تاريخ نزوله ما صح ونجت أن الآيات كانت تنزل بالمدينة فتوضع في السورة المكية ، ألا ترى قول عائشة رضي الله عنها : وما نزلت سورة البقرة والنساء إلا وأنا عنده — تعني بالمدينة — وقد قدمنا في المصحف على ما نزل قبلهما من القرآن بمكة ، ولو أقوه على تاريخ الترتول لوجب أن ينقص ترتيب آيات السور .

قال أبو بكر الأنباري حدثنا اسماعيل بن إسحاق القاضي حدثنا حجاج بن منهال حدثنا مام عن قتادة قال : نزل بالمدينة من القرآن البقرة ، وآل عمران ، والنساء ، والمائدة ، والأنفال ، وبراءة ، والرعد ، والنمل ، والحج ، والتور ، والاحزاب ، ومحمد ، والفتح ، والحجرات ، والرحمن ، والحديد ، والمجادلة ، والحشر ، والمنحة ، والصف ، والجمعة ، والمناقصون ، والتائبين ، والطلاق ، وبأياها النبي لم تحترم إلى رأس العشر ، وإنما زلزلت ، وإذا جاء نصر الله . هؤلاء السور نزلن بالمدينة ، وسائر القرآن نزل بمكة .

قال أبو بكر : فمن عمل على ترك الأثر والإعراض عن الإجماع ونظم السور على منازلها بمكة والمدينة ، لم يدركن هج الفاتحة ، لاختلاف الناس في موضع نزولها ، ويضطر إلى تأخير الآية التي في رأس خمس وثلاثين ومائتين من البقرة إلى رأس الأربعين ، ومن أفسد نظم القرآن فقد كفر به ، ورد على محمد صلى الله عليه وسلم ما حكاه عن ربه تعالى ؛ وقد قيل : إن ملة تهديم المدين على المكى هو أن الله تعالى خاطب العرب بلغتها ، وما يعرف من أفاثين خطابها ومعارفها ؛ فلما كانت فن من كلامهم مبني على تقديم المؤخر وتأخير المقدم خطبوا بهذا المعنى في كتاب الله تعالى الذي لو فقدوه من القرآن لقالوا ما باله عرى من هذا الباب الموجود في كلامنا المستعمل من نظامنا . قال صيد ابن الأبرص :

أَن بُدِّلَتْ مِنْهُمُ وَحُوشًا * وَفُتِرَتْ حَامِلًا الْخَطُوبُ
عَيْنَاكَ دَمْعُهُمَا مَرْوَبٌ * كَأَنَّ شَانِيَهُمَا شَعِيبٌ

أراد عيناك دمعهما مَرْوَبٌ لأن تبدلت من أهلها وحوشا ، فقدم المؤخر وأخر المقدم ؛ ومعنى مَرْوَبٌ : منصب على وجه الأرض . ومنه السارب ، قال الشاعر :

* أَلَيْسَ مَرِيتُ وَكُنْتُ فَيْرَ مَرْوَبٍ *

وقوله شَانِيَهُمَا ، الشان : واحد الشؤون ومعنى مواصل قبائل الراس وملتحاقها ، ومنها يحيى الدمع . شعيب : متفرق .

فصل — وأما شكل المصحف وقطعه فروى أن عبد الملك بن مروان أمر به وعمله ، فتعجز لذلك الججاج بواسط وجده فيه وزاد تحزبه ، وأمر وهو والى العراق الحسن ويحيى بن يعمر بذلك ، وألف إثر ذلك بواسط كتابا في القراءات جمع فيه ما روى من اختلاف الناس فيما وافق الخط ، ومشى الناس على ذلك زمانا طويلا ، إلى أن ألف ابن جلعاد كتابه في القراءات .

وأسد الزبيدي في كتاب الطبقات إلى المبرد أن أول من قط المصحف أبو الأسود الدؤلي ؛ وذكر أيضا أن ابن سيرين كان له مصحف قطعه له يحيى بن يعمر .

فصل — وأما وضع الأضمار فقال ابن عطية : مرّ بي في بعض التواريخ أن للأماون العباسي أمر بذلك ، وقيل إن الججاج قصل ذلك . وذكر أبو عمرو الداني في كتاب البيان له عن عبد الله

ابن مسعود أنه كره التمشير في المصحف ، وأنه كان يحكه . وعن مجاهد أنه كره التمشير والطيب في المصحف . وقال أشهب : سمعت مالكا وسئل عن العشور التي تكون في المصحف بالحجرة وغيرها من الألوان ، فكره ذلك ، وقال : تمشير المصحف بالحبر لا بأس به ، وسئل عن المصاحف يكتب فيها خواتم السور في كل سورة ما فيها من آية ، قال : إني أكره ذلك في أمهات المصاحف أن يكتب فيها شيء ، أو يشكل ، فاما ما يتعلم به العلمان من المصاحف فلا أرى بذلك بأسا . قال أشهب : ثم أخرج إلينا مصحفا جلده ، كتبه إذ كتب عثمان المصاحف ، فرأينا خواتمه من حبر على عمل السلسلة في طول السطر ، ورأيت معجوم الآي بالحبر . وقال قتادة : بدعوا ففقطوا ثم نحسوا ثم عثروا . وقال يحيى بن أبي كثير : كان القرآن مجزأ في المصاحف ، فأقول ما أجدوا فيه النقط على الباء والتاء والياء ، وقالوا : لا بأس به ، هو نور له ، ثم أخذوا قطعا عند منتهى الآي ، ثم أخذوا الفواتح والخواتم . وعن أبي حمزة قال : رأى إبراهيم النخعي في مصحف فاطمة سورة كذا وكذا ، فقال لي : اخذ فان عبد الله بن مسعود قال : لا تخططوا في كتاب الله ما ليس فيه . وعن أبي بكر السراج قال : قلت لأبي رزين : أأكتب في مصحفى سورة كذا وكذا ، قال : إني أخاف أن ينشأ قوم لا يعرفونه فيظنون أنه من القرآن .

قال الداني رضي الله عنه : وهذه الأخبار كلها تؤذن بأن التمشير والتخميس وفواتح السور ورءوس الآي من عمل الصحابة رضي الله عنهم ، قادم إلى عمله الاجتهاد ، وأرى أن من كره ذلك منهم ومن غيرهم إنما كره أن يعمل بالألوان كالحجرة والصفرة وغيرها ، على أن المسلمين في سائر الآفاق قد أطبقوا على جواز ذلك واستعمله في الأمهات وغيرها ، والخرج والخطأ مرتضيان منهم فيما أطبقوا عليه إن شاء الله .

فصل — وأما عدد حروفه وأحزابه فروى سلام أبو محمد الحناني أن المجاج بن يوسف جمع القراء والحفاظ والكتاب ، فقال : أخبروني عن القرآن كله كم من حرف هو . قال : وكنت فيهم فحسبنا فأجمعنا على أن القرآن ثلثمائة ألف حرف وأربعون ألف حرف وسبعمائة حرف وأربعون حرفا ، قال : فأخبروني إلى أي حرف ينتهي نصف القرآن ، فإذا هو في الكهف "وَلْيَسْلُطْ" في الفاء ، قال : فأخبروني بأبلامه فإذا الثلث الأول رأس مائة من برائة ، والثلث الثاني رأس مائة وإحدى

من طسم الشعراء، والثالث الثالث ما بقي من القرآن؛ قال : فأخبروني بأسباعه على الحروف، فإذا أول سبع في النساء (فَنُفِثَ مِنْ لَحْنٍ بِهِ وَيَنْفُثُ مِنْ صَدِّ) في البلال، والسبع الثاني في الأعراف (أُولَئِكَ حَاطَتِ) في النساء، والسبع الثالث في الرعد (أَكْثَرُهَا دَائِمٌ) في الألف من آخر أكلها، والسبع الرابع في الحج (وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَسَاجِدَ) في الألف، والسبع الخامس في الأحزاب (وَمَا كُنَّا لِمُؤْمِنِينَ وَلَا مُؤْمِنَةٍ) في الهاء، والسبع السادس في الفتح (الظَّالِمِينَ إِنَّهُ عَلَّمَ السُّورَةَ) في الواو، والسبع السابع ما بقي من القرآن .

قال سلام أبو محمد : علمناه في أربعة أشهر، وكان المجلج يقرأ في كل ليلة ربعا، فأول ربعة ستامة الأسماء . والرابع الثاني في الكهف "وَلْيَتَلَطَّفْ" ، والرابع الثالث خاتمة الزمر، والرابع الرابع ما بقي من القرآن، وفي هذه الجملة خلاف مذكور في كتاب البيان لأبي عمرو الثاني، من أراد الوقوف عليه وجده هناك .

فصل - وأما عدد آي القرآن في المديني الأول، فقال محمد بن عيسى : جميع عدد آي القرآن في المديني الأول ستة آلاف آية . قال أبو عمرو : وهو العدد الذي رواه أهل الكوفة من أهل المدينة ولم يسموا في ذلك أحدا يثبت به سندونه إليه .

وأما المديني الأخير فهو في قول اسماعيل بن جعفر : ستة آلاف آية ومائتا آية وأربع عشرة آية . وقال الفضل : عدد آي القرآن في قول المكين ستة آلاف آية ومائتا آية وتسع عشرة آية . قال محمد ابن عيسى : وجميع عدد آي القرآن في قول الكوفيين ستة آلاف آية ومائتا آية وثلاثون وست آيات، وهو العدد الذي رواه مسلم والكاشي عن حمزة وأسنده الكاشي إلى علي رضي الله عنه . قال محمد : وجميع عدد آي القرآن في عدد البصريين ستة آلاف ومائتان وأربع آيات، وهو العدد الذي مضى عليه سلفهم حتى الآن ؛ وأما عدد أهل الشام فقال يحيى بن الحارث النخعي : ستة آلاف ومائتان وست وعشرون، في رواية ستة آلاف ومائتان وخمس وعشرون قصص آية . قال ابن ذكوان : فظننت أن يحيى لم يعد (بسم الله الرحمن الرحيم) . قال أبو عمرو : فهذه الأعداد التي يتداولها الناس ألقافا، ويعتدون بها في سائر الألقاف قديما وحديثا .

وأما كلماته فقال الفضل بن شاذان : جميع كلمات القرآن في قول عطاه بن يسار : سبعة وسبعون ألفا وأربعمائة وتسع وثلاثون كلمة ؛ وحروفه ثلثمائة ألف وثلاثة وعشرون ألفا وخمسة عشر حرفا . قلت : هذا يخالف ما تقدم عن الجاني قبل هذا . وقال عبد الله بن كثير عن مجاهد قال : هذا ما أحصيناه من القرآن ، وهو ثلثمائة ألف حرف وأحد وعشرون ألف حرف ومائة وثمانون حرفا ، وهذا يخالف ما ذكره قبل هذا عن الجاني من عد حروفه .

باب ذكر معنى السورة والآية والكلمة والحرف .

معنى السورة في كلام العرب الإبانة لما من سورة أخرى وأخصالها عنها ، وسميت بذلك لأنها يرتفع فيها من منزلة إلى منزلة . قال النابغة :

الم تر أن الله أعطاك سورة . ترى كل ملك دونها يتذنب

أي منزلة شرف ارتفعت إليها من منزل الملوك . وقيل : سميت بذلك لشرفها وارتفاعها كما يقال لما ارتفع من الأرض سور . وقيل : سميت بذلك لأن قارئها يشرف على ما لم يكن عنده ، كسور البناء ، كله بغير همز . وقيل : سميت بذلك لأنها قطعت من القرآن على حدة ، من قول العرب للبقية : سور ، وجاء في أسرار الناس أي بقاياهم ، فعلى هذا يكون الأصل سورة بالمهمز ثم خففت فأبدلت واوا لانضمام ما قبلها . وقيل : سميت بذلك لتماها وكاملها من قول العرب للثقة التامة : سورة ، وجمع سورة سور بفتح الواو . وقال الشاعر :

• سود الحاجر لا يُقرن بالسور •

ويجوز أن يجمع على سوريات وسورات .

وأما الآية فهي العلامة بمعنى أنها علامة لالتقاط الكلام الذي قبلها من الذي بعدها وأخصاله ، أي هي بائنة من أختها ومنفردة ، وتقول العرب : بيني وبين فلان آية ، أي علامة ، ومن ذلك قوله تعالى : (إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ) وقال النابغة :

توهمت آيات لما فرقتها • لست أعوام وذا العام مابح

وقيل : سميت آية لأنها جماعة حروف من القرآن وطائفة منه ، كما يقال : خرج القوم بأيتم أي بجاعتهم . قال برج بن مسهر الطائي :

نرجنا من التقيين لاحقاً مثلنا * بأيتنا نرجى اللقاح الماطلا

وقيل ، سميت آية لأنها عجب بعمز البشر عن التكلم بمثلها . واختلف التحويين في أصل آية ، فقال سيبويه آية على فعلة مثل أكمة وشجرة ، فلما تحركت الياء وانفتح ما قبلها انقلبت ألفا فصارت آية بهجرة بعدها مدة . وقال الكسائي : أصلها آية على وزن فاعلة مثل آمنة فقلبت الياء ألفا لتحركها وانفتاح ما قبلها ، ثم حذف لاتباسها بالجمع . وقال الفراء : أصلها آية بتشديد الياء الأولى فقلبت ألفا كراهة للتشديد فصارت آية وجمعها آى وآياه وآيات . وأشد أبو زيد :

لم يبق هذا الدهر من آياته * غير ألقفه وأرمداته

وأما الكلمة فهي الصورة القائمة بجميع ما يختلط بها من الشبكات أي الحروف ، وأطول الكلم في كتاب الله عز وجل ما بلغ عشرة أحرف ، نحو قوله تعالى : (لَيْسَتْ خَفَّتُمْ) . (وَأَنْزَلْنَا مَكِّيَّهَا) وشبههما ، فاما قوله : (فَاسْقِطْ كُوَّةً) فهو عشرة أحرف في الرسم وأحد عشر في اللفظ ، وأقصرهن ما كان على حرفين نحو ما ولا ولك وله وما أشبه ذلك . ومن حروف المصاني ما هو على كلمة واحدة ، مثل همزة الاستفهام وولو العطف ، إلا أنه لا ينطق به مفردا . وقد تكون الكلمة وحدها آية تامة نحو قوله تعالى : (والفجر) . (والضحى) . (والمصر) . وكذلك (ألم) . و (ألمص) . و (طه) (يس) . و (حم) في قول الكوفيين ، وذلك في فوائح السور ، فاما في حشوهن فلا . قال أبو عمرو الباني : ولا أعلم كلمة هي وحدها آية الا قوله في الرحمن : (مَدْحَانِ) لا غير ، وقد أنت كلمتان متصلتان وهما آيتان ، وذلك في قوله : (حم نسي) على قول الكوفيين لا غير . وقد تكون الكلمة في غير هذا الآية التامة ، والكلام القائم بنفسه ، وإن كان أكثر أو أقل ، قال الله عز وجل (وَنَعَّمْنَا عَلَىٰ عَبْدِكَ الْمُسْتَقِيمِ إِذْ قَالَ لِنَاثِيلَ يَا صَبْرًا) قيل إنما ينى بالكلمة هاهنا ، قوله تبارك وتعالى : (وَزَيْدٌ أَنْ تَمَنَّ عَلَى الْيَتِيمِ اسْتَضْفِعُوا فِي الْأَرْضِ) إلى آخر الآيتين ، وقال عز وجل : (وَالْأَرْهَامُ)

(١) لم أره المصنف في المؤلف وحيداً ، في صفحة ١٢ ظاهراً قط .

(٢) كأنه اضربها . المصنف كلمة أخرى في الرسم فقط .

كَلِمَةُ التَّقْوَى) : قال مجاهد : لا إله إلا الله . وقال النبي صلى الله عليه وسلم : "كَلِمَتَانِ خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ ثَقِيلَتَانِ فِي الْمِيزَانِ حَيِّتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ، سُبْحَانَ اللَّهِ الْعَظِيمِ" وقد تسمى العرب القصيدة بأسرها ، والقصة كلها ، كلمة فيقولون : قال قُصٌّ في كَلِمَةٍ كذا ، أى في خطبته ، وقال زهير في كَلِمَةٍ كذا ، أى في قصيدته ، وقال فلان في كَلِمَةٍ يعنى في رسالته ، فتسمى جملة الكلام كلمة إذ كانت الكلمة منها ، على عادتهم في تسميتهم الشيء باسم ما هو منه وما قاربه وجاوره ، وكان بسبب منه ، مجازا وإتساعا .

وأما الحرف فهو الشبهة القائمة وخلعها من الكلمة وقد يسمى الحرف كلمة والكلمة حرفا على ما بيناه من الاتساع والمجاز — قال أبو عمرو الداني : فإن قيل فكيف يسمى ما جاء من حروف الهجاء في الفوائج على حرف واحد نحو . (ص) و (ق) و (ن) حرفا أو كلمة ؟ قلت : كلمة لاحرفا ، وذلك من جهة أن الحرف لا يسكت عليه ، ولا يتفرد وحده في الصورة ، ولا ينفصل عما يختلط به ، وهذه الحروف مسكوت عليها منفردة منفصلة كأفراد الكلم وانفصالها ، فذلك سميت كلمات لا حروفا . قال أبو عمرو : وقد يكون الحرف في غير هذا ، المنهَب والوجه ، قال الله عز وجل : (وَمِنَ النَّاسِ مَن يَسُبُّ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ) أى على وجه ومذهب ، ومن ذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم : «اتزل القرآن على سبعة أحرف» أى سبعة أوجه من اللغات وافقه أهل .

باب هل ورد في القرآن كلمات خارجة عن لغات العرب أو لا

لا خلاف بين الأئمة أنه ليس في القرآن كلام مركب على أساليب غير العرب ، وأن فيه أسماء أعلاما لكن لسانه غير لسان العرب : كاسرائيل وجبريل وعمران ونوح ولوط ؛ واختلقوا هل وقع فيه ألفاظ غير أعلام مفردة من غير كلام العرب ، فذهب القاضي أبو بكر بن الطيب والطبري وغيرهما إلى أن ذلك لا يوجد فيه ، وأن القرآن عربي صريح ، وما وجد فيه من الألفاظ التي تنسب إلى سائر اللغات إنما اتفق فيها أن تواردت اللغات عليها فتكلمت بها العرب والفرس والحشة وغيرهم ، وذهب بعضهم إلى وجودها فيه ، وأن تلك الألفاظ لقلتها لا تخرج القرآن عن كونه عربيا مينا ، ولا رسول الله عن كونه متكلمًا بلسان قومه ، فالمشكاة : الكوة ، ونشأ : قام من الليل ، ومنه (إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ) و(فُؤَيْكُمْ كَفَلَيْنِ) أى ضعفين . و(فَرَّتْ مِنْ قَسْوَةٍ) أى الأسد ، كله بلسان الحشة . والنساق :

البارد المتين بلسان الترك . والتسطاس : الميزان بلغة الروم . والسجيل : الحجارة والطين بلسان
الفرس . والطور : الجبل . واليم : البحر بالسريانية . والتور : وجه الأرض بالعجمية .

قال ابن عطية حقيقة العبارة عن هذه الألفاظ أنها في الأصل أعجمية لكن استعملتها العرب
وعربت بها فهي عربية بهذا الوجه ، وقد كان للعرب العاربة التي نزل القرآن بلسانها بعض مخالطة لسان
الألسنة بتجارات ، وبرحلي قريش ، وكسفر مسافر بن أبي عمرو إلى الشام ، وكسفر عمر بن الخطاب ،
وكسفر عمرو بن العاصي ، وعمارة بن الوليد إلى أرض الحبشة ، وكسفر الأعشى إلى الحيرة ، وصحبته
لنصارها مع كونه حجة في اللغة ، فقلقت العرب بهذا كله ألفاظا أعجمية غيرت بعضها بالنقص من
حروفها ، وجرت إلى تخفيف ثقل المعجمة واستعملتها في أشعارها ومحاواراتها ، حتى جرت مجرى
العربي الصحيح ، ووقع بها اليان ، وعلى هذا الحد نزل بها القرآن ، فان جهلها عربي ما فكجهله
الصريح بما في لغة غيره ، كما لم يعرف ابن عباس معنى فاطم إلى غير ذلك .

قال ابن عطية : وما ذهب إليه الطبري رحمه الله من أن اللتين اتفقتا في لفظة لفظة فذلك
بعيد بل أحدهما أصل والأخرى فرع ، لا إذا ندفع أيضا جواز الاتفاق قليلا شاذًا ، قال غيره :
ولأولئك أمم . وقوله : هي أصل في كلام غيرهم دخيلة في كلامهم ، ليس بأولى من العكس ، فان
العرب لا يخلو أن تكون تخاطبت بها أولا ، فان كان الأول فهي من كلامهم إذ لا معنى للفتهم
وكلامهم إلا ما كان كذلك عندهم ولا يبعد أن يكون غيرهم قد واقفهم على بعض كلماتهم ، وقد قال
فلك الامام الكبير أبو عبيدة .

قلت قيل : ليست هذه الكلمات على أوزان كلام العرب فلا تكون منه ، قلنا : ومن سلم
لكم انكم حصرتم أوزانهم حتى تخرجوا هذه منها ، فقد بحث القاضي عن أصول أوزان كلام العرب
وردت هذه الأسماء اليها على الطريقة النحوية ، وأما إن لم تكن العرب تخاطبت بها ولا عرفتها استعمال
أن يتخاطبهم الله بما لا يعرفون وحيث لا يكون القرآن عربيا مينا ، ولا يكون الرسول مخاطبا
لقومه بلسانهم والله أعلم .

(١) هي ابن عم أبي إسحاق بن حبيب بن أمية فاه مسافر بن أبي عمرو (ذو كان) بن أمية ..

باب ذكر نكت في إعجاز القرآن وشرائط المعجزة وحقيقتها

المعجزة واحدة معجزات الأنبياء الدالة على صدقهم صلوات الله عليهم، وسُميت معجزة لأن البشر معجزون عن الإتيان بمثلا، وشرائطها خمسة، فإن اختل منها شرط لا تكون معجزة .

فالشرط الأول من شروطها أن تكون مما لا يقدر عليها إلا الله سبحانه، وإنما وجب حصول هذا الشرط للمعجزة لأنه لو أتى آت في زمان يصح فيه بحج الرسل وإدعى الرسالة وجعل معجزته أن يتحرك ويسكن ويقوم ويقعد لم يكن هذا الذي ادعاه معجزة له، ولا دالا على صدقه لقدرة الخلق على مثله، وإنما يجب أن تكون المعجزات كغلق البحر، وانشقاق القمر، وما شاكلها مما لا يقدر عليه البشر .

والشرط الثاني هو أن تخرق العادة، وإنما وجب اشتراط ذلك لأنه لو قال المدعى للرسالة : آتني بحج الليل بعد النهار وطلوع الشمس من مشرقها لم يكن فيها ادعاه معجزة، لأن هذه الأعمال وإن كان لا يقدر عليها إلا الله، فلم تخلف من أجله، وقد كانت قبل دعواه على ما هي عليه في حين دعواه، ودعواه في دلالتها على نبوته كدعوى غيره، فيأبى أنه لا وجه له يدل على صدقه، والذي يستشهد به الرسول عليه السلام له وجه يدل على صدقه، وذلك أن يقول الباطل على صدق أن يخرق الله تعالى العادة من أجل دعواى عليه الرسالة، فيقلب هذه المصائب، ويشق الخجر ويخرج من وسطه ناقة، أو ينبع الماء من بين أصابعه كما ينبع من العين، أو ما سوى ذلك من الآيات الخارقة للعاديات، التي ينفرد بها جبار الأرض والسموات، فتقوم له هذه العلامات مقام قول الرب سبحانه، لو أسمعنا كلامه العزيز، وقال : صدق، أنا بشتة، ومثال هذه المسألة وقع لرسوله المثل الأعلى، ما لو كانت جماعة بمحضرة ملك من ملوك الأرض، وقال أحد رجاله وهو يجرى ومسمع منه والملك يسمعه : الملك يأمركم أيها الجماعة بكنا وكذا، ودليل ذلك أن الملك يصتفي بفعل من أماله، وهو أن يخرج خاتمه من يده فاصدا بذلك تصديقي، فإذا سمع الملك كلامه لم يدعواه فيهم، ثم عمل ما استشهد به على صدقه، قام ذلك مقام قوله لو قال، صدق فيما ادعاه على، فكذلك إذا عمل الله عملا لا يقدر عليه إلا هو، وخرق به العادة على يدى الرسول، قام ذلك الفعل مقام كلامه تعالى لو أسمعناه، وقال : صدق عبيدى في دعوى الرسالة، وأنا أرسلتكم فاسمعوا له وأطيعوا .

والشرط الثالث هو أن يستشهد بها مدعى الرسالة على الله عز وجل، فيقول : آتني أن يقلب الله سبحانه هذا الماء زيتا أو يحرك الأرض عند قولي لما تزلزل، فإذا فعل الله سبحانه ذلك حصل المتحدى به .

الشرط الرابع هو أن يقع على وفق دعوى المتحدى بها المستشهد بكونها معجزة له، وإنما وجب اشتراط هذا الشرط لأنه لو قال المدعى للرسالة : آية نبوتى ودليل حجتى أن تنطق يدي أو هذه الدابة فتعلقت يده أو الدابة، بأن قالت : كذب وليس هو نبى، فإن هذا الكلام الذى خلقه الله تعالى دال على كذب ذلك المدعى للرسالة، لأن ما فعله الله لم يقع على وفق دعواه، وكذلك ما يروى أن مسيما الكتاب لعنه الله قفل فى بئر ليكثر ماؤها فتأرت البئر ونهب ما كان فيها من الماء، فافعل الله سبحانه من هذا، كان من الآيات المكذبة لمن ظهرت على يديه، لأنها وقعت على خلاف ما أرادته المتحدى الكتاب .

والشرط الخامس من شروط المعجزة ألا يأتى أحد بمثل ما أتى به المتحدى على وجه المعارضة، فإن تم الأمر المتحدى به المستشهد به على النبوة على هذا الشرط مع الشروط المتقدمه، فهي معجزة دالة على نبوة من ظهرت على يده، فإن أقام الله تعالى من يمارضه حتى يأتى بمثل ما أتى به ويعمل مثل ما عمل بطل كونه نبيا، ويخرج عن كونه معجزا ولم يدل على صدقه، ولهذا قال المولى سبحانه : **(فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ)** وقال : **(أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فأتوا بشعرِ سورٍ مثلهِ مُفْتَرِيَاتٍ)** كأنه يقول : إن ادعيت أن هذا القرآن من نظم محمد صلى الله عليه وسلم وعمله فاعملوا عشر سور من جلس نظمه، فإذا عجزتكم بأسركم عن ذلك فاعلموا أنه ليس من نظمه ولا من عمله .

لا يقال : إن المعجزات الباقية بالشروط الخمسة لا تظهر إلا على أيدي الصادقين، وهذا المسيح المبعث فى روم عن نبيكم صلى الله عليه وسلم يظهر على يديه من الآيات العظام، والأموال الجسام، ما هو معروف مشهور، فاقول : ذلك يدعى الرسالة، وهذا يدعى الرواية وبينهما من الفرقان، ما بين البصراء والعميان، وقد قام الدليل العقلى على أن بعض الخلق إلى بعض غير متمتعة ولا مستحيلة، فلم يبعد أن يحق الله تعالى الأدلة على صدق مخلوق أتى عنه بالشرع والملة .

ودلت الأدلة العقلية أيضا على أن المسيح الدجال فيه التصوير والتغير من حال إلى حال ، وثبت أن هذه الصفات لا تليق إلا بالمحذات ، تعالى رب البريات عن أن يشبه شيئا أو يشبهه شيء ، ليس كمثل شيء وهو السمع البصير .

فصل — إذا ثبت هذا قاطم أن المعجزات على ضربين : الأول ما اشتهر قله واهترض عصره بموت النبي صلى الله عليه وسلم ؛ والثاني ما توارت الأخبار بصحته وحصوله ، واستفاضت بثبوته وجوده ، ووقع لسامعها العلم بذلك ضرورة ؛ ومن شرطه أن يكون الناقلون له خلقا كثيرا ورجما خفيا ، وأن يكونوا عاينين بما قالوه علما ضروريا ، وأن يستوى في النقل أولم واتجرم ووسطهم في كثرة العدد ، حتى يستحيل عليهم التواطؤ على الكذب ؛ وهذه صفة نقل القرآن ، ونقل وجود النبي عليه الصلاة والسلام ، لأن الأمة رضى الله عنها لم تزل تنقل القرآن خلقا عن سلف والسلف عن سلفه إلى أن يتصل ذلك بالنبي عليه السلام المعلوم وجوده بالضرورة ، وصدقه بالأدلة المعجزات ، والرسول أخذه عن جبريل عليه السلام عن ربه جل وعز ، فنقل القرآن في الأصل رسولان معصومان من الزيادة والنقصان ، ونقله اليها بعلم أهل التواتر الذين لا يجوز عليهم الكذب فيما ينقلونه ويسمعونه ، لكثرة العدد ، ولذلك وقع لنا العلم الضروري بصدقهم فيما قالوه من وجود محمد صلى الله عليه وسلم ومن ظهور القرآن على يديه وتحديه به ، ونظير ذلك من علم الدنيا علم الإنسان بما نقل اليه من وجود البلدان : كالبصرة والشام والعراق وخراسان والمدينة ومكة ، واشباه ذلك من الأخبار الكثيرة الظاهرة المتواترة ، فالقرآن معجزة نينا صلى الله عليه وسلم الباقية بعده الى يوم القيامة ، ومعجزة كل نبي اقترضت باقراضه ، أو دخلها التبديل والتغير ، كالتوراة والانجيل .

وجوه اعجاز القرآن الكريم عشرة .

منها : النظم البديع المخالف لكل نظم معهود في لسان العرب وفي غيرها ، لأن نظمه ليس من نظم الشعر في شيء ، وكذلك قال رب العزة الذى تولى نظمه : (وَمَا عَلَّمَهُا الشَّعْرَ وَمَا يَنْتَبِيْهُ) وفي صحيح مسلم أن أنيسا أخا أبي ذر ، قال لأبي ذر : لقيت رجلا بمكة على دينك يزعم أن الله أرسله ؛ قلت : فما يقول الناس ؛ قال يقولون : شاعر ، كاهن ، ساحر ، وكان أنيس أحد الشعراء ، قال أنيس : لقد سمعت قول الكهنة ، فما هو بقولهم ، ولقد وضعت قوله على أقرأء الشعر فلم يلتئم على لسان أحد بعدى أنه شعر ، والله إنه لصادق وانهم لكاذبون ؛ وكذلك أقر عتبة بن ربيعة أنه ليس بسحر

ولا شعرنا قرأ عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم : «حم» فصلت ، على ما يأتي بيانه هناك ،
فاذا اعترف غيبة على موضعه من اللسان وموضعه من الفصاحة والبلاغة ، بأنه ما سمع مثل القرآن قط
كان في هذا القول مقرا بإعجاز القرآن له ولضرباته من المتحققين بالفصاحة والقدرة على التكلم بجميع
أجناس القول وأنواعه .

ومنها : الأسلوب المخالف لجميع أساليب العرب .

ومنها : الجزالة التي لا تصح من مخلوق بحال ، وتأمل ذلك في سورة (ق وَالْقُرْآنَ الْجِيدَ) إلى
آخرها ، وقوله سبحانه : (وَالْأَرْضُ يَحِيَا قَبَضَتْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ) إلى آخر السورة ، وكذلك قوله سبحانه :
(وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ فَاقِلًا عَمَّا يَتَمَلَّكُ الظَّالِمُونَ) إلى آخر السورة . قال ابن الحصار : فمن علم أن الله
سبحانه وتعالى هو الحق ، علم أن مثل هذه الجزالة لا تصح في خطاب غيره ، ولا يصح من أعظم
ملوك الدنيا أن يقول : «لَيْنَ الْمَلِكِ الْيَوْمَ» ، ولا أن يقول : «وَيُرْسِلُ الصَّوَاقِقُ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ» .

قال ابن الحصار : وهذه الثلاثة من النظم ، والأسلوب ، والجزالة ، لازمة كل سورة ، بل هي
لازمة كل آية ، ويجموع هذه الثلاثة بتميز مسموع كل آية وكل سورة عن سائر كلام البشر ، وبها
وقع التحذير والتعجب ، ومع هذا فكل سورة تتفرد بهذه الثلاثة ، من غير أن ينضاف إليها أمر آخر من
الوجوه العشرة ، فهذه سورة «الكوثر» ثلاث آيات قصار ، وهي أقصر سورة في القرآن ، وقد تضمنت
الإخبار عن مقيمين ، أحدهما : الإخبار عن الكوثر وعظمه وصعته وكثرة أوائيه ، وذلك يدل على
أن المصلقين به أكثر من اتباع سائر الرسل ، والثاني : الإخبار عن الوليد بن المغيرة ، وقد كان عند
تزلزل الآية ذما مال وولد ، على ما تقتضيه قوله الحق : (قَدَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا . وَجَعَلْتُ لَدُنِّي
مَلَا مَحْدُودًا . وَرَبِّينَ شُهُودًا وَمَهْنَتٌ لَّهُ تَمْجِيدًا) ثم أهلك الله سبحانه ، ماله وولده ، واقطع نسله .

ومنها : التصرف في لسان العرب على وجه لا يستقل به عربي ، حتى يقع منهم الاتفاق من
جميعهم على أصابته في وضع كل كلمة وحرف موضعه .

ومنها : الإخبار عن الأمور التي تهتمت في أول الدنيا إلى وقت نزوله من آية ما كان يتلوم
قوله من كلامه ولا يخطئه بحجة ، فأخبر بما كان من قصص الأنبياء مع أممها ، والقرون الخالية في دهرها ،

وذكر ماسأله أهل الكتاب عنه، وتحتوه به، من قصة أهل الكهف، وشأن موسى والخضر عليهما السلام، وحال ذي القرنين، بغاصم - وهو اى من أمة أمية، ليس لها بذلك علم - بما عرفوا من الكتب السالفة صحته، فتحققوا صدقه .

قال القاضي ابن الطيب : - ونحن نعلم ضرورة - أن هذا مما لا ميل اليه إلا عن تعلم؛ وإذا كان معروفا أنه لم يكن ملايسا لأهل الآثار، وحلة الأخبار، ولا متزدا إلى المتعلم منهم، ولا كان ممن يقرأ فيجوز أن يقع اليه كتاب يأخذ منه، ولم أنه لا يصل إلى علم ذلك الابتائيد من جهة الوحى .

ومنها : الوفاء بالوعد، المدرك بالحس في البيان، في كل ما وعد الله سبحانه؛ وينقسم : إلى أخباره المطلقة، كوعده بنصر رسوله عليه السلام، وإخراج الذين أخرجوه من وطنه . وإلى وعد مقيّد بشرط، كقوله : ((وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ)) ((وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَدِّ قَلْبِهِ)) ((وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا)) و ((إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ صَافِرُونَ لْيَأْتِيُوا بِثَبَاتَيْنِ))، وشبه ذلك .

ومنها : الإخبار عن المغيّبات في المستقبل التي لا يُطالع عليها إلا بالوحى؛ فمن ذلك : ما وعد الله نبيه عليه السلام أنه سيظهر دينه على الأديان بقوله تعالى : ((هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ)) الآية . ففعل ذلك ؛ وكان أبو بكر رضى الله عنه إذا أغترى جيوشه عرفهم ما وعدهم الله في إظهار دينه، ليتقوا بالنصر، وليستيقنوا بالنجاح، وكان عمر رضي الله عنه فعل ذلك ؛ فلم يزل الفتوح يتوالى شرقا وغربا، برا وبحرا، قال الله تعالى : ((وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ)) وَقَالَ : ((لَقَدْ صَدَّقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الْرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِينَ)) . وقال : ((وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ)) . وقال : ((أَلَمْ تَكُنْ فِي الْأَرْضِ مِمَّنْ يَقُولُ إِذْ أَخْبَارَ الْغُيُوثُ أَنَّ الْفُلْكَانَ لَمَّا أَتَوْا الْبُسْطَاءَ فَتَنُوكَهُمْ فَاسْتَأْذَنُوا بِهِمْ لِغُلَامَيْنِ مِنْهُمْ أَنْ يَخُودَا بِهِمَا)) . فهذه كلها أخبار عن النبوة التي لا يقف عليها إلا رب العالمين، أو من أوقفه عليها رب العالمين؛ فدل على أن الله تعالى قد أوقف عليها رسوله لتكون دلالة على صدقه .

ومنها : ما تضمنته القرآن من العلم الذي هو قوام جميع الأنام، في الحلال والحرام، وفي سائر الأحكام .

ومنها : الحكم البالغة التي لم تبحر المادة بأن تصدر في كثرتها وشرفها من آدمي .

ومنها : التناسب في جميع ما تضمنته ظاهرا وباطنا من غير اختلاف ، قال الله تعالى : ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ۝ ﴾ .

قلت : فهذه عشرة أوجه ذكرها علماءنا رحمة الله عليهم ، ووجه حادى عشر قاله النظام وبعض القدرية : أن وجه الإعجاز هو المنع من معارضته ، والصرفة عند التحدى بمثله ؛ وأن المنع والصرفة هو المعجزة ، دون ذات القرآن ، وذلك أن الله تعالى صرف همهم عن معارضته مع تحجيمه بأن يأتي بسورة من مثله ، وهذا فاضد ، لأن إجماع الأمة قبل حدوث المخالف أن القرآن هو المعجز ؛ فلو قلنا : إن المنع والصرفة هو المعجز نخرج القرآن عن أن يكون معجزا ، وذلك خلاف الإجماع ، وإذا كان كذلك ، علم أن نفس القرآن هو المعجز ، لأن فصاحته وبلاغته أمر خارق للمادة ، إذ لم يوجد قط كلام على هذا الوجه ، فلما لم يكن ذلك الكلام مألوا معتادا منهم ، دل على أن المنع والصرفة لم يكن معجزا ، واختلف من قال بهذه الصرفة على قولين :

أحدهما : أنهم صبروا عن القدرة عليه ؛ ولو تعرضوا له لعجزوا عنه .

الثانى : أنهم صبروا عن التعرض له مع كونه في مقدورهم ؛ ولو تعرضوا له لحازوا عليه .

قال ابن عطية : وجه التحدى في القرآن إنما هو بنظمه ، وحمية معانيه ، وتوالى فصاحته ألقاؤه ؛ ووجه إعجازه : أن الله تعالى قد أحاط بكل شيء علما ، وأحاط بالكلام كله علما ، فعلم بإحاطته أى لفظة تصلح أن على الأولى ، وتبين المعنى بعد المعنى ، ثم كذلك ، من أول القرآن إلى آخره ، والبشر معهم الجاهل والسيان والعمول ، ومعلوم ضرورة أن بشرا لم يكن محيطا قط ، فهذا جاء نظم القرآن في الغاية القصوى من الفصاحة . وبهذا النظر يطل قول من قال : إن العرب كان في قدرتها أن تأتي بمثل القرآن في الغاية القصوى من الفصاحة ، فلما جاء محمد صلى الله عليه وسلم صبروا عن ذلك ، وعجزوا عنه . والصحيح أن الإتيان بمثل القرآن لم يكن قط في قدرة أحد من المخلوقين ، ويظهر لك قصور البشر في أن التصحيح منهم ، يضع خطبة أو قصيدة يستخرج فيها جهده ، ثم لا يزال يتفحصها حولا كاملا ، ثم تعلى لآخر بعده فأخذها بقرينة جامدة فيدل فيها ويتقح ، ثم لا تزال بعد ذلك فيها مواضع للنظر والبذل ، وكاتب الله تعالى . لو زعمت منه لفظة ، ثم أدير لسان العرب أن يوجد أحسن منها لم يوجد .

ومن فصاحة القرآن أن الله تعالى جل ذكره، ذكر في آية واحدة أمرين، ونهيين، وبشارتين وهو قوله تعالى : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ وَكَذَلِكَ فَانصتْ سَوْرَةَ الْمَائِدَةِ : أمر بالوفاء ونهى عن النكث، وحلل تحليلاً عاتياً ثم أستثنى استثناءً بعد استثناء، ثم أخبر عن حكمه وقدرته، وذلك بما لا يقدر عليه إلا الله سبحانه، وأنبأ سبحانه من الموت : وحسرة الموت، والدار الآخرة ونواهبها وعقابها، وفوز الفائزين، وتردى المجرمين، والتحذير من الاقترار بالدنيا، ووصفها بالفسلة بالإضافة إلى دلة البقاء بقوله تعالى : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَأَنصَبْ نُفُوسَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۖ ﴾ الآية؛ وأنبأ أيضاً عن قصص الأولين والآخرين، ومآل المترفين، وعواقب المهلكين، في شطر آية، وذلك في قوله تعالى : ﴿ فَبَيْنَهُمْ مِّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّبَاحَةُ وَمِنْهُمْ مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَّنْ أَغْرَقْنَا ۖ ﴾ وأنبأ جل وعز عن أمر السفينة وإحراقها وإهلاك الكفرة، واستقرار السفينة واستوائها، وتوجيه أوامر التسخير إلى الأرض والسماء بقوله عز وجل : ﴿ وَقَالَ أَرَبِئُوا إِنِّي بِسْمِ اللَّهِ جَرِيئًا وَمُرْسَاتًا ۖ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴾ إلى غير ذلك .

فلما عجزت قريش عن الإيمان بمثله، وقالت : إن النبي صلى الله عليه وسلم يقول، أنزل الله تعالى : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ قَوْلَهُ بَلْ لَا يَمِينُونَ . فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ ۖ ﴾ . ثم أنزل سبحانه أبلغ من ذلك فقال : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ أَفَنَارُهُمْ فُلٌ فَلْيَأْتُوا بِشِيرِ سُوْرٍ مِّثْلِهِ مَعْقَدَاتٍ ۖ ﴾ . فلما عجزوا حطموه عن هذا المقدار، إلى مثل سورة من السور القصصار؛ فقال جل ذكره : ﴿ وَإِنْ كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ ۖ ﴾ . فالحجوا عن الجواب، وهطعت بهم الأسباب، وعدلوا إلى الحروب والبناد، وآثروا سبي الحريم والأولاد؛ ولو قدروا على المعارضة لكان أهون كثيراً، وأبلغ في الهجة وأشد تأثيراً . هذا مع كونهم أرباب البلاغة والهن، وعندهم تؤخذ الفصاحة واللمن .

فبلاغة القرآن في أعل طبقات الإحسان، وأرفع درجات الإيجاز والبيان؛ بل تجاوزت حد الإحسان والإجادة، إلى حيز الإرباب والزيادة . هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم مع ما أوتي من جوامع الكلم، وأخص به من غرائب الحكم؛ إذا تأملت قوله صلى الله عليه وسلم في صفة الحنان، وإن كان في نهاية الإحسان، وبهذه متحطاً عن رتبة القرآن؛ وذلك في قوله عليه السلام : " فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر " فإين ذلك من قوله عز وجل :

(وَيَقِيَا مَا تَشْتَبِيهِ الْأَنْفُسُ وَقَدْ جَاءَهُنَّ) . وقوله : (فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مِمَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ) .
 هذا أصل وزنا ، وأحسن تركيا ، وأعذب لفظا ، وأقل حروفا ، على أنه لا يستبد إلا في مقدار سورة
 أو أطول آية ، لأن الكلام كلما طال اتسع فيه مجال للتصرف ، وضاق المجال على القاصر المتكفف ؛
 وبهذا قامت الحجة على العرب ، إذ كانوا أبواب الفصاحة ، ومظنة المعارضة ؛ كما قامت الحجة في معجزة
 عيسى عليه السلام على الأعداء ، ومعجزة موسى عليه السلام على السحرة ، فإن الله سبحانه إنما جعل
 معجزات الأنبياء عليهم السلام بالوجه الشهير أربع ما يكون في زمان النبي الذي أراد إظهاره ؛ فكان
 السحر في زمان موسى عليه السلام قد انتهى إلى غايته ؛ وكذلك الطب في زمن عيسى عليه السلام ،
 والفصاحة في زمن محمد صلى الله عليه وسلم .

باب التنبية على أحاديث وضعت في فضل سور القرآن وغيره

لا أكتات لما وضعه الواضعون ، وأخلفه المختلفون ، من الأحاديث الكاذبة ، والأخبار الباطلة ؛
 في فضل سور القرآن ، وغير ذلك من فضائل الأعمال ؛ قد أرتكبا جماعة كثيرة ، اختلفت أغراضهم
 ومقاصدهم في أرتكابها ؛ فمن قوم من الزندقة ؛ مثل : المغيرة بن سعيد الكوفي ، ومحمد بن سعيد
 الثامى ، المصلوب في الزندقة ، وغيرهما ؛ وضعوا أحاديث وحدثوا بها ليوقنوا بذلك الشك في قلوب
 الناس ؛ لما رواه محمد بن سعيد عن أنس بن مالك في قوله صلى الله عليه وسلم : " أنا خاتم الأنبياء
 لا نبي بعدي إلا ما شاء الله " ، فزاد هذا الاستثناء لما كان يدعو إليه من الإلحاد والزندقة . قلت :
 وقد ذكره ابن عبد البر في كتاب (التمهيد) ولم يتكلم عليه ؛ بل تأول الاستثناء على الرؤيا ؛ فالله أعلم .
 ومنهم قوم وضعوا الحديث لموى يدعون الناس إليه ؛ قال شيخ من شيوخ الخوارج بعد أن تاب :
 إن هذه الأحاديث دين ، فانظروا بمن تأخذون دينكم ، فإذا كانا هويتا أحرا صيرناه حديثا .

ومنهم جماعة وضعوا الحديث حجة كما زعموا ؛ يدعون الناس إلى فضائل الأعمال ، كما روى
 عن أبي عصمة فوح بن أبي حرم المروزي ، ومحمد بن عكاشة اليرباني ، وأحمد بن عبد الله
 الطبري ، وغيرهم . قيل لأبي عصمة : من أين لك عن عكرمة عن ابن عباس في فضل سور القرآن
 سورة سورة ؟ قال : رأيت الناس قد أهرضوا عن القرآن واشتغلوا بفقهاء أبي حنيفة ، ومغازي محمد

ابن إسحاق؛ فوضعت هذا الحديث حسبة . قال أبو عمرو عثمان بن الصلاح في كتاب (علوم الحديث) له : وهكذا الحديث الطويل الذي يروى عن أبي بن كعب ، عن النبي صلى الله عليه وسلم في فضل القرآن سورة سورة؛ وقد بحث باحث عن مخرجه حتى انتهى إلى من اعترف بأنه وجعاه وضعوه ، وإن أثر الوضع عليه لين . وقد أخطأ الواحد من المفسر ومن ذكره من المفسرين في إيداعه تفاسيرهم . ومنهم قوم من السؤال والمكبرين يقفون في الأسواق والمساجد ، فيضعون على رسول الله صلى الله عليه وسلم أحاديث بأسانيد صحاح قد حفظوها ، فيذكرون الموضوعات بتلك الأسانيد ؛ قال جعفر ابن محمد الطيالسي : صلى أحمد بن حنبل ، ويحيى بن معين ، في مسجد الرصافة ، فقام بين أيديهما قاص فقال : حدثنا أحمد بن حنبل ويحيى بن معين قالوا أنبأنا عبد الرزاق قال أنبأنا معمر عن قتادة عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من قال لا إله إلا الله يخاف من كل كلفة منها طائر متفاره من ذهب وريشه مرجان؛ وأخذ في قصة نحو من عشرين ووقف؛ فجعل أحمد ينظر إلى يحيى ويحيى ينظر إلى أحمد؛ فقال : أنت حدثته بهذا فقال : والله ما سمعت به إلا هذه الساعة ؛ قال : فسكتا جميعا حتى فرغ من قصصه ، فقال له يحيى : من حدثك بهذا الحديث؟ فقال : أحمد بن حنبل ويحيى بن معين؛ فقال أنا ابن معين ، وهذا أحمد بن حنبل ، ما سمعنا بهذا قط في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإن كان ولا بد من الكذب فعل شيئا ؛ فقال له : أنت يحيى بن معين؟ قال : نعم ، قال : لم أزل أسمع أن يحيى بن معين أحمق ، وما علمته إلا هذه الساعة ؛ فقال له يحيى : وكيف علمت أني أحمق؟ قال : كأنه ليس في الدنيا يحيى بن معين وأحمد بن حنبل فبركأ ، كتبت عن سبعة عشر أحمد بن حنبل خير هذا ؛ قال : فوضع أحمد كفه على وجهه وقال : دمه يقوم ؛ فقام كالمتنزهين بهما ؛ فهولاء الطوائف كذبة على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومن يجرى مجراهم . يذكر : أن الرشيد كان يعجبه الحمام واللوز به ؛ فأهدى إليه حمام وعنده أبو البختري القاضي ، فقال : روى أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : "لا سبق إلا في خف أو حائر أو جناح" فزاد ، "أو جناح" ، وهي اللفة وضعها للرشيد ، فأعطاه جائزة سنية ؛ فلما خرج قال الرشيد : والله لقد علمت أنه كذاب ، وأمر بالحمام أن يذبح ؛ فقيل له : وما ذنب الحمام؟ قال : من أجله كذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛

قوله العلماء حديثه ، لذلك ؛ وقوله من موضوعاته ، فلا يكتب العلماء حديثه بحال .

قلت : فلو اقتصر الناس على ما ثبت في الصحاح والمسانيد وغيرهما من المصنفات التي تداولها العلماء، ورواها الأئمة الفقهاء، لكان لهم في ذلك غنية، وتخرجوا عن تجذيره صلى الله عليه وسلم حيث قال : « اتقوا الحديث على^(١) إلا ما علمتم من كذب على متعمدا فليتبوا مقعده من النار » - الحديث - ، فتخوفه صلى الله عليه وسلم أمته بالنار على الكذب، دليل على أنه كان يعلم أنه سيكذب عليه . فحذار مما وضعه أعداء الدين، وزنادقة المساميين، في باب الترغيب والترهيب وغير ذلك، وأعظمهم ضررا أقوام من المنسوين إلى الزهد، وضعوا الحديث حسبة فيما زعموا، فيقبل الناس موضوعاتهم، حسنة منهم بهم، وركبوا اليهم، فضلوا وأضلوا .

باب ما جاء من الحجة في الرد على من طعن في القرآن

وخالف مصحف عثمان بالزيادة والتقصان

لا خلاف بين الأمة، ولا بين الأئمة، أهل السنة، أن القرآن اسم لكلام الله تعالى الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم معجزة له، على ما تقدم، وأنه محفوظ في الصدور، مقرره بالأئمة، مكتوب في المصاحف، معلومة على الاضطراب سورة وآياته، مبرأة من الزيادة والتقصان حروفه وكتابه، فلا يحتاج إلى ترفعه بحجة، ولا في حصره بحد، فمن ادعى زيادة عليه، أو نقصا منه، فقد أبطل الإجماع، وهبت الناس، ورد ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم من القرآن للقتل عليه، ورد قوله تعالى : ﴿ قُلْ لَّيْنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْإِنْسُ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ . وأبطل آية رسوله عليه السلام، لأنه إذ ذاك بصير القرآن مقدورا عليه، حين شيب بالباطل، ولما قدر عليه لم يكن حجة ولا آية، ونرج عن أن يكون معجزا .

فانقائل بأن القرآن فيه زيادة وتقصان راد لكاتب الله ولما جاء به الرسول، وكان كمن قال : الصلوات المفروضة خمسون صلاة، وتزوج تسع من النساء حلال، وفرض الله أياما مع شهر رمضان، إلى غير ذلك مما لم يثبت في الدين، فلذا رد هذا بالإجماع، كان الإجماع على القرآن أثبت وأكده وألزم وأوجب .

قال الإمام أبو بكر محمد بن القاسم بن بشار بن محمد الأنباري: ولم يزل أهل الفضل والعقل يعرفون من شرف القرآن، وعلو منزلته، ما يوجب الحق والانصاف والديانة، ويتقنون عنه قول المبطلين، وتعويه للملحدين وتحريف الزائنين، حتى نبع في زماننا هذا زائع زاع عن الله، وهجم على الأمة بما يحاول به إبطال الشريعة التي لا يزال الله يؤيدها، ويثبت أسسها، ويخفي فرعها، ويحرسها من معاييب أولى الحيف والجور، ومكابد أهل العداوة والكفر.

فزعم أن المصحف الذي جمعه عثمان رضي الله عنه - باخلاق أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم على تصويبه فيما فعل - لا يشتمل على جميع القرآن، إذ كان قد سقط منه خمسمائة حرف، قد قرأت بعضها وسأقرا بقيتها، فيها: «والعصر ونواب الدهر» قد سقط من القرآن على جماعة المسلمين « ونواب الدهر » ومنها: « حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلا أو نارا فجعلناها خضبًا كأن لم تنن بالأسس وما كان الله ليهلكها إلا بذنوب أهلها » ، فادعى هذا الإنسان أنه سقط على أهل الإسلام من القرآن: « وما كان الله ليهلكها إلا بذنوب أهلها » ، وذكر مما يدعى حروفا كثيرة .

وادعى أن عثمان والصحابة رضي الله عنهم زادوا في القرآن ما ليس فيه، فقرأ في صلاة القرض والناس يسمعون: « الله الواحد الصمد » فأسقط من القرآن « قل هو » وغير لفظ « أحد » وادعى أن هذا هو الصواب والذي عليه الناس هو الباطل والمحال، وقرأ في صلاة القرض: « قل للذين كفروا لا أبعد ما تميدون » وطمع على قراءة المسلمين .

وادعى أن المصحف الذي في أيدينا اشتمل على تصحيف حروف مفسدة مغيرة، منها: « إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ يُجَادِلُكَ وَإِنْ تُنْفِرْهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْغَزِيرُ الْحَكِيمُ » فادعى أن الحكمة والعزة لا يشا كلان المغفرة، وأن الصواب: « وإن تنفر لم فأك أنت النفر الرحيم » . وترأى به التي في هذا وأشكاه حتى ادعى أن المسلمين يصحفون: « وكان عند الله وجيبا » والصواب الذي لم يغير عنده: « وكان عبد الله وجيبا » ، وحتى قرأ في صلاة مقتضة على ما أخبرنا جماعة سمعوه وشهدوه: « لا تحرك به لسانك إن مليا جمعه وقراءته فلنا قرأناه فنتبع قراءته ثم إن علينا نبا به » ، وحكى لنا آخرون عن آخرين أنهم سمعوه يقرأ: « ولقد نصرحك الله بيدرسيف على وأتم أدلة » ، وروى هؤلاء أيضا عنه قال:

« هذا صراط علي مستقيم » ، وأخبرونا أنه أدخل في آية من القرآن ما لا يضاهي فصاحة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا يدخل في لسان قومه الذين قال الله عز وجل فيهم : (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ) فقرأ : « أليس قلت للناس » في موضع : (أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ) وهذا لا يعرف في نحو المعريين ، ولا يحمل على مذاهب النحويين ؛ لأن العرب لم تقل : ليس قلت ، فاما : ليست قلت ، بالهاء فشاذ قبيح خبيث ردي ؛ لأن ليس لا يجحد الفعل الماضي ، ولم يوجد مثل هذا إلا في قولهم : أليس قد خلق الله مثلهم ، وهو لغة شاذة لا يحمل كتاب الله عليها .

وادعى أن عثمان رضي الله عنه لما أسند جمع القرآن إلى زيد بن ثابت لم يصب لأن عبد الله بن مسعود وأبي بن كعب كانا أولى بذلك من زيد لقول النبي صلى الله عليه وسلم : « اقرأ امتي أبي ابن كعب » ولقوله عليه السلام : « من سره أن يقرأ القرآن فضا كما أنزل فليقرأه بقراءة ابن أم عبد » ، وقال هذا القائل : لي أن أخالف مصحف عثمان كما خالفه أبو عمرو بن العلاء ، فقرأ : « إن هذين » ، « فأصديق وأكون » ، « وبشر عبادي الذين » بفتح الياء ، « فإني الله » بفتح الياء ، والذي في المصحف : (إِنَّ هَذَيْنِ) بالهمزة ، (فَأَصَدِّقْ وَأَكُنْ) بغير واو ، (فَتَشْرِعْ عِبَادَ) ، (فَإِنَّا أَنَا اللَّهُ) بغير يامين ، في الموضعين . وكما خالف ابن كثير ونافع وحزرة والكسائي مصحف عثمان فقرأوا : (كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نَحْمِي الْمُؤْمِنِينَ) بإثبات نونين ، بفتح الثانية بعضهم ويسكنها بعضهم ، وفي المصحف نون واحدة ، وكما خالف حمزة المصحف فقرأ : « أتمدوني بمال » بنون واحدة ووقف على الياء ، وفي المصحف نونان ولا ياء بعدهما ؛ وكما خالف حمزة أيضا المصحف فقرأ : « ألا إن نمودا كفروا بربههم » بغير تنوين ، وإثبات الألف يوجب التنوين ؛ وكل هذا الذي شنع به على القراء ما يلزمهم به خلاف للمصحف .

قلت : قد أشرنا إلى العد فيما تقدم مما اختلف فيه المصاحف ، وسيأتي بيان هذه المواضع في مواضعها من هذا الكتاب إن شاء الله تعالى .

قال أبو بكر : وذكر هذا الإنسان أن أبي بن كعب هو الذي قرأ « كأن لم تكن بالأمس وما كان الله ليهلكها إلا بذنوب أهلها » وذلك باطل ؛ لأن عبد الله بن كثير قرأ على مجاهد ، ومجاهد قرأ على ابن عباس ، وابن عباس قرأ القرآن على أبي بن كعب (حصيدا كان لم تكن بالأمس كذلك

مُصَلُّ الْآيَاتِ)، في رواية وقرا أبي القرآن على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهذا الإسناد متصل بالرسول عليه السلام قله أهل العدالة والصيانة، وإذا صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر لم يؤخذ بحديث يخالفه، وقال يحيى بن المبارك الزيدى: قرأت القرآن على أبي عمرو بن العلاء، وقرا أبو عمرو على مجاهد، وقرا مجاهد على ابن عباس، وقرا ابن عباس على أبي بن كعب، وقرا أبي على النبي صلى الله عليه وسلم، وليس فيها «وما كان الله ليهلكها إلا بذنوب أهلها» فمن يجد أن هذه الزيادة أنزلها الله تعالى على نبيه عليه السلام فليس بكافر ولا آثم.

حدثني أبي نباتا نصر بن داود الصائغ نباتا أبو عبيد قال: ما يروى من الحروف التي تختلف المصحف الذي عليه الإجماع من الحروف التي يعرف أسانيدنا الخاصة دون العامة فيما نقلوا فيه عن أبي: «وما كان الله ليهلكها إلا بذنوب أهلها»؛ وعن ابن عباس «ليس عليكم جناح أن تنقروا فضلا من ربكم في مواسم الحج»؛ وبما يحكون عن عمر بن الخطاب أنه قرأ: «غير المفضوب عليهم وغير الضالين» مع نظائر لهذه الحروف كثيرة، لم ينقلها أهل العلم على أن الصلاة بها تمحل، ولا على أنها معارض بها مصحف عثمان، لأنها حروف لو مجدها جاهد أنها من القرآن لم يكن كافرا، والقرآن الذي جمعه عثمان بموافقة الصحابة له لو أنكر بعضه منكرا كان كافرا، حكمه حكم المرتد، يستتاب، وإن تاب وإلا ضربت عنقه. وقال أبو عبيد: لم يزل صليح عثمان رضي الله عنه في جمعه القرآن يستدله بأنه من مناقبه العظام، وقد طعن عليه فيه بعض أهل الزيغ فأنكشف عواره، ووضعت فضائحه، وقال أبو عبيد: وقد حدثت عن يزيد بن زريع عن عمران بن جرير عن أبي جابر قال: طعن قوم على عثمان رحمه الله بمحفظهم جمع القرآن، ثم قرعوا ما نسخ، قال أبو عبيد: يذهب أبو جابر إلى أن عثمان أسقط الذي أسقط بسم كما أثبت الذي أثبت بسم. قال أبو بكر: وفي قوله تعالى: (إِنَّا نَحْنُ زَلَّلْنَا الْكُرْآنَ لَأَنَّاهُ لَحَافِظُونَ) دلالة على كفر هذا الإنسان، لأن الله عز وجل قد حفظ القرآن من التغير والتبديل، والزيادة والنقصان، قلنا قارئ: «ثبت يدي أبي لمب وقد تب ما أغنى عنه ماله وما كسب» يصل ثارا ذات لمب ومزيتة حمالة الخطب في جيدها جبل من ليف «نقد كذب على الله جبل وعلا وقوله ما لم يقل، وبطل كتابه وحرفه، وسأول ما قد حفظه منه ومنع من اختلاطه به، وفي حديث الذي أتاه نوطنة الطريق لأهل الإلحاد، ليدخلوا في القرآن ما يحلون به حرا الإسلام، وينسبونه إلى قوم

ك هؤلاء القوم الذين أحال هذا بالأباطيل عليهم ؛ وفيه إبطال الإجماع الذي به يحرم الإسلام ،
و بياته تمام الصلوات ، وتؤدى الزكوات ، وتحصى التبعيدات . وفي قول الله تعالى : ﴿ الرَّكَابُ
أُحْكِمَت آيَاتُهُ ﴾ دلالة على بدعة هذا الانسان ونعوجه إلى الكفر ، لأن معنى « أحكمت آياته » :
منع الخلق من القدرة على أن يزيدوا فيها ، أو ينقصوا منها ، أو يعارضوها بمثلا ، وقد وجدنا هذا
الانسان زاد فيها وكفى الله للمؤمنين القتال ، بلى - وكان الله قويا عزيزا ، فقال في القرآن هجرا ، وذكريا
في مكان لو سمعه يذكره فيه لأضى عليه الحد ، وحكم عليه بالقتل ، وأسقط من كلام الله « قل هو »
وغير أحد فقرأ الله الواحد الصمد وإسقاط ما أسقطه نفي له وكفر ، ومن كفر بحرف من القرآن
فقد كفر به كله وأبطل معنى الآية ؛ لأن أهل التفسير قالوا : نزلت الآية جوازا لأهل الشرك لما قالوا
رسول الله صلى الله عليه وسلم : صف لنا ربك ؛ أمن ذهب أم من نحاس أم من صُفر ؟ فقال الله
جل وعز وقا عليهم : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ نفي هو دلالة على موضع الرد ومكان الجواب فإذا سقط
بطل معنى الآية ، ووضع الاقتراء على الله عز وجل ، والتكذيب لرسوله صلى الله عليه وسلم ، ويقال لهذا
الإنسان ومن يفعل تصرفه : أخبرونا عن القرآن الذي نقرؤه ولا نعرف نحن ولا من كان قبلنا من
أسلافنا سواء ؛ هل هو مشتمل على جميع القرآن من أوله إلى آخره ، صحيح الألفاظ والمعاني ، ما من
الفساد والخلل ؟ أم هو واقع على بعض القرآن والبعض الآخر غائب عنا كما غاب عن أسلافنا والمتقدمين
من أهل ملتنا ؟ فإن أجابوا بأن القرآن الذي معنا مشتمل على جميع القرآن لا ينقطع منه شيء ، صحيح
اللفظ والمعاني ، سليمها من كل زلل وخال ؛ فقد قضوا على أنفسهم بالكفر حين زادوا فيه « فليس
له اليوم ههنا حميم وليس له شراب إلا من غسلين من عين تجري من تحت الجحيم » فأى زيادة في القرآن
أوضح من هذه ، وكيف يخلط بالقرآن وقد حرسه الله منها ومنع كل مفر وبطل من أن يلحق به مثله ،
وإذا توملت وبحت عن معناها وجدت فاسدة غير صحيحة ، لا تشاكل كلام البارئ تعالى ولا تخطط به ،
ولا توافق معناه ، وذلك أن بعدها ، « لا يأكله إلا الخاطئون » فكيف يؤكل الشراب والذي أتى به قبلها
« فليس له اليوم ههنا حميم وليس له شراب إلا من غسلين من عين تجري من تحت الجحيم لا يأكله
إلا الخاطئون » فهذا متناقض يفسد بعضه بعضا ؛ لأن الشراب لا يؤكل ، ولا يقول العرب : أكلت
الماء ؛ لكنهم يقولون : شربته وذقته وطعمته ؛ ومعناه فيما أنزل الله تبارك وتعالى على الصفة .

في القرآن الذي من خالف حرفاً منه كفر: ﴿وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينَ﴾ لا يأكل الغسليين إلا الغاطئون أو لا يأكل الطعام إلا الغاطئون . والغسليين : ما يخرج من أفواههم من الشحم وما يشاق به من الصديد وغيره ؛ فهذا طعام يؤكل عند البلية والنعمة، والشراب محال أن يؤكل ، فإن ادعى هذا الإنسان أن هذا الباطل الذي زاده من قوله «من عين تجرى من تحت الجحيم» ليس بمعناه ولا يأكله إلا الغاطئون» ونفى هذه الآية من القرآن لتصح له زيادته، فقد كفر لما بحمد آية من القرآن . وحسبك بهذا كله رداً لقوله، ونزهاً لمقاله . وما يؤثر عن الصعابة والتأبين أنهم قرموا بكنا وكنا إفاً ذلك على جهة البيان والتفسير لا أن ذلك قرآن يتل، وكذلك ما نسخ لفظه وحكمه أو لفظه دون حكمه ليس بقرآن على ما أتى بيانه عند قوله تعالى : ﴿مَا تَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ﴾ إن شاء الله تعالى .

القول في الاستعاذة

وفيه اثنا عشرة مسألة :

الأولى — أمر الله تعالى بالاستعاذة عند أول كل قراءة فقال تعالى : ﴿إِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ أى إذا أردت أن تقرأ؛ فأوقع الماضي موقع المستقبل كما قال الشاعر :
وإني لأتيمم لذكري الذى مضى * من الورد والشقائق ما كان في غد

أراد ما يكون في غد ؛ وقيل : في الكلام تحديداً وتأخيراً ، وأن كل فعلين تقاربا في المعنى جاز تقديم أحدهما شئت ، كما قال تعالى : ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى﴾ المعنى فتدل ثم دنا ؛ ومثله : ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَآتَيْنَا الْقَوْمَ﴾ وهو كثير .

الثانية — هذا الأمر على التلبس في قول الجمهور وحكى النقاش عن عطاء: إن الاستعاذة واجبة في صدر كل قراءة في غير الصلاة ؛ واختفوا فيها في الصلاة، وكان ابن سيرين والبخاري وقوم يمتنعون في الصلاة في كل ركعة، ويمتنعون أمر الله في الاستعاذة على العموم ؛ وأبو حنيفة والثمامي يتعذنان في الركعة الأولى من الصلاة ويريان قراءة الصلاة كلها كقراءة واحدة؛ ومالك لا يرى التعوذ في الصلاة المفروضة ويراه في قيام رمضان .

الثالثة — أجمع العلماء على أن التعوذ ليس من القرآن ولا آية منه ، وهو قول القارئ : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ؛ وهذا اللفظ هو الذى عليه الجمهور من العلماء في التعوذ لأنه لفظ كتاب الله

تعالى . وروى عن ابن مسعود أنه قال : قلت أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم ؛ فقال لي النبي صلى الله عليه وسلم : « يَأْنِ أَمَّ عَبْدٍ أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ هَكَذَا أَقْرَأَنِي جِبْرِيلُ عَنِ اللّٰهِ عَنِ الْقَلَمِ » .

الرابعة — روى أبو داود وابن ماجه في سننهما عن جابر بن مطعم أنه رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي صلاة فقال عمرو : لا أدرى أى صلاة هي ؟ فقال : الله أكبر كبيرا الله أكبر كبيرا الله أكبر كبيرا والحمد لله كثيرا الحمد لله كثيرا ثلاثا وسبحان الله بكرة وأصيلا ثلاثا ، أعوذ بالله من الشيطان من نفسه ونفثه وهمزته ؛ قال عمرو : همزة الموتة ، ونفثه الشعر ، ونفسه الكبر . وقال ابن ماجه : الموتة بنى الجنون . والنفث : فثخ الرجل من فيه من غير أن يخرج ريقه . والكبر : التيه . وروى أبو داود عن أبي سعيد الخدري قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قام من الليل كبر ثم قال : « سبحانك اللهم وبحمدك تبارك اسمك وتعالى جدك ولا إله غيرك » ثم يقول : « لا إله إلا الله ثلاثا » ؛ ثم يقول : « الله أكبر كبيرا ثلاثا أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم من همزه ونفثه ونفثه » ؛ ثم يقرأ . وروى سليمان بن سالم عن ابن القاسم رحمه الله : أن الاستعاذة أعوذ بالله العظيم من الشيطان الرجيم إن الله هو السميع العليم بسم الله الرحمن الرحيم . قال ابن عطية : وأما المقرئون فأكثروا في هذا من تبديل الصفة في اسم الله تعالى ، وفي الجهة الأخرى ، كقول بعضهم : أعوذ بالله الحيد ، من الشيطان المريد ؛ ونحو هذا مما لا أقول فيه : نعمت البدعة ، ولا أقول : إنه لا يجوز .

الخامسة — قال الملهوي : أجمع القراء على إظهار الاستعاذة في أول قراءة سورة « الحمد » إلا حمزة فانه أسرها . وروى السدي عن أهل المدينة : أنهم كانوا يفتحون القراءة بالبسملة . وذكر أبو الليث السمرقندي عن بعض المفسرين : أن التعمد فرض ، وإذا نسيه القارئ وذكره في بعض الحزب قطع وتعوذ ، ثم ابتدأ من أوله . وبعضهم يقول : يستعيد ثم يرجع إلى موضعه الذي وقف فيه ؛ والأول قال أسانيد الجواز والراقي ؛ والثاني قال أسانيد الشام ومصر .

(٢) له محمد بن مرة الماكودي نسخة الحديث (أنظر سنن ابن ماجه ١ ص ١٣٩ وسنن أبي داود ج ١ ص ٧٧

طبع مصر) .

(٢) في بعض النسخ : « يا أي القاسم » .

السابعة — حكى الزهراوى قال : نزلت الآية في الصلاة وتنبأ إلى الاستعاذة في غير الصلاة وليس بفرض ، قال غيره : كانت فرضاً على النبي صلى الله عليه وسلم وحده ، ثم تأمينا به .

السابعة — روى عن أبي هريرة أن الاستعاذة بعد القراءة ، وقاله داود . قال أبو بكر بن العربي انتهى التي يقوم إلى أن قالوا : إذ أفرغ القارئ من قراءة القرآن يستعذ بالله من الشيطان الرجيم . وقد روى أبو سعيد الخدري : أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يتعوذ في صلاته قبل القراءة ، وهذا نص . فان قيل : فما الفائدة في الاستعاذة من الشيطان الرجيم وقت القراءة ؟ قلنا : فائدتها امتثال الأمر ، وليس للشرعيات فائدة إلا القيام بحق الوفاء لها باستمالها أمراً واجتبابها نهيًا ، وقد قيل : فائدتها امتثال الأمر بالاستعاذة من وسوسة الشيطان عند القراءة كما قال تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلَقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ ﴾ . قال ابن العربي : ومن أغرب ما وجدناه قول مالك في المجموعة في تفسير هذه الآية : فإنما قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم ، قال : ذلك بعد قراءة أم القرآن لن قرأ في الصلاة . وهذا قول لم يرد به أثر ، ولا يعضده نظري . فإن كان هذا كما قال بعض الناس : إن الاستعاذة بعد القراءة ، كان تخصيص ذلك بقراءة أم القرآن في الصلاة دعوى مريضة ، ولا يشبه أصل مالك ولا نفسه ، فانه أعلم بمرم هذه الرواية .

الثامنة — في فضل التعوذ . روى مسلم عن سليمان بن صرد قال : اسب رجلان عند النبي صلى الله عليه وسلم بفصل أحدهما يفضض ويمتزوجه وتفتخ أوداجه ، فنظر إليه النبي صلى الله عليه وسلم فقال : " إني لأعلم كلمة لو قلها لذهب ذا عنه أعوذ بالله من الشيطان الرجيم " . فقام إلى الرجل رجل سمع النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال : هل تدري ما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أنفا ؟ قال " إني لأعلم كلمة لو قلها لذهب ذا عنه ، أعوذ بالله من الشيطان الرجيم " . فقال له الرجل : أجبونا تراني ! أخرجه البخاري أيضا . وروى مسلم أيضا عن عثمان بن أبي العاص الثقفي : أنه أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله إن الشيطان قد حال بيني وبين صلاتي ، وقراءتي باليسها علي ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ذاك شيطان يقال له خرب فإذا أحسسته فتعوذ بالله منه واتفل عن يسارك ثلاثا " قال : ففعلت فذهب الله عني . وروى أبو داود عن ابن عمر قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا سافر فاقبل عليه الليل قال : " يا أرض ربى وربك الله .

أعوذ بالله من شرك ومن شر ما خلق فيك ومن شر ما يلعبه عليك ومن أسد وأسود ومن الحوة والعقرب ومن ما كنى البله وما ولد . وروى خولة بنت حكيم قالت : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " من نزل منزلاً ثم قال أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق ، لم يضره شيء حتى يرتحل " أخرجه في اللؤلؤا ومسلم والترمذى وقال : حديث حسن غريب صحيح . وما يتعوذ منه كثير ، ثابت في الأخبار ، والله المستعان .

الثامنة - معنى الاستعاذة في كلام العرب الاستجارة ، والتحصن إلى الشيء ، على معنى الامتناع به من المكروه ، يقال : عدت بفلان واستعدت به ، أى لجأت إليه ، وهو عيادي ، أى ملجئى وأعدت ضمرى به وعوذته بمعنى ، ويقال : عوذ بالله منك ، أى أعوذ بالله منك ، قال الراجز :

قالت وفيها حيدة وذعر • عوذ برى منك وجر

والعرب يقول عند الأمر [سكرة] : حجراً له بالضم أى دفعا ، وهو استعاذة من الأمر . والموذة والمعاذة والتعوذ كله بمعنى ، وأصل أعوذ : أعوذ قلت الضمة إلى العين لاستعظامها على الواو فسكنت .

المثيرة - الشيطان واحد الشياطين على التكسير والتون أصلية ، لأنه من شطن إذا بعد عن الخير ، وشطنت داره أى بدلت ، قال الشاعر :

أتت بسعادتك نوى شطون • فبانت والفساد بها رمين

ويتر شطون أى بعيدة القعر . والشطون : الجبل ، متى به لبعده طوفيه وامتداده . ووصف لجرى فرسا [لا يحنى] فقال : كأنه شيطان فى أشطان . وسمى الشيطان شيطانا لبعده عن الحق وتمزده ، وذلك أن كل عات متمرد من الحق والإنس والدواب شيطان ، قال جرير :

أيام يدعونى الشيطان من غزل • وهن يويقى إذ كنت شيطانا

وقيل : إن شيطانا مأخوذ من شاط يشط إذا بطل فالتون زائفة . وشاط إذا احترق . وشيطت اللحم ، إذا دخته ولم تشفجه ، واشتاط الرجل ، إذا احتد غضبا . وناقعة مشباط التى يطير فيها السمن . واشتاط ، إذا هلك ، قال الأعشى :

(١) الزيادة من لسان العرب مادة (جر) - (٢) من النجاة للبيان كافى لسان العرب مادة (شطون) .

(٣) الزيادة من لسان العرب مادة (شطون) .

قد تخضب البعر في مكنون فائه * وقد يشيط على أرماحتنا البطل

أى يهلك :

ويرد على هذه القرفة ، أن سيويه حكى أن العرب يقول : تسبطن فلان إذا فعل أفعال الشياطين ، فهذا بين أنه يفعل من شطن ولو كان من شاط لقالوا : تسبط ويرد عليهم أيضا بيت أمية ابن أبي الصلت :

أبما شاطني عصاه عكاه * ورواه في البجن والأفلال

فهذا شاطن من شطن لاشك فيه .

الحادية عشرة — الرجم أى المبعد من الخير المهان . وأصل الرجم : الرمي بالحجارة ، وقد رجته أرمجه ، فهو رجم ومرجوم . والرجم : القتل واللسن والطرود والشنم ، وقد قيل هنا كلام في قوله تعالى : (لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ) وقول أبي إبراهيم : (لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ) ، وسيأتى إن شاء الله تعالى .

الثانية عشرة — روى الأعمش عن أنى وأائل من عبد الله قال : قال علي بن أبي طالب عليه السلام : رأيت النبي صلى الله عليه وسلم عند الصفا وهو مقبل على شخص في صورة الفيل وهو يلعبه ، قلت : ومن هذا الذي تلعبه يا رسول الله ؟ قال : « هذا الشيطان الرجيم » فقلت : يا مدلول الله والله لأقتلك ولأزيعن الأمة منك ؛ قال : ما هذا جزأى منك ؛ قلت : وما جزأوك منى يا مدلول الله ؟ قال : والله ما أبغضك أحد قط إلا شركت أباه في رحم أمه ؛

البسطة

وفيا سبع وعشرون مسألة :

الأولى — قال العلماء : بسم الله الرحمن الرحيم ، قسم من ربنا أنزله عند رأس كل سورة ، فبسم لعباده : إن هذا الذي وضعت لكم يا عبادى في هذه السورة حق ، وإنى أوفى لكم بجميع ما ضمننت في هذه السورة من وعدى ولطفى وجزى . وبسم الله الرحمن الرحيم « بما أنزله الله تعالى في كتابنا وعلى

(١) القائل : مرق في الضمير يكون في نوبة الوعد . . . (٢) مكافئ الحديث والرواية إذا شئت .

هذه الأمة خصوصا، بعد سليمان عليه السلام، وقال بعض العلماء: إن بسم الله الرحمن الرحيم تضمنت جميع الشريع، لأنها تدل على الثبات وعلى الصفات، وهذا صحيح .

الثانية - قال سعيد بن أبي سكينه : بلغني أن علي بن أبي طالب رضى الله عنه نظر إلى رجل يكتب "بسم الله الرحمن الرحيم" فقال له : جرد لها رجلا جردها ففقر له ، قال سعيد : وبلغني أن رجلا نظر إلى قوطاس فيه "بسم الله الرحمن الرحيم" فقبله ووضع على عليه ففقر له . ومن هذا المعنى قصة بشر الحافي فإنه لما رفع الرقعة التي فيها اسم الله وطيبها . طيب اسمه ، ذكره القشيري . وروى النسائي عن أبي الملحج من ردف رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "إذا عثرت بك الدابة فلا تهل نفس الشيطان فإنه يتعاطم حتى يصير مثل البيت ويقول بقوتي صنعته، ولكن قل بسم الله الرحمن الرحيم، فإنه يتعاضد حتى يصير مثل النياب" . وقال علي ابن الحسين في تفسير قوله تعالى : (وَإِذَا دُرِّتْ رَبِّكَ فِي الْفُرَاتِ وَحَدُّهُ وَكَلَّا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا) قال معناه : إذا قلت "بسم الله الرحمن الرحيم" وروى وكيع عن الأعمش عن أبي وإل عن عبد الله ابن مسعود قال : من أراد أن يخيه الله من الزانية التسعة عشر فليقرأ "بسم الله الرحمن الرحيم" ليجمع الله تعالى له بكل حرف منها جنة من كل واحد . فالبسمة تسعة عشر حرفا على عدد ملائكة أهل النار الذين قال الله فيهم : (عَلَيْهِمُ تِسْعَةٌ عَشْرَ) وهم يقولون في كل العالم : "بسم الله الرحمن الرحيم" فمن هنا لك هي قوتهم ، وبسم الله استقبلوا . قال ابن عطية : ونظير هذا قولهم في ليلة القدر : إنها ليلة سبع وعشرين صرامة للفظة هي من كلمات سورة إنا أنزلناه . ونظيره أيضا قولهم في عدد الملائكة الذين ابتدروا قول القائل : ربنا ولك الحمد حمدا كثيرا طيبا مباركا فيه ، فإنها بضعة وثلاثون حرفا، فلذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم : "قد رايت بضعا وثلاثين ملكا يتدبرونها أيهم يكتبها أول" . قال ابن عطية : وهذا من ملح التفسير وليس من متين العلم .

الثالثة - روى الشعبي والأعمش : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يكتب "بسم الله الرحمن الرحيم" حتى أمر أن يكتب "بسم الله" فكتبها؛ فلما نزلت : (قل أدعوا الله أو ادعوا الرحمن) : كتب "بسم الله الرحمن" فلما نزلت : (إنه من سليمان وإياه بسم الله الرحمن الرحيم) كتبها . وفي مصنف أبي داود : قال الشعبي وأبو مالك وثابت بن عماره : إن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكتب بسم الله الرحمن الرحيم حتى نزلت سورة « النمل » .

الرابعة — روى عن جعفر الصادق رضي الله عنه أنه قال : البسمة تيجان السور قلت : وهذا يدل على أنها ليست بآية من الفاتحة ولا غيرها .

وقد اختلف العلماء في هذا المعنى على ثلاثة أقوال :

(الأول) ليست بآية من الفاتحة ولا غيرها ، وهو قول مالك .

(الثاني) أنها آية من كل سورة ، وهو قول عبد الله بن المبارك .

(الثالث) قال الشافعي : هي آية في الفاتحة ، وتردّد قوله في سائر السور ، فتردّد قال : هي آية

من كل سورة ، وحرمة قال : ليست بآية إلا في الفاتحة وحدها . ولا خلاف بينهم في أنها آية من القرآن في سورة النمل .

وأصحح الشافعي بما رواه البارقي من حديث أبي بكر عبد الحميد بن جعفر الحنفي عن نوح ابن أبي بلال عن سعيد بن أبي سعيد المقبري عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إذا قرأتم الحمد لله رب العالمين ، فأفهموا بسم الله الرحمن الرحيم ، إنها أم القرآن ، وأتم الكتاب ، والسمع المثاني ، وبسم الله الرحمن الرحيم أحد آياتها » . رفع هذا الحديث عبد الحميد بن جعفر ، وعبد الحميد هذا وقته أحمد بن حنبل ، ويحيى بن سعيد ، ويحيى بن معين ، وأبو حاتم يقول فيه : محله الصدق ، وكان سفيان الثوري يضعفه ويحمل عليه . ونجح بن أبي بلال ثقة مشهور .

وحجة ابن المبارك وأحد قول الشافعي ما رواه مسلم عن أنس قال : بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم بين أظهرنا إذ أغشى إضاءة ثم رفع رأسه متبهما ، قلنا : ما أمضك يا رسول الله ؟ قال : « تزلت على آتفا سورة فقرأ » (بسم الله الرحمن الرحيم :) إِنَّا أَنْعَمْنَا بِكَ الْكُوفِرَ . فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنْحَرِ . إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ) . وذكر الحديث ، وسيأتي بجملة في سورة الكوثر إن شاء الله تعالى .

الخامسة — الصحيح من هذه الأقوال قول مالك ، لأن القرآن لا ينبت بأخبار الآحاد وإنما طريقه التواتر القطعي الذي لا يختلف فيه . قال ابن العربي : ويكفيك أنها ليست من القرآن اختلاف الناس فيها ، والقرآن لا يختلف الناس فيه . والأخبار الصالحة التي لا مطمئن فيها دلالة على أن البسمة ليست بآية من الفاتحة ولا غيرها ، إلا في النمل وحدها . روى مسلم عن أبي هريرة قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ^{٢٠} قال الله عز وجل قسمت الصلاة بيني وبين عبدي

نصفين ولعبدى ما سأل فإذا قال العبد (الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) . قال الله تعالى حمدنى عبدى ، وإذا قال العبد (الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ) . قال الله أنى على عبدى ، وإذا قال العبد (مَا لَكَ يَوْمَئِذٍ) قال حمدنى عبدى - وقال مرة فوض إلى عبدى - وإذا قال (إِيَّاكَ تَعَبَّدُ وَإِيَّاكَ تَسْتَعِينُ) . قال هذا بينى وبين عبدى ، ولعبدى ما سأل ، فإذا قال (أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ، صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ، غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ) . قال هؤلاء لعبدى ، ولعبدى ما سأل . . فقوله سبحانه : قسمت الصلاة ، يريد القامعة ، وسماها صلاة ، لأن الصلاة لا تصح إلا بها ، فجعل الثلاث الآيات الأولى لنفسه ، وأخص بها تبارك اسمه ، ولم يختص المسلمين فيها . ثم الآية الرابعة جعلها بينه وبين عبده ، لأنها تضمنت ثلث العبد وطلب الاستعانة منه ، وذلك يتضمن تعظيم الله تعالى ، ثم ثلاث آيات تامة سبع آيات . وما يدل على أنها ثلاث قوله : " هؤلاء لعبدى " أخرجه مالك ، ولم يقل : " هاتان " فهذا يدل على أن (أُنعمت عليهم) آية . قال ابن بكير قال مالك : (أُنعمت عليهم) آية ، ثم الآية السابعة إلى آخرها . فثبت بهذه التسمية التى قسمها الله تعالى . وبقوله عليه السلام لابی : « كيف قرأ إذا قصمت الصلاة » قال : فقرأت (الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) حتى أتيت على آخرها : أن البسملة ليست آية منها ، وكذا مد أهل المعينة وأهل الشام وأهل البصرة ، وأكثر القراء ملوا (أُنعمت عليهم) آية ، وكذا روى قتادة عن أبى نضرة عن أبى هريرة قال : الآية السادسة (أُنعمت عليهم) وأما أهل الكوفة من القراء والفقهاء فإنهم ملوا فيها " بسم الله الرحمن الرحيم " ولم يملوا (أُنعمت عليهم) .

فإن قيل : فأنما ثبت في المصحف وهى مكتوبة بخطه وقلت قوله ، كما قلت فى التل ، وذلك موافقهم .

قلت : ما ذكرتموه صحيح ، ولكن لكونها قرأنا ؟ أو لكونها فاصلة بين السور ، كما روى عن الصحابة كما لا تعرف انقضاء السورة حتى تقرأ " بسم الله الرحمن الرحيم " أخرجه أبو داود . أو تبركا بها ، كما قد أخذت الأئمة على كتبها فى أوائل الكتب والرسائل ، كل ذلك محتمل . وقد قال الجرجرى : سئل الحسن عن " بسم الله الرحمن الرحيم " قال : فى صدور الرسائل . وقال الحسن أيضا : لم تقرأ " بسم الله الرحمن الرحيم " فى شئ من القرآن إلا فى طس (أَنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ) والفيصل

أن القرآن لا يثبت بالنظر والاستدلال ، وإنما يثبت بالنقل المتواتر القطعي الاضطرارى . ثم قد اضطرب قول الشافعى فيها في أول كل سورة فدل على أنها ليست بآية من كل سورة ، والمحمد لله .
فإن قيل : فقد روى جماعة قرائتها ، وقد تولى الماروقطى جمع ذلك في جزء محصمه .

قلنا : لسنا نذكر الرواية بذلك وقد أشرنا اليها ، ولنا أخبار ثابتة في مقابلتها ، رواها الأئمة الثقات والعقهاء الأئمة . روت عائشة في صحيح مسلم قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يستفتح الصلاة بالكبير ، والقراءة بالمحمد لله رب العالمين ، الحديث ، وسبقنا بكلامه . وروى مسلم أيضا عن أنس بن مالك قال : صليت خلف النبي صلى الله عليه وسلم ، وأبي بكر ، وعمر فكانوا يستفتحون بالمحمد لله رب العالمين ؛ لا يذكرون بسم الله الرحمن الرحيم لا في أول قراءة ولا في آخرها .

ثم إن مذهبنا يرجح في ذلك بوجه عظيم ، وهو المقول ، وذلك أن مسجد النبي صلى الله عليه وسلم بالمدينة انقضت عليه العصور ، ومرت عليه الأزمنة والبحور ، من لدن رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى زمان مالك ، ولم يقرأ أحد فيه قط « بسم الله الرحمن الرحيم » اتباعا للسنة . وهذا يرد أحاديثكم ؛ بيد أن أصحابنا استحبوا قرائتها في النقل ؛ وطبوعهم تحمل الآثار الواردة في قرائتها أو على السعة في ذلك . قال مالك : ولا بأس أن يقرأ بها في النافلة ومن يمرض القرآن عرضا .

وجملة مذهب مالك وأصحابه : أنها ليست ضلعم آية من فاتحة الكتاب ولا غيرها ، ولا يقرأ بها المصل في المكتوبة ولا في غيرها لا سرا ولا جهرا ؛ ويجوز أن يقرأها في النوافل . هذا هو المشهور من مذهبه عند أصحابه . وعنه رواية أخرى : أنها تقرأ أول السورة في النوافل ، ولا تقرأ أول أم القرآن . وروى عنه ابن نافع : ابتداء القراءة بها في الصلاة الفرض والنفل ولا تحرك بحال . ومن أهل المدينة من يقول : إنه لا بد فيها من « بسم الله الرحمن الرحيم » منهم ابن عمر ، وابن شهاب ؛ وبه قال الشافعى ، وأحمد ، وإسحاق ، وأبو ثور ، وأبو عبيد . وهذا يدل على أن المسئلة مسألة اجتهادية ، لا قطعية ، كما ظنه بعض الجهال من المتفقهة الذى يلزم على قوله تكفير المسامين ؛ وليس كما ظن لوجود الاختلاف المذكور ، والمحمد لله .

وقد ذهب جمع من العلماء إلى الإسرار بها مع الفاتحة ، منهم : أبو حنيفة ، والثوري ، وروى ذلك عن عمر ، وعلي ، وابن مسعود ، وعمر ، وابن الزبير ، وهو قول الحكم ، وجاد ؛ وبه قال أحمد بن حنبل

وأبو حنيفة وروى عن الأوزاعي مثل ذلك؛ حكاه أبو عمر بن عبد البر في (الاستذكار) . واحتجوا من الأثر في ذلك بما رواه منصور بن زاذان عن أنس بن مالك قال : صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يسمعا قراءة «بسم الله الرحمن الرحيم» . وما رواه عمار بن رزيق^(١) عن الأعمش عن شعبة عن ثابت عن أنس قال : صليت خلف النبي صلى الله عليه وسلم وخلف أبي بكر، وعمر، فلم أسمع أحدا منهم يهجر بسم الله الرحمن الرحيم .

قلت : هذا قول حسن وعليه تنفق الآثار عن أنس ولا تنفاد، ويخرج به من الخلاف في قراءة البسملة . وقد روى عن سعيد بن جبير قال : كان المشركون يحضرون المسجد ؛ فإذا قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم : «بسم الله الرحمن الرحيم» قالوا : هذا محمد يذكر رحان الإمامة - يهون مسيلة - فأمر أن يخافت بسم الله الرحمن الرحيم ، ونزل : «وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتُ بِهَا» . قال الترمذي الحكيم أبو عبد الله : فبقى ذلك إلى يومنا هذا على ذلك الرسم وإن زالت العادة، كما بقي الركن في الطواف وإن زالت العادة، وبقيت الخفافة في صلاة النهار وإن زالت العادة .

السادسة - اتفقت الأمة على جواز كتبها في أول كل كتاب من كتب العلم والرسائل، فإن كان الكتاب ديوان شعر، فروى بمجالد عن الشعبي قال : أجمعوا ألا يكتبوا أمام الشعر «بسم الله الرحمن الرحيم» وقال الزهري : مضت السنة ألا يكتبوا في الشعر «بسم الله الرحمن الرحيم» . وذهب إلى رسم التسمية في أول كتب الشعر سميد بن جبير، وتابعه على ذلك أكثر المتأخرين . قال أبو بكر الخطيب : وهو الذي تختاره ونسجه .

السابعة - قال المسعودي ويقال لمن قال : بسم الله بمسمل، وهي لغة مولدة . وقد جاءت في الشعر، قال عمر بن أبي ربيعة :

لقد بسملت ليلي فداة لقيتها • فيا حبذا ذاك الحبيب المسمل

قلت : المشهور من أهل اللغة بسمل . قال يعقوب بن السكيت والمطرز والنحاشي وغيرهم من أهل اللغة : بسمل الرجل، إذا قال : بسم الله . يقال : قد أكثر من البسملة، أي من قول بسم الله . وبهله حوّل الرجل، إذا قال : لا حول ولا قوة إلا بالله . وهال، إذا قال : لا إله

(١) كتاب في تهليل التهليل . مدخل في تهليل الرأى على الأولى صفرا . وفي الأصول : «عمار بن رزيق وهو خطأ» .

إلا الله . وسبحل، إذا قال: سبحان الله . وحمل، إذا قال: الحمد لله . وحصل، إذا قال: حتى
على الصلاة . وجفعل، إذا قال: جعلت فداك . وطبقل، إذا قال: أطال الله بقاءك . ودمعز،
إذا قال: أدام الله عزك . وحيفل، إذا قال: حتى على الفلاح . ولم يذكر المطرز: الحبيصة، إذا
قال: حتى على الصلاة .

الثامنة — نذب الشرع إلى ذكر البسملة في أول كل فعل ، كالأكل والشرب والنحر والجماع والطهارة وركوب البحر ، إلى غير ذلك من الأفعال ، قال الله تعالى : ﴿ فَكُلُوا مِمَّا ذُكِّرَ اسمُ اللَّهِ عَلَيْهِ ﴾ (وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ جَرِيرًا وَمُسَاهَا) . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أعلق بابك واذكر اسم الله ، وأطفئ مصباحك واذكر اسم الله ، ونحر إنائك واذكر اسم الله ، وأوك سقاك واذكر اسم الله" وقال : "لو أن أحدكم إذا أراد أن يأتي أهله قال بسم الله ، اللهم جنبنا الشيطان وجنب الشيطان ما رزقنا ، فإنه إن يقدر بينهما ولد في ذلك لم يضره شيطان أبدا" وقال لعمر بن أبي سلمة : "يا غلام سمع الله وكل بينك وكل مما يليك" وقال : "إن الشيطان ليستحل الطعام إلا أن يذكر اسم الله عليه" وقال : "من لم يذبح فليذبح باسم الله" وشكا إليه عثمان بن أبي العاص وجعا يحده في جسده منذ أسلم ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : "ضع يدك على الذي يالَم من جنبك وقل بسم الله ثلاثا وقل مسح مرات أعوذ بحزة الله وقدرته من شر ما أجد وأحاذر" . وهذا كله ثابت في الصحيح . وروى ابن ماجه والترمذي عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "ستر ما بين [أعين] الجن وعودات بني آدم إذا دخل [أحد] بالكيف أن يقول بسم الله" . وروى البوقعني عن عائشة قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا مس طهوره سَمَّى الله تعالى ، ثم يفرغ الماء على يديه .

التاسعة — قال علماءنا : وفيها رَدٌّ على القَدَرِيَّةِ وغيرهم ممن يقول : إن أفعلم مقدورة لهم . وموضع الاحتجاج عليهم من ذلك : أن الله سبحانه أمرنا عند الابتداء بكل فعل أن نفتح بذلك ، كما ذكرنا .

فمعنى بسم الله أى بالله، ومعنى بالله أى بخلقه وتهديره يوصل إلى ما يوصل إليه . وسأتى لهذا مزيد بيان إن شاء الله تعالى . وقال بعضهم : معنى قوله : بسم الله يعنى بدأت بحسن الله وتوفيقه

وبركته ؛ وهذا يعلم من الله تعالى عباده ، لذكروا اسمه عند افتتاح القراءة وغيرها ، حتى يكون الافتتاح بركة الله جل وعز .

العاشره - ذهب أبو عبيدة معمر بن المثنى إلى أن « اسم » صلة زائدة ، واستشهد بقول لبيد :
إلى الحول ثم اسم السلام عليك • ومن يك حولا كاملا فقد اعتذر
فذكر اسم زيادة ، وإنما أراد ثم السلام عليك

وقد استدل علماء قول لبيد هذا على أن الاسم هو المسمى . وسيأتي الكلام فيه في هذا الباب
وضره ، إن شاء الله تعالى .

الحادية عشرة - اختلف في معنى زيادة « اسم » ؛ فقال قطرب : زيدت لإجلال ذكره
تعالى وتعليقه . وقال الأخفش : زيدت ليخرج بذكرها من حكم القسم إلى قصد التبرك ؛ لأن
أصل الكلام بلف .

الثانية عشرة - اختلفوا أيضا في معنى دخول الباء عليه ، هل دخلت على معنى الأمر ؟
والتقدير : ابدأ بسم الله ، أو معنى التبرؤ والتقدير : ابتدأت بسم الله ، قولان : الأول للقراء ، والثاني
للزجاج . فسم في موضع نصب على التأويل . وقيل : المعنى ابتدأت بسم الله ، فسم الله في موضع
رفع خبر الابتداء . وقيل : الخبر محذوف ، أى ابتدأت مستقر أو ثابت بسم الله ، فإنما أظهره كان
بسم الله في موضع نصب بثابت أو مستقر ، وكان بمنزلة قولك : زيد في الدار . وفي التثنية : (فَلَمَّا
رَأَاهُ مُسْتَقِرًّا عَنْهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِي رَبِّي) فعنده في موضع نصب ، روى هذا عن جماعة أهل البصرة .
وقيل التقدير : ابتدأت بسم الله موجود أو ثابت ، فسم في موضع نصب بالمصدر الذى هو ابتدأت .

الثالثة عشرة - بسم الله ، تكتب بغير ألف استثناء عنها بياه الإصاق في اللفظ والخط لكثرة
الاستعمال ؛ بخلاف قوله : (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ) فإنها لم تحذف لقلة الاستعمال . واختلفوا في حذفها
مع الرحمن والقاهر ؛ فقال الكسائي وسعيد الأخفش ، تحذف الألف . وقال يحيى بن وثاب :
لا تحذف إلا مع بسم الله قط ، لأن الاستعمال إنما كثرت فيه .

الرابعة عشرة - واختلف في تخصيص بياه الجر بالكسر على ثلاثة معان ؛ ف قيل : لئلا سب
لقطها عليها . وقيل : لما كانت الباء لا تدخل إلا على الإسماء خصت بالخفض الذى لا يكون

إلا في الأسماء . الثالث : ليفرق بينها وبين ما قد يكون من الحروف اسما ، نحو الكاف في قول الشاعر :

• ورحنا بكا بن الماء تجنب وسطنا •

أى بمثل ابن الماء أو ما كان مثله .

أخماسة عشرة — اسم ، وزنه أفع ، والناهب منه الواو ، لأنه من سموت وجمعه أسماء ونصفيده سمى . واختلف في تقدير أصله ، قيل : فعل ، وقيل : فُعل . قال الجوهري : وأسماء يكون جمعا لهذا الوزن ، وهو مثل جذع وأجذاع ، وقفل وأقفال ؛ وهذا لا تدرك صيغته إلا بالسماع . وفيه أربع لغات : اسم بالكسر ، واسم بالضم ، قال أحمد بن يحيى : من ضم الألف أخذه من سموت أسمو ، ومن كسر أخذه من سميت أسمى . ويقال : سمٌ وسمٌ ويشد :

وإله أسماك سما مباركا • أنترك لله به إشاركا

وقال آخر :

وعامنا أعجبنا مُقَسَّمُهُ • يدعى أبا السمع وقرضاب سيمه

• مبتزكا لكل عظم يلحمه •

قرَضَب الرجل : إذا أكل شيئا يابساً فهو قرضاب . سيمه بالضم والكسر جميعا .

ومنه قول الآخر :

• بامم الذي في كل صورة سيمه •

وسكنت السين من بسم اعتلا^(٢) على غير قياس ، وألفه ألف وصل ، وربما جعلها الشاعر ألف

قطع للضرورة ، كقول الأحموس :

وما أنا بالخصوس في جذم مالك • ولا من تسمى ثم يلزم الإسماء

السادسة عشرة — تقول العرب في النسب إلى الاسم : سُمِيٌّ ، وإن شئت : اسمي تركته على

حالهِ ، وجمعه أسماء ، وجمع الأسماء أسام . وحكى الفراء : أعينك بأسماءات الله •

(١) التصويب من اللسان مادة « بك ، سماء » . ويزيل مبتزك : فتجعل الشيء ملح ويلحمه : يزرع معه اللحم .

(٢) كان الأصل اسم قلت حركة الهزة إلى السين ثم حلفت الهزة ولما وصلت الباء به سكنت السين تخفيفا .

السابعة عشرة - اختلفوا في اشتقاق الاسم على وجهين؛ فقال البصريون : هو مشتق من السموة وهو العلو والرفعة، فقبل اسم لأن صاحبه بمنزلة المرتفع به . وقيل لأن الاسم يسمى بالسمي فيرفعه عن غيره . وقيل انما سمي الاسم اسما لأنه علا بقوته على قسمي الكلام : الحرف والفعل؛ والاسم أقوى منهما بالاجماع لأنه الأصل؛ فعلوه عليهما سمي اسما؛ فهذه ثلاثة أقوال .

وقال الكوفيون : إنه مشتق من السمة وهي العلامة ، لأن الاسم علامة لمن وضع له ؛ فاصل اسم على هذا «وسم» والأوّل أصح، لأنه يقال في التصغير سمي وفي الجمع أسماء؛ والجمع والتصغير يرذان الأشياء إلى أصولها؛ فلا يقال : : «وسم ولا أوسام» . ويدل على صحته أيضا فائدة الخلاف وهي : الثامنة عشرة - فإن من قال الاسم مشتق من العلو يقول : لم يزل الله سبحانه موصوفا قبل وجود الخلق وبعد وجودهم وعند فئاتهم، ولا تأثير لهم في أسمائه ولا صفاته؛ وهذا قول أهل السنة . ومن قال الاسم مشتق من السمة يقول : كان الله في الأوّل بلا اسم ولا صفة ، فلما خلق الخلق جعلوا له أسماء وصفات، فأنما أتاهم بغير بلا اسم ولا صفة؛ وهذا قول المعتزلة وهو خلاف ما أجمعت عليه الأمة؛ وهو أعظم في الخطأ من قولهم : إن كلامه مخلوق ، تعالى الله عن ذلك ، وعلى هذا الخلاف وقع الكلام في الاسم والمسمى وهي :

التاسعة عشرة - فنهب أهل الحق فيما نقل القاضي أبو بكر بن الطيب : إلى أن الاسم هو المسمى وارتضاء ابن فورك؛ وهو قول أبي عبيدة وسيبويه . فإذا قال قائل : الله عالم، فقله دال على الذات الموصوفة بكونه عالما ، فالاسم كونه عالما وهو المسمى بعينه . وكذلك إذا قال : الله خالق، فالخالق هو الرب، وهو بعينه الاسم . فالاسم عندهم هو المسمى بعينه من غير تفصيل .

قال ابن الحصار : من ينفي الصفات من المبتدئة يزعم أن لاملول التسميات إلا القات . ولعلك يقولون : الاسم غير المسمى، ومن ينهت الصفات ينهت التسميات مدلولات هي أوصاف القات وهي غير الباربات وهي الأسماء عندهم . وسيأتي لهذه مزيد بيان في البقرة والأعراف إن شاء الله تعالى .

الوفية عشرين - قوله : (الله) هذا الاسم أكبر أسمائه سبحانه وأجمعها، حتى قال بعض العلماء : إنه اسم الله الأعظم ولم ينسب به غيره؛ ولذلك لم يكن ولم يجمع؛ وهو أحد تأويل قوله تعالى :

(هَلْ تَعْلَمُ لَهُ تَمِيماً) أى من تسمى باسمه الذى هو "الله". فاقه اسم الوجود الحق الجامع لصفات الإلهية، المتعوت بنعوت الربوبية، المتفرد بالوجود الحقيقى، لا إله الا هو سبحانه. وقيل: معناه الذى يستحق أن يعبد. وقيل: معناه واجب الوجود الذى لم يزل ولا يزال؛ والمعنى واحد.

الحادية والعشرون - واختلفوا فى هذا الاسم، هل هو مشتق؟ أو موضوع للذات، علم، فذهب إلى الأول كثير من أهل العلم. واختلفوا فى اشتقاقه وأصله. فروى سيويه عن الخليل: أن أصله إله، مثل يقال فأدخلت الألف واللام بدلاً من الهمزة. قال سيويه: مثل الناس أصله أناس. وقيل: أصل الكلمة "لاه" وعليه دخلت الألف واللام للتعظيم، وهذا اختيار سيويه. وأنشد:

لاه ابن عمك لا أفضلت فى حسب • حنى ولا أنت ديانى فتخزوني

كذا الرواية: فتخزوني، بإثاء المعجمة ومعناه: تسوسنى.

وقال الكسائى والقزواء: معنى بسم الله؛ بسم الإله؛ فخذوا الهمزة وأدغموا اللام الأولى فى الثانية فصارتا لاما مشددة كما قال عز وجل: (لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي) ومعناه: لكنى أنا، كذلك قرأها الحسن. ثم قيل هو مشتق من «وله» إذا نحر، والوله: ذهب العقل. يقال: رجل وله وأمرأة والهة وواله، وماء موله: أرضل فى الصغارى. فاقه سبحانه تغير الأكياب وتذهب فى حقائق صفاته والتفكر فى معرفته. فعلى هذا أصل "إله" «ولاه». وأن الهمزة مبذلة من واو كما أبدلت فى إشاح ووشاح، وإسادة ووسادة. وروى عن الخليل، وروى عن الضحاك أنه قال: إنما معنى "الله" إلهما، لأن الخلق يأتون إليه فى حوائجهم، ويتضرعون إليه عند شدائهم. وذكر عن الخليل بن أحمد أنه قال: لأن الخلق يأتون إليه بنصب اللام ويأتون أيضاً بكسرهما وهما لتان. وقيل: «إله» مشتق من الارتفاع، فكانت العرب تقول لكل شئ «مرتفع»: لاهما، فكانوا يقولون إذا طلعت الشمس: لاهت. وقيل: هو مشتق من إله الرجل إذا تعبد. وتأله إذا تسكع. ومن ذلك قوله تعالى: (وَيَذَرَكْهُ وَلَآئِكَ): على هذه القراءة؛ فإن ابن عباس وغيره قالوا: وعبادتك.

قالوا: فاسم الله مشتق من هذا، فاقه سبحانه معناه: المقصود بالعبادة، ومنه قول الموحدين: لا إله الا الله، معناه: لا معبود غير الله. وإلا فى الكلمة بمعنى غير، لا بمعنى الاستثناء. وزعم

بعضهم أن الأصل فيه «الماء» التي هي الكناية عن الثائب، وذلك أنهم أثبتوه موجودا في فطر عقولهم فأشاروا إليه بحرف الكناية ثم زيدت فيه لام الملك إذ قد علموا أنه خالق الأشياء ومالكها فصار «له» ثم زيدت فيه الألف واللام تعظيما وتعظيما .

القول الثاني : ذهب إليه جماعة من العلماء أيضا منهم الشافعي، وأبو المعالي، والخطابي، والغزالي، والمفضل، وغيرهم . وروى عن الخليل وسبويه : أن الألف واللام لازمة له لا يجوز حذفها منه . قال الخطابي : والدليل على أن الألف واللام من بنية هذا الاسم ، ولم يدخلوا للتعريف : دخول حرف التثنية عليه ، كقولك : يا الله ، وحروف التثنية لا تجتمع مع الألف واللام للتعريف ، ألا ترى أنك لا تقول : يا الرحمن ولا يا الرحيم ، كما تقول : يا الله فدل على أنهما من بنية الاسم . والله أعلم .

الثانية والمشرون - واختلقوا أيضا في اشتقاق اسم الرحمن . فقال بعضهم : لا اشتقاق له ، لأنه من الأسماء المختصة به سبحانه ، ولأنه لو كان مشتقا من الرحمة لاتصل بذكر المرحوم ، بخلاف أن يقال : الله رحمن بعباده ، كما يقال : رحيم بعباده . وأيضا لو كان مشتقا من الرحمة لم تذكر العرب حين سمعوه ، إذ كانوا لا يذكرون رحمة ربهم ، وقد قال الله عز وجل : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ ﴾ الآية . ولما كتب علي رضي الله عنه في صلح الحديبية بأمر النبي صلى الله عليه وسلم : بسم الله الرحمن الرحيم ، قال سبيل بن عمرو : ما تدرى ما بسم الله الرحمن الرحيم ! ولكن اكتسب ما تعرف : باسمك اللهم ، الحديث . قال ابن العربي : إنما جهلوا الصفة دون الموصوف ، واستدل على ذلك بقوله : وما الرحمن ؟ ولم يقولوا : ومن الرحمن ؟ قال ابن الحصار : وكأنه رحمه الله لم يقرأ الآية الأخرى : ﴿ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ ﴾ . وذهب الجمهور من الناس إلى أن الرحمن مشتق من الرحمة مبنى على المبالغة ، ومثله ذو الرحمة الذي لا نظير له فيها ، فذلك لا يثنى ولا يجمع كما يثنى الرحيم ويجمع . قال ابن الحصار : ومما يدل على الاشتقاق ما أخرجه الترمذي وصححه عن عبد الرحمن بن عوف ، أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « قال الله عز وجل أنا الرحمن ، خلقت الرحم ، وشققت لها اسما من اسمي ، فمن وصلها وصلته ، ومن قطعها قطعته » وهذا نص في الاشتقاق ، فلا معنى لمخالفة والشافعي ، وإنكار العرب له بلجهلهم بالله وما وجب له .

الثالثة والعشرون — زعم المبرزة فيما ذكر ابن الأنباري في كتاب « الزاهر » له : أن الرحمن اسم صبراني بقاء معه بالرحيم . وأنشد :

لن تُدركوا المجد أو تشروا عيائكم • بالخز أو يحملوا اليثوث ختماء
أو تتركوا إلى القسسين هجرتكم • وستحکم صلهم رحمان قربانا

قال أبو إسحاق الزجاج في معاني القرآن : وقال أحمد بن يحيى : الرحيم عربي والرحمن صبراني ، فلهذا جمع بينهما . وهذا القول مرغوب عنه .

وقال أبو العباس : التعت قد يقع للدخ كما تقول : قال جرير الشاعر . وروى معطوف عن قتادة . في قول الله عز وجل : بسم الله الرحمن الرحيم قال : مدح نفسه . قال أبو إسحاق : وهذا قول حسن . وقال قطرب : يجوز أن يكون جمع بينهما للتوكيد . قال أبو إسحاق : وهذا قول حسن ، وفي التوكيد أعظم الفائدة . وهو كثير في كلام العرب ، ويستغنى عن الاستشهاد ، والفائدة في ذلك ما قاله محمد بن يزيد : إله تفضل بعد تفضل ، وإنعام بعد إنعام ، وتغوية لمطاع الراغبين ، ووعد لا يفيب آمله .

الرابعة والعشرون — واختلفوا هل هما بمعنى واحد أو بمعنىين ؟ فقليل : هما بمعنى واحد كتمان وتديم . قاله أبو عبيدة : وقيل : ليس بناء فعلان كفعيل ، فإن فعلان لا يقع إلا على مبالغة الفعل نحو قولك : رجل غضبان ، للمتل غضبا . وفعل قد يكون بمعنى الصامل والمفعول . قال علس : فأما إذا غضبت بك الحرب غضبة • فإليك معطوف عليك رحيم فالرحمن خاص الاسم عام الفعل . والرحيم عام الاسم خاص للفعل . هذا قول الجمهور .

قال أبو علي الفارسي : الرحمن اسم عام في جميع أنواع الرحمة ، يختص به الله ، والرحيم إذا هو في جهة المؤمنين كما قال تعالى : ﴿ وَكَانَ الْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴾ . وقال المرزئي : الرحمن لجميع خلقه في الأمطار ونعم الحواس والنعم العامة . والرحيم بالمؤمنين في الهداية لهم ، والالطف بهم . وقال ابن المبارك : الرحمن إذا مثل أعطى ، والرحيم إذا لم يستل غضب . وروى ابن ماجه في سننه والترمذي في جامعه

(١) هو علس بن قنبل كما في لسان العرب مادة رسم .

(٢) هو عبد الملك بن أبي سليمان المرزئي كما في الخلاصة .

عن أبي صالح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من لم يسأل الله بغضب عليه»
لفظ الترمذي. وقال ابن ماجه: «من لم يدع الله غضب عليه» وقال: سألت أبا زرعة عن
أبي صالح هذا فقال: هو الذي يقال له: الفارسي وهو خوزي^(١) ولا أحرف اسمه. وقد أخذ
بعض الشعراء هذا المعنى فقال:

الله يغضب إن تركت سؤاله • وبني آدم حين يسئل يغضب

وقال ابن عباس: هما اسمان رقيقان، أحدهما أرق من الآخر، وأكثر رحمة.

قال الخطابي: وهذا مشكل، لأن الرقة لا تدخل لها في شيء من صفات الله تعالى. وقال
الحسين بن الفضل البجلي: هذا وهم من الراوي، لأن الرقة ليست من صفات الله تعالى في شيء،
وإنما هما اسمان رقيقان أحدهما أرق من الآخر، والرق من صفات الله عز وجل قال النبي صلى
الله عليه وسلم، «إن الله رفيق يحب الرق ويعطي على الرق ما لا يعطى على الضغ».

الخامسة والعشرون - أكثر العلماء على أن الرحمن غنص بالله عز وجل، لا يجوز أن يسمى به
غيره، إلا أنه قال: (قُلْ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ) فعادل الاسم الذي لا يشركه فيه غيره.
وقال: (وَأَسْأَلُ مَنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَنْجِلُنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آفَةً يُبْعَثُونَ) فأخبر
أن الرحمن هو المستحق للعبادة جل وعز. وقد تجامر مسيلة الكتاب لعنه الله، قسّمى برحمان الإيمان
وما قرع سماعه، حتى ألزمه الله تعالى نعت الكتاب لذلك، وإن كان كل كافر كاذبا، فقد صار
هَذَا الوصف لمسيلة علما يعرف به، ألزمه الله إياه. وقد قيل في اسمه الرحمن: إنه اسم الله الأعظم،
ذكره ابن العربي.

السادسة والعشرون - الرحيم صفة مطلقة للخلقين، ولما في الرحمن من العموم، فقام في كلامنا
على الرحيم، مع موافقة التنزيل، قاله المهدوي. وقيل: إن معنى الرحيم أي بالرحيم وصلتم إلى الله
وإلى الرحمن، فالرحيم نعت محمد صلى الله عليه وسلم، وقد نعت تعالى بذلك فقال: (رَبُّوهُ رَحِيمٌ)
فكان المعنى أن يقول: بسم الله الرحمن والرحيم، أي وبمحمد صلى الله عليه وسلم وصلتم إلى، أي
باتباعه وبما جاء به وصلتم إلى ثوابي وكرامتي والنظر إلى وجهي والله أعلم.

(د) نسبة إلى عزّز بن بلاد بن قاصم البصرة الذي بعض النسخ خوى بالإمامة نسبة إلى حمزة بن عبد المطلب.

السابعة والعشرون - روى عن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه أنه قال في قوله : بسم الله شفاء من كل داء، وعون على كل دواء، وأما الرحمن، فهو عون لكل من آمن به، وهو اسم لم يسم به غيره، وأما الرحيم، فهو لمن تاب وآمن وعمل صالحا .

وقد فسره بعضهم على الحروف ؛ فروى عن عثمان ابن عفان : أنه حال رسول الله صلى الله عليه وسلم عن تفسير بسم الله الرحمن الرحيم، فقال : أما الباء فبلاء الله وروحه ونصره وبهاؤه، وأما السين فسنة الله . وأما الميم فملك الله ، وأما الله ، فلا إله غيره وأما الرحمن ، فالعالم طيف على البر والفاجر من خلقه ، وأما الرحيم فالرفيق بالمؤمنين خاصة . وروى عن كعب الأحبار أنه قال : الباء بهاؤه ، والسين سنائه فلا شيء أعلى منه ، والميم ملكه ، وهو على كل شيء قدير ، فلا شيء يعاذه . وقد قيل : إن كل حرف هو افتتاح اسم من أسمائه ، فالباء مفتاح اسمه بصير، والسين مفتاح اسمه سميع ، والميم مفتاح اسمه مليك ، والألف مفتاح اسمه لله ، واللام مفتاح اسمه لطيف ، والماء مفتاح اسمه هادي ، والراء مفتاح اسمه رازق ، والحاء مفتاح اسمه حلیم ، والتون مفتاح اسمه نور ، ومعنى هذا كله دعاء الله تعالى عند افتتاح كل شيء .

الثامنة والعشرون - واختلف في وصل الرحيم بالحمد لله، فروى عن أم سلمة عن النبي صلى الله عليه وسلم، الرحيم بتسكين الميم ويقف عليها، ويتدنى بالثقف مقطوعة، وقرأ به قوم من الكوفيين، وقرأ جمهور الناس الرحيم الحمد، يرب الرحيم بالخفض ويوصل الألف من الحمد . وحكى الكسائي عن بعض العرب أنها تقرأ الرحيم الحمد ، بفتح الميم وصلة الألف كأنها مكنت الميم وقطعت الألف ثم أقيمت حركتها على الميم وحذفت . قال ابن عطية : ولم ترو هذه قراءة عن أحد فيما علمت . وهذا نظر يحيى بن زياد في قوله تعالى ألم الله . ١

تفسير سورة الفاتحة

بحول الله وكرمه ، وفيها أربعة أبواب

الباب الأول

في فضائلها وأسمائها وفيه سبع مسائل

الأولى - روى الترمذي عن أبي بن كعب قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما أنزل الله في التوراة ولا في الإنجيل مثل أم القرآن ، وهي السج المثنى ، وهي مقسومة بيني وبين عبيدي ولبيدي ما سأل " أخرجه مالك عن العلاء بن عبد الرحمن بن يعقوب : أن أبا سعيد مولى [ابن] طاهر بن كرز أخيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نادى أبي بن كعب وهو يصل ، فذكر الحديث . قال ابن عبد البر : أبو سعيد لا يوقف له على اسم وهو معدود في أهل المدينة ، روايته عن أبي هريرة وصحبه هذا مرسل ، وقد روى هذا الحديث عن أبي سعيد بن الملق رجل من الصحابة لا يوقف على اسمه أيضاً ، رواه عنه حفص بن غاصم ، وحيد بن حنين .

قلت : كما قال في التمهيد : لا يوقفه على اسم . وذكر في كتاب الصحابة الاختلاف في اسمه . والحديث أخرجه البخاري عن أبي سعيد بن الملق قال : كنت أصلي في المسجد فنادى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم أجبه ، قلت : يا رسول الله إني صككت أصلي ، فقال : ألم يقل الله : (اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ) ثم قال : " إني لأعظم سورة هي أعظم السور في القرآن قبل أن تخرج من المسجد " ثم أخذ بيدي فلما أراد أن يخرج قلت له : ألم تقل : لأعظم سورة هي أعظم سورة في القرآن ، قال : " الحمد لله رب العالمين ، هي السج المثنى والقرآن العظيم الذي أوتيته " . قال ابن عبد البر وغيره أبو سعيد بن الملق من جلة الأنصار ، وسادت الأنصار ، فزود به البخاري ، واسمه رافع ويقال : الحارث بن نفع بن الملق ، ويقال : أوس بن الملق ، ويقال : أبو سعيد بن أوس بن الملق ، توفي سنة أربع وسبعين وهو ابن أربع وستين [سنة] ، وهو أول من صلى إلى القبلة

(١) لعل هنا سقط بيته ما رواه مسلم عن أبي هريرة ، يقول الله تعالى فاستجلبوا (أي الفاتحة) بيني وبين عبيدي .

(٢) قال في الإمامة وهو خطأ ، فيستبان أن تكون نصحه النبي صلى الله عليه وسلم وهو يقرأ الحديث ، أي ذلك .

كتاب الشعب

تفسير القرطبي

الجامع لأحكام القرآن
لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي

تخبركم من علم القرآن وفوائده
حديث شريف

٢

إذا كان « القرطبي » سيجلد في مجلد واحد فتتزع هذه الورقة

حين حُوت . وسأى . وقد أسند حديث أبي يزيد بن زريع قال : حدثنا روح بن القاسم عن
العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبي هريرة قال : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم على أبي
وهو يصل ، فذكر الحديث بمعناه .

وذكر ابن الأثير في كتاب الرد له : حدثني أبي حدثني أبو عبيد الله الوراق حدثنا أبو داود ،
حدثنا شيان عن منصور عن مجاهد قال : إن إبليس لعنه الله رقا أربع رقات ، حين لن ، وحين
أهبط من الجنة ، وحين بعث محمد صلى الله عليه وسلم ، وحين نزلت فاتحة الكتاب ، وأُنزلت بالمدينة .

الثانية — اختلف العلماء في تفضيل بعض السور والآي على بعض ، وتفضيل بعض أسماء الله تعالى
الحسنى على بعض . فقال قوم : لا فضل لبعض على بعض ، لأن الكلام كلام الله ، وكذلك أسماءه
لامفاضلة بينها ، ذهب إلى هذا الشيخ أبو الحسن الأشعري ، والقاضي أبو بكر بن الطيب ، وأبو حاتم
محمد بن حبان البستي ، وجماعة من الفقهاء . وروى معناه عن مالك قال يحيى بن يحيى : تفضيلي
بعض القرآن على بعض خطأ ، وكذلك كره مالك أن تباد سورة أو تزدد دون غيرها . وقال عن مالك
في قول الله تعالى : (نَاتٍ بِغَيْرِ مِثْلٍ أَوْ مِثْلًا) . قال : محكمة مكان منسوخة . وروى ابن كثرة مثل
ذلك كله عن مالك . واحتج هؤلاء بأن قالوا : إن الأفضل يشعر بنقص المفضل ، والثانية
في الكل واحدة ، وهي كلام الله ، وكلام الله تعالى لا نقص فيه . قال البستي : ومعنى هذه اللفظة
(ما في التوراة ولا في الإنجيل مثل أم القرآن) ، أن الله تعالى لا يعطى لقارئ التوراة والإنجيل مثل
ما يعطى لقارئ أم القرآن ، إذ الله فضله فضل هذه الأمة على غيرها من الأمم ، وأعطاهما من الفضل
على قراءة القرآن كلامه ، أكثر مما أعطى غيرها من الفضل على قراءة كلامه ، وهو فضل منه لهذه
الأمة . قال : ومعنى قوله : أعظم سورة ، أراد به في الأجر لا أن بعض القرآن أفضل من بعض .
وقال قوم بالتفضيل ، وأن ما تضمنته قوله تعالى : (وَإِلَهُكُمْ إِلَهُ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ)
وآية الكرسي ، وآخر سورة الحشر ، وسورة الإخلاص من الدلالات على وحدانيته وصفاته ليس موجودا
مثلا في (تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَئِبٍ) وما كان مثلهما .

والتفضيل إنما هو بالمعاني الحسية وكثرتها ، لا من حيث الصفة ، وهذا هو الحق . ومن قال
بالتفضيل احتاق بن راهويه ، وغيره من العلماء والمتكلمين ، وهو اختيار القاضي أبي بكر بن العربي ، وابن

الحصار لحديث أبي سعيد بن الملق وحديث أبي بن كعب أنه قال : قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : **"يا أبا أيّ آية ملك في كتاب الله أعظم"** قال : فقلت : **(الله لا إله إلا هو الحى القيوم)** قال : فضرب في صدري وقال : **"لهتك العلم يا أبا المنذر"** أخرجه البخارى ومسلم .

قال ابن الحصار : عجبي من يذكر الخلاف مع هذه النصوص .

وقال ابن العربي : قوله : **"ما أنزل الله في التوراة ولا في الإنجيل ولا في القرآن مثلاً"** وسكت من سائر الكتب ، كالصحف المترلة والزبور وغيرها ، لأن هذه المذكورة أفضلها ، وإذا كان الشيء أفضل الأفضل ، صار أفضل الكل ، كقوله زيد أفضل العلماء ، فهو أفضل الناس .

وفي الفاتحة من الصفات ما ليس لغيرها حتى قيل : إن جميع القرآن فيها . وهى خمس وعشرون كلمة تضمنت جميع علوم القرآن . ومن شرفها أن الله سبحانه قسمها بينه وبين عبده ، ولا تصح القرية إلا بها ، ولا يلحق عمل بشواها ، وبهذا المعنى صارت أم القرآن العظيم ، كما صارت **(قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ)** تعدل ثلث القرآن ، إذ القرآن توحيد وأحكام ، ووعظ ، و**(قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ)** فيها التوحيد كله ، وبهذا المعنى وقع البيان في قوله عليه السلام لأبى : **"أى آية في القرآن أعظم"** قال : **(الله لا إله إلا هو الحى القيوم)** . وإنما كانت أعظم آية لأنها توحيد كلها كما صارت قوله : **"أفضل ما قلته أنا والنبيون من قبل لا إله إلا الله وحده لا شريك له"** أفضل الذكر ، لأنها كلمات حوت جميع العلوم في التوحيد ، والفاتحة تضمنت التوحيد والعبادة والوعظ والتذكير ولا يستبعد ذلك في قدرة الله تعالى .

الثالثة - روى على بن أبى طالب رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : **"فاتحة الكتاب ، وآية الكرسي ، وشهادة أنه لا إله إلا هو ، وقُلِ اللَّهُمَّ مَالِكُ الْمُلْكِ ، هذه الآيات مطلقات بالعرش ، ليس بينهن وبين الله حجاب"** . أسنده أبو عمرو الباقى في كتاب (البيان) له .

الرابعة - في أسمائها وهى اثنا عشر اسماً :

(الأول) الصلاة ، قال الله تعالى : **"قسمت الصلاة بيني وبين عبدى نصفين"** الحديث وقد تقدم .

(الثاني) الحمد، لأن فيها ذكر الحمد كما يقال : سورة الأعراف، والأعمال، والتوبة، ونحوها.

(الثالث) فاتحة الكتاب، من غير خلاف بين العلماء، وسميت بذلك لأنه مفتتح قراءة القرآن بها لفظاً، ومفتتح بها الكتابة في المصحف خطأ، ومفتتح بها الصلوات .

(الرابع) أم الكتاب ، وفي هذا الاسم خلاف، يجوز الجمهور، وكرهه أنس، والحسن، وابن سيرين، قال الجسن : أم الكتاب الحلال والحرام، قال الله تعالى : ﴿ آيَاتُ مُحْكَمَاتٌ مِنْ أُمِّ الْكِتَابِ وَأَنْتُمْ مُنْشَاهَاتٌ ﴾ . وقال أنس، وابن سيرين : أم الكتاب اسم اللوح المحفوظ . قال الله تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ ﴾ .

(الخامس) أم القرآن، واختلف فيه أيضاً، يجوز الجمهور، وكرهه أنس، وابن سيرين، والأحاديث الثابتة ترد هذين القولين . روى الترمذي عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الحمد لله أم القرآن، وأم الكتاب، والسبع المثاني » قال : هذا حديث حسن صحيح . وفي البخاري قال : وسميت أم الكتاب لأنه يتلأ بجكاتها في المصاحف، ويسأ بجراتها في الصلاة . وقال يحيى ابن يعمر : أم القسرى مكة . وأم خراسان : مَرُوء . وأم القرآن : سورة الحمد . وقيل : سميت أم القرآن لأنها أوله ومتضمنة لجميع علومه، وبه سميت مكة أم القرى لأنها أول الأرض ومنها دجيت، ومنه سميت الأم أمًا لأنها أصل النسل، والأرض أمًا، في قول أمية بن أبي الصلت :

فالأرض مقلنا وكانت أمنا • فيها مقابرنا وفيها نولد

ويقال راية الحرب : أم، لتقدمها واتباع الجيش لها، وأصل أم أمهة، ولذلك يجمع على أمهات قال الله تعالى : ﴿ وَأَمَّهَاتِكُمْ ﴾ . ويقال : أمات بغيرهاء . قال :

• فوجت الظلام بأماتكا •

وقيل : إن أمهات في الناس، وأمات في البهائم، حكاه ابن فارس في المعجم .

(السادس) المثاني، سميت بذلك لأنها تلى في كل ركعة . وقيل : سميت بذلك لأنها استتبت لهذه الأمة فلم تنزل على أحد قبلها فخر لها .

(السابع) القرآن العظيم، سميت بذلك لتضمنها جميع علوم القرآن، وذلك أنها تشتمل على الثناء على الله عز وجل بأوصاف كماله وجلاله، وعلى الأمر بالعبادات والإخلاص فيها، والاعتراف بالعبز

عن القيام بشيء منها إلا بإعانتته تعالى ، وعلى الابتغال اليه ، في الهداية الى الصراط المستقيم ، وكفاية لأحوال الناس ، وعلى بيان عاقبة الملاحدين .

(الثامن) الشفاء ، روى الدارمي عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « فاتحة الكتاب شفاء من كل سم » .

(التاسع) الرقية ، ثبت ذلك من حديث أبي سعيد الخدري وفيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال للرجل الذي رقى سيد الحنظلي : « ما أدراك أنها رقية » فقال : يا رسول الله شيء ألقى في روعي . الحديث نرحمه الأئمة وسيأتي بتمامه .

(العاشر) الأساس ، شكا رجل الى الشعبي وجع الخاصرة ، فقال : عليك بأساس القرآن فاتحة الكتاب . سمعت ابن عباس يقول لكل شيء أساس ، وأساس الدنيا مكة ، لأنها منها دحيت ، وأساس السموات غريب ، وهي السماء السابعة ، وأساس الأرض عجيب ، وهي الأرض السابعة السفلى ، وأساس الجنان جنة عدن ، وهي سره الجنان عليها أسست الجنة ، وأساس النار جهنم ، وهي الدركة السابعة السفلى عليها أسست الدركات ، وأساس الخلق آدم ، وأساس الأنبياء نوح ، وأساس بني إسرائيل يعقوب ، وأساس الكتب القرآن ، وأساس القرآن الفاتحة ، وأساس الفاتحة بسم الله الرحمن الرحيم ، فإذا اعتللت أو اشتكت فعليك بالفاتحة تشفى .

(الحادي عشر) الواو قاله سفيان بن عيينة : لأنها لا تنصف ولا تحتمل الاختزال ، ولو قرأ من سائر السور نصفها في ركعة ، ونصفها الآخر في ركعة ، لأجزأ ؛ ولو نصفت الفاتحة في ركعتين لم يجز . (الثاني عشر) الكافية ، قال يحيى بن أبي كثير : لأنها تكفي عن سواها ولا يكفي سواها عنها . يدل عليه ما روى محمد بن خالد الاسكندراني قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : « تمام القرآن عوض من غيرها وليس ضررها منها عوضا » .

الخامسة - قال المهلب : إن موضع الرقية منها إنما هو ﴿ إِيَّاكَ تَعْبُدُ وَإِيَّاكَ تَسْتَعِينُ ﴾ وقيل : السورة كلها رقية ، لقوله عليه السلام للرجل لما أخبره : « وما أدراك أنها رقية » ولم يقل : إن فيها رقية . فدل هذا على أن السورة بأكملها رقية ، لأنها فاتحة الكتاب ومبدؤه ، ومتضمنة لجميع علومه ، كما تفتهم والله أعلم .

السابعة - ليس في تسميتها بالمثنى وأم الكتاب، ما يمنع من تسمية ضمها بذلك، قال الله عز وجل : (كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانٍ) فاطلق على كتابه : مثنى، لأن الأخبار تنى فيه . وقد سميت السبع الطوال أيضا مثنى، لأن الفرائض والقصاص تنى فيها . قال ابن عباس : أوتي رسول الله صلى الله عليه وسلم سبعا من المثنى . قال : السبع الطوال . ذكره النسائي، وهي من البقرة إلى الأعراف ست واختلفوا في السابعة، قتيل : يونس، وقيل الأهل والتوبة، وهو قول مجاهد وسعيد بن جبير . وقال أعشى همدان :

فلجوا المسجد وادعوا ربكم . وادرسوا هذى المثنى والطول

وسياتى لهذا مزيد بيان في سورة الحجر، إن شاء الله تعالى .

السابعة - المثنى جمع مثنى، وهي التي جاءت بعد الأولى، والطول جمع أطول . وقد سميت الأفعال من المثنى لأنها تتلو الطول في القدر . وقيل : هي التي تزد آياتها على المفصل وتتقص عن المثني . والمثنون : هي السور التي تزد كل واحدة منها على مائة آية .

الباب الثاني

في نزولها وأحكامها، وفيه عشرون مسألة

الأولى - أجمعت الأمة على أن فاتحة الكتاب سبع آيات؛ إلا ما روى عن حسين الجعفي : أنها ست، وهذا شاذ. وإلا ما روى عن عمرو بن عبيد . أنه جعل (إياك نعبد) آية، وهي على هذا ثمان آيات وهذا شاذ . وقوله تعالى : (ولقد آتيناك سبعا من المثاني) وقوله : " قسمت الصلاة " الحديث يرد هذين القولين . وأجمعت الأمة أيضا على أنها من القرآن . فإن قيل : لو كانت قرآنا لأكتبها عبد الله بن مسعود في مصحفه، ولما لم يكتبها دل على أنها ليست من القرآن، كالمؤذنين عنده . الجواب ما ذكره أبو بكر الأثيري قال : حدثنا الحسن بن الحباب حدثنا سليمان بن الأشعث حدثنا ابن أبي قدامة حدثنا جرير عن الأعمش قال : أظنه عن إبراهيم قال : قيل لعبد الله بن مسعود : لم لم تكتب فاتحة الكتاب في مصحفك؟ قال : لو كتبتها لكتبتها مع كل سورة . قال أبو بكر : يعني أن كل ركعة سبيلها أن تفتح بأم القرآن قبل السورة المثقاة بعدها، فقال : اختصرت بإسقاطها، ووثقت بحفظ المسلمين لها، ولم أكتبها في موضع فيلزم أن أكتبها مع كل سورة، إذ كانت تتقدمها في الصلاة .

الثانية - **لَحِقُوا بِالْأَيِّ مَكَّةَ أَمْ مَدِينَةَ ؟** . فقال ابن عباس ، وقتادة ، وأبو العالية الراسي - واسمه رفع - وغيرهم : هي مكية . وقال أبو هريرة وبجاهد وعطاء بن يسار والزهري وغيرهم : هي مدنية . ويقال : نزل نصفها بمكة ، ونصفها بالمدينة . حكاه أبو الليث نصر بن محمد بن إبراهيم السمرقندي في تفسيره . والأول أصح لقوله تعالى : وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَتَانِ وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ واجبر مكية بإجماع . ولا خلاف أن فرض الصلاة كان بمكة . وما حفظ أنه كان في الإسلام قط صلاة بغير الحمد لله رب العالمين ، يدل على هذا قوله عليه السلام : " لا صلاة إلا بفاتحة الكتاب " وهذا خبر من الحكم ، لا عن الابتداء والله أعلم .

وقد ذكر القاضي ابن الطيب اختلاف الناس في أول ما نزل من القرآن ، قيل : المذثر ، وقيل : اقرأ ، وقيل : الفاتحة . وذكر البيهقي في دلائل النبوة : عن أبي موسرة عمرو بن شرحبيل أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لخديجة : " إني إذا خلوت وحدي سمعت نداء ، وقد والله خشيت أن يكون هذا أمراً " قالت : معاذ الله ، ما كان الله ليفعل بك ، فوالله إنك لتؤذي الأمانة ، وتصل الرحم ، وتصدق الحديث . فلما دخل أبو بكر ، وليس رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم ، ذكرت خديجة حديثه له ، قالت : يا صديق ، اذهب مع عبد الله إلى ورقة بن نوفل . فلما دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذ أبو بكر بيده ، فقال : اطلق بنا إلى ورقة ، فقال : ومن أخبرك . قال خديجة ، فانطلقا إليه ، فقضا عليه ؛ فقال : " إذا خلوت وحدي سمعت نداء خلفي يا عبد الله محمد ، فانطلق هارباً في الأرض " فقال : لا تفعل ، إنا أهلك فأثبت حتى تسمع ما يقول ، ثم أتني فأخبرني . فلما خلا ، ناداه : يا عبد الله بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين حتى يبلغ ولا الضالين قل : لا إله إلا الله . فأتى ورقة ، فذكر ذلك له ، فقال له ورقة : أبشر ثم أبشر ، فإنا أشهد أنك الذي بشر به عيسى ابن مريم ، وأنت على مثل تاموس موسى ، وأنت نبي مرسل ، وأنت سوف تقوم بالجهاد بعد يومك هذا ، وإن يدركني ذلك لأجاهدك منك . فلما توفي ورقة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لقد رأيت القس في الجنة عليه ثياب الحرير لأنه آمن بي وصدقني " يعني ورقة . قال البيهقي رضي الله عنه : هذا منقطع يعني هذا الحديث ، فإن كان محفوظاً فيحتل أن يكون خبراً عن نزولها بعد ما نزل عليه (اقرأ باسم ربك) و (يا أيها المذثر) .

الثالثة - قال ابن عطية : ظن بعض العلماء أن جبريل عليه السلام لم يزل يسورة الحمد ؛ لما رواه مسلم عن ابن عباس قال : بينما جبريل قاعد عند النبي صلى الله عليه وسلم سمع نقيضاً من فوقه ، فرفع رأسه فقال : هذا باب من السماء فتح اليوم لم يفتح قط إلا اليوم ، فنزل منه ملك ، فقال : هذا ملك نزل إلى الأرض لم يزل إلا اليوم ، وسلم وقال : أبشر بنورين أوتيتهما لم يؤتهما نبي قبلك : فاتحة الكتاب ، وخواتيم سورة البقرة ، لن تقرأ بحرف منها إلا أوتيته . قال ابن عطية : وليس كما ظن ، فإن هذا الحديث يدل على أن جبريل عليه السلام تقدم الملك إلى النبي صلى الله عليه وسلم مُعَلِّماً به ، وبما يزل معه ، وعلى هذا يكون جبريل شارك في نزولها والله أعلم .

قلت : الظاهر من الحديث يدل على أن جبريل عليه السلام لم يعلم النبي صلى الله عليه وسلم بشيء من ذلك . وقد بينا أن نزولها كان بمكة ، نزل بها جبريل عليه السلام ، لقوله تعالى : ﴿ نزل به الروح الأمين ﴾ وهذا يقتضي جميع القرآن ، فيكون جبريل عليه السلام نزل بتلاوتها بمكة ، ونزل الملك بشواها بالمدينة . والله أعلم . وقد قيل : إنها مكة مدنية ، نزل بها جبريل مرتين ، حكاه التلمبي . وما ذكرناه أولى ، فإنه جمع بين القرآن والسنة ، والله الحمد والمنة .

الرابعة - قد تقدم أن البسملة ليست بآية منها على القول الصحيح ، وإذا ثبت ذلك فحكم المصل إذا كبر أن يصله بالفاتحة ولا يسكت ، ولا يذكر توجيهاً ، ولا تسبيحاً ، لحديث عائشة ، وأنس المتقدمين وغيرهما ، وقد جاءت أحاديث بالتوجيه ، والتسبيح ، والسكوت ، قال بها جماعة من العلماء ، فروى عن عمر ابن الخطاب ، وعبد الله بن مسعود ، رضي الله عنهما : أنهما كانا يقولان إذا اقتحما الصلاة : سبحانك اللهم وبحمدك ، تبارك اسمك ، وتعالى جلتك . ولا إله غيرك ؛ وبه قال مفيان ، وأحمد ، وإسحاق وأصحاب الرأي . وكان الشافعي يقول بالذي روى عن علي عن النبي صلى الله عليه وسلم : أنه كان إذا افتتح الصلاة كبر ثم قال : ﴿ وَجْهْتُ وَجْهِيَ ﴾ الحديث ، ذكره مسلم ، وسيأتي بتمامه في آخر سورة الأنعام ، وهناك يأتي القول في هذه المسألة مستوفى . إن شاء الله .

قال ابن المنذر : ثبت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا كبر في الصلاة سكت حنية قبل أن يقرأ يقول : ﴿ اللهم باعد بيني وبين خطاياي كما باعدت بين المشرق والمغرب ، اللهم قني من

خطاي كما ينق الثوب الأبيض من الدنس، اللهم اغسلني من خطاي بالماء والثلج والبرد“
 واستعمل ذلك أبو هريرة . وقال أبو سلمة بن عبد الرحمن : للإمام سكتان فاغتنموا فيهما القراءة .
 وكان الأوزاعي، وسعيد بن عبد العزيز، وأحمد بن حنبل ، يملون إلى حديث النبي صلى الله عليه
 وسلم في هذا الباب .

الخامسة - واختلف العلماء في وجوب قراءة الفاتحة في الصلاة، فقال مالك وأصحابه : هي
 متعينة للإمام والمؤذن في كل ركعة . قال ابن خواز منذاذ البصري المالكي : لم يختلف قول مالك
 أنه من نسيها في صلاة ركعة من صلاة ركعتين أن صلاته تبطل ولا تجزئ . واختلف قوله ، فمن
 تركها ناسيا في ركعة من صلاة رباعية أو ثلاثية ، فقال مرة : يعيد الصلاة، وقال مرة أخرى :
 يسجد سجدة السهو، وهي رواية ابن عبد الحكم، وغيره، عن مالك . قال ابن خواز منذاذ وقد قيل :
 إنه يعيد تلك الركعة ويسجد للسهو بعد السلام . قال ابن عبد البر : الصحيح من القول إلغاء تلك
 الركعة ويأتي بركعة بدلا منها، كمن أسقط سجدة سهوا . وهو اختيار ابن القاسم . وقال الحسن البصري
 وأكثر أهل البصرة، والمغيرة بن عبد الرحمن الخزومي المدني : إذا قرأ بأم القرآن مرة واحدة في الصلاة
 أجزأه ولم يكن عليه إعادة؛ لأنها صلاة قد قرأ فيها بأم القرآن ، وهي تامة لقوله عليه السلام :
 “ لا صلاة لمن لم يقرأ بأم القرآن ” وهذا قد قرأ بها .

قلت : ويحتمل لا صلاة لمن لم يقرأ بها في كل ركعة، وهو الصحيح، على ما يأتي، ويحتمل
 لا صلاة لمن لم يقرأ بها في أكثر عدد الركعات، وهذا هو سبب الخلاف والله أعلم .

وقال أبو حنيفة، والثوري، والأوزاعي : إن تركها عمدا في صلاته كلها وقرأ غيرها أجزأه،
 على اختلاف عن الأوزاعي في ذلك . وقال أبو يوسف، ومحمد بن الحسن : أقله ثلاث آيات
 أو آية طويلة كآية الدين . وعن محمد بن الحسن أيضا : قال : أسوغ الاجتهاد في مقدار آية
 ومقدار كلمة مفهومة بنحو : (الحمد لله) . ولا أسوغه في حرف لا يكون كلاما .

وقال الطبري : يقرأ المصلي بأم القرآن في كل ركعة، فإن لم يقرأ بها لم يجزه إلا مثلها من القرآن
 في صد آياتها، وحروفها . قال ابن عبد البر : وهذا لا معنى له ؛ لأن التعيين لها والنص عليها قد خصها

بهذا الحكم دون غيرها ، ومحال أن يحىء بالبدل منها من وجبت عليه تركها وهو قادر عليها ، وإنما عليه أن يحىء بها ويمود إليها ، كسائر المفروضات المتعينات في العبادات .

السادسة — وأما المأموم فإن أدرك الإمام راكعاً فالإمام يحل عنه القراءة ؛ لإجماعهم على أنه إذا أدركه راكعاً أنه يكبر ويركع ولا يقرأ شيئاً ، وإن أدركه قائماً فإنه يقرأ وهي المسئلة

السابعة — ولا ينبغي لأحد أن يدع القراءة خلف إمامه في صلاة السر ؛ فإن فعل فقد أساء ولا شيء عليه عند مالك ، وأصحابه . وأما إذا جهر الإمام وهي المسئلة

الثامنة — فلا قراءة بفاتحة الكتاب ولا غيرها في المشهور من مذهب مالك ، لقول الله تعالى : **(وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا)** ، وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : "مالي أنزع القرآن" وقوله في الإمام : "إذا قرأ فاتحته" وقوله : "من كان له إمام فقراءة الإمام له قراءة" .

وقال الشافعي فيها حكى عنه البويطي ، وأحمد بن حنبل : لا تجزئ أحدا صلاة حتى يقرأ بفاتحة الكتاب في كل ركعة ، إماماً كان أو مأموماً ، جهر إمامه أو أسر . وكان الشافعي بالعراق يقول في المأموم : يقرأ إذا أسر ولا يقرأ إذا جهر ؛ كمشهور مذهب مالك . وقال بمصر نبي يجه فيه الإمام بالقراءة قولان : أحدهما أن يقرأ ، والآخر يميزه ألا يقرأ ويكتفى بقراءة الإمام . حكاه ابن المنذر . وقال ابن وهب ، وأشب ، وابن عبد الحكم ، وابن حبيب ، والكوفيون : لا يقرأ المأموم شيئاً ، جهر إمامه أو أسر ؛ لقوله عليه السلام : "قراءة الإمام له قراءة" وهذا قائم ، ولقول جابر : من صلى ركعة لم يقرأ فيها بآم القرآن فلم يصل ، إلا وراء الإمام .

التاسعة — الصحيح من هذه الأقوال : قول الشافعي ، وأحمد ، ومالك ، في القول الآخر ، وأن الفاتحة متعينة في كل ركعة لكل أحد على العموم لقوله صلى الله عليه وسلم : « لا صلاة لمن لم يقرأ فيها بفاتحة الكتاب » وقوله : « من صلى صلاة لم يقرأ فيها بآم القرآن فهي خداج ثلاثا وقال أبو هريرة : أمرني رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أنادي أنه : " لا صلاة إلا بقراءة فاتحة الكتاب لها زاد " أخرجه أبو داود . كما لا ينوب سجود ركعة ولا ركوعها عن ركعة أخرى ؛ فكذا لا تنوب قراءة ركعة عن غيرها ؛ وبه قال عبد الله بن عون ، وأيوب السخيتاني ، وأبو ثور ، وغيره من أصحاب الشافعي ، وبلاد بن علي . وروى مثله عن الأوزاعي ؛ وبه قال مكحول .

وروى عن عمر بن الخطاب، وعبد الله بن عباس، وأبي هريرة، وأبي بن كعب، وأبي أيوب الأنصاري، وعبد الله بن عمرو بن العاصي، وعبادة بن الصامت، وأبي سعيد الخدري، وعثمان بن أبي العاصي، وخزات بن جبير، أنهم قالوا: لا صلاة إلا بفاتحة الكتاب. وهو قول ابن عمر والمشهور من مذهب الأوزاعي، فهوؤلاء الصحابة بهم القدوة، وفيهم الأسوة، كلهم يوجبون الفاتحة في كل ركعة.

وقد أخرج الإمام أبو عبد الله محمد بن يزيد بن ماجه القزويني في سننه ما يرفع الخلاف ويزيل كل احتمال؛ فقال: حدثنا أبو كريب حدثنا محمد بن فضيل، وحدثنا سويد بن سعيد، حدثنا علي بن مسهر جميعا عن أبي سفيان السعدي عن أبي نضرة عن أبي سعيد الخدري قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « لا صلاة لمن لم يقرأ في كل ركعة الحمد وسورة في فريضة أو غيرها ». وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة أنه عليه السلام قال للذي علمه الصلاة: « وأفضل ذلك في صلاتك كلها » وسياق. ومن الحجة في ذلك أيضا: ما رواه أبو داود عن نافع بن محمود بن الربيع الأنصاري قال: أبطل عبادة بن الصامت عن صلاة الصبح؛ فأقام أبو نعيم المؤذن الصلاة فصلى أبو نعيم بالناس، وأقبل عبادة بن الصامت وأنا معه حتى صغفنا خلف أبي نعيم؛ وأبو نعيم يمهر بالقراءة؛ فجعل عبادة يقرأ بآم القرآن؛ فلما انصرف قلت لعبادة: سمعتك تقرأ بآم القرآن وأبو نعيم يمهر؛ قال: أجل! صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بعض الصلوات التي يمهر فيها بالقراءة فالتبست عليه؛ فلما انصرف أقبل علينا بوجهه فقال: « وهل تهرعون إذا جهرت بالقراءة » فقال بعض: إنا نصنع ذلك، قال: « فلا وأنا أقول مالي ينازعني القرآن فلا تقرأوا بشيء من القرآن إذا جهرت إلا بآم القرآن ». وهذا نص صريح في المأموم. وأخرجه أبو عيسى الترمذي من حديث محمد بن إسحاق بمناه، وقال حديث حسن. والعمل على هذا الحديث في القراءة خلف الإمام عند أكثر أهل العلم من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم والتابعين؛ وهو قول مالك بن أنس، وابن المبارك، والشافعي، وأحمد وإسحاق، يرون القراءة خلف الإمام. وأخرجه أيضا الدارقطني وقال: هذا إسناده حسن، ورجاله كلهم ثقات؛ وذكر: أن محمود بن الربيع كان يسكن الميلاء، وأن أبا نعيم أول من أذن في بيت المقدس.

وقال أبو محمد عبد الحلي: ونافع بن محمود لم يذكره البخاري في تاريخه ولا ابن أبي حاتم ولا أخرج له

البخارى ومسلم شيئا . وقال فيه أبو عمر : مجهول . وذكر البارقطنى عن يزيد بن شريك قال : سألت عمر عن القراءة خلف الإمام . فأمرنى أن أقرأ ، قلت : وإن كنت أنت ؟ قال : وإن كنت أنا ؟ قلت : وإن جهوت ؟ قال : وإن جهوت . قال البارقطنى : هذا إسناد صحيح . وروى عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "الإمام ضامن فما صنع فاصنعوا" قال أبو حاتم : هذا يصح لمن قال بالقراءة خلف الإمام ، وبهذا أتى أبو هريرة القارى أن يقرأ بها في نفسه حين قال له : إني أحيانا أكون وراء الإمام ، ثم استدل بقوله تعالى : "فسمت الصلاة بيني وبين عبدى تصفيين فتصفى لى وتصفى لعبدى ولعبدى ما سأل" . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "اقرأوا يقول العبد الحمد لله رب العالمين" الحديث .

الماثرة — أما ما استدل به الأولون بقوله عليه السلام : "وإذا قرأ فاتنعتوا" أخرجه مسلم من حديث أبي موسى الأشعرى ، وقال : وفي حديث جرير عن سليمان عن قتادة من الزيادة "وإذا قرأ فاتنعتوا" قال البارقطنى : هذه اللفظة لم يتابع سليمان التيمي فيها عن قتادة ، وخالفه الحفاظ من أصحاب قتادة فلم يذكروها ، منهم شعبة ، وهشام ، وسعيد بن أبي هريرة ، وهمام ، وأبو عوانة ، ومعمرو ، وعدي بن أبي عامرة . قال البارقطنى : فاجمعهم يدل على وهمه . وقد روى عن عبد الله بن حاصر عن قتادة متابعة التيمي ، ولكن ليس هو بالقوى . تركه القطان . وأخرج أيضا هذه الزيادة أبو داود من حديث أبي هريرة وقال هذه الزيادة "إذا قرأ فاتنعتوا" ليست بمحفوظة . وذكر أبو محمد عبد الحق : أن مسلما صحح حديث أبي هريرة ، وقال : هو عندى صحيح .

قلت : وما يدل على صححتها عنده إدخالها في كتابه من حديث أبي موسى وإن كانت مما لم يجهلوا عليها . وقد صححها الإمام أحمد بن حنبل وابن المنذر .

وأما قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا ﴾ فإنه نزل بمكة ، وتحريم الكلام في الصلاة نزل بالمدينة ، كما قال زيد بن أرقم ، فلا حجة فيها ، فإن المقصود كان المشركين ، على ما قال سعيد بن المسيب . وقد روى البارقطنى عن أبي هريرة : أنها نزلت في رفع الصوت خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم في الصلاة . وقال : عبد الله بن حاصر ضعيف . وأما قوله عليه السلام : "مألى أنزع القرآن" فأخرجه مالك عن ابن شهاب عن ابن أكيمة اللبني ، واسمه فيما قال مالك : عمرو (١) أي في الحديث نفسه .

وغيره يقول : عامر ، وقيل : يزيد ، وقيل : عمارة ، وقيل : عباد ، يكنى أبا الوليد توفي سنة إحدى ومائة وهو ابن تسع وسبعين سنة ، لم يرو عنه الزهري إلا هذا الحديث الواحد ، وهو ثقة ، وروى عنه محمد بن عمرو وغيره ، والمعنى في حديثه : لا تجهروا إذا جهرت فإن ذلك تنازع وتجادب وتخالج ، أقرءوا في أنفسكم . بينه حديث عباد ، وفيه الفارق ، وأبى هريرة الراوي للحديثين . فلو فهم المنع جملة من قوله : "مالي أنزع القرآن" لما أتى بخلافه ، وقول الزهري في حديث ابن أكيمة : فأتى الناس عن القراءة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما جهر فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم بالقراءة ، حين سمعوا ذلك من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يريد بالجهر على ما بينا ، وبالله توفيقنا .

وأما قوله صلى الله عليه وسلم : "من كان له إمام فقراءة الإمام له قراءة" فحديث ضعيف أسنده الحسن بن عمارة وهو مقروك ، وأبو حنيفة وهو ضعيف ، كلاهما عن موسى بن أبي عائشة عن عبد الله بن الحداد عن جابر ، أخرجه الدارقطني ، وقال : رواه سفيان الثوري ، وشعبة ، وإسرائيل بن يونس وشريك ، وأبو خالد الدالاني ، وأبو الأحوص ، وسفيان بن عينة ، وجابر بن عبد الحميد ، وغيرهم عن موسى بن أبي عائشة عن عبد الله بن الحداد مرسلا عن النبي صلى الله عليه وسلم وهو العجائب . وأما قول جابر : من صلى ركعة لم يقرأ فيها بأم القرآن فلم يهمل إلا ورواه امام ، فرواه مالك عن وهيب بن كيسان عن جابر قوله ، قال ابن عبد البر ورواه يحيى بن سلام صاحب التفسير عن مالك عن أبي نعم وهيب ابن كيسان عن جابر عن النبي صلى الله عليه وسلم . وصوابه موقوف على جابر ، كما في الموطأ . وفيه من الفقه إبطال الركعة التي لا يقرأ فيها بأم القرآن ، وهو يشهد لصحة ما ذهب إليه ابن القاسم ، ورواه عن مالك في إلغاء الركعة والبناء على غيرها ولا يستد المصل ركعة لا يقرأ فيها بفاتحة الكتاب . وفيه أيضا أن الإمام قراءته لمن خلفه قراءة ، وهذا مذهب جابر وقد خالفه فيه غيره .

الحادية عشرة - قال ابن العربي لما قال صلى الله عليه وسلم : "لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب" واختلف الناس في هذا الأصل هل يحمل هذا النفي على التمام والكمال ، أو على الإجزاء ؟

(١) في نسخة : محمد بن عمر

(٢) قد ترجمه ابن حجر في التلخيص وابن خلكان في الوفيات ولم يذكر أنه ضيفا في الحديث بل كنى ابن سعد في الطبقات

اختلفت الفتوى بحسب اختلاف حال الناظر . ولما كان الأشهر في هذا الأصل والأقوى أن النبي صلى الله عليه وسلم كان الأتقى من رواية مالك أن من لم يقرأ الفاتحة في صلاته بطلت . ثم نظرنا في تكرارها في كل ركعة ، فمن تأول قول النبي صلى الله عليه وسلم : «أفضل ذلك في صلاتك كلها» لزمه أن يعيد القراءة كما يعيد الركوع والسجود . والله أعلم .

الثانية عشرة - ما ذكرناه في هذا الباب من الأحاديث والمعاني في تعيين الفاتحة؛ يرّد على الكوفيين قولهم : في أن الفاتحة لا تسعين ، وأنها وغيرها من آي القرآن سواء ؛ وقد فيها النبي صلى الله عليه وسلم بقوله ، كما ذكرناه ، وهو المتيقن من الله تعالى مراده في قوله : (وَأَقِمُوا الصَّلَاةَ) . وقد روى أبو داود عن أبي سعيد الخدري قال : أمرنا أن نقرأ بفاتحة الكتاب وما تيسر . فدل هذا الحديث على أن قوله عليه السلام للأعرابي : «اقرأ ما تيسر معك من القرآن» أضاف على الفاتحة ، وهو تفسير قوله تعالى : (فَاقْرَأْ مَا تيسر منه) . وقد روى مسلم عن عباد بن الصامت : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «لا صلاة لمن لم يقرأ بأم القرآن» زاد في رواية «نصاعدا» . وقوله عليه السلام : «هي خداج ثلاثا غير تمام» أي غير مجزئة بالأدلة المذكورة . والجداج : النقص والفساد . قال الاخفش : خدجت الفاتحة ، إذا ألفت ولها غير تمام ، وأخذجت إذا قذفت به قبل وقت الولادة وإن كان تام المطلق .

والنظر يوجب في النقصان ألا تجوز معه الصلاة ؛ لأنها صلاة لم تم ؛ ومن خرج من صلاته وهي لم تم فعليه إعادة ما أصره على حسب حكمها . ومن ادعى أنها تجوز مع إقراره بنقصها فعليه الدليل ، ولا سبيل إليه من وجه يثبت ، والله أعلم .

الثالثة عشرة - روى عن مالك أن القراءة لا تجب في شيء من الصلاة ؛ وكذلك كان الشافعي يقول بالعراق فيمن نسيها ، ثم رجع عن هذا بمصر فقال : لا تجزئ صلاة من يحسن فاتحة الكتاب إلا بها ؛ ولا يجزئ أن ينقص حرفا منها ؛ فإن لم يقرأها أو نقص منها حرفا أعاد صلاته ، وإن قرأ بنيتها . وهذا هو الصحيح في المسئلة . وأما ما روى عن عمر رضى الله عنه صلى المغرب فلم يقرأ فيها ، فقد ذكر ذلك له ؛ فقال : كيف كان الركوع والسجود ؟ قالوا : حسن ، قال : لا بأس إن شاء الله . فحديث منكر للفظ مقطوع الإسناد ، لأنه يرويه إبراهيم بن الحارث التيمي عن عمر ؛ وصحة يرويه إبراهيم عن أبي سلمة

ابن عبد الرحمن بن عمر، وكلاهما مقطوع لا حجة فيه؛ وقد ذكره مالك في الموطأ، وهو عند بعض الرواة، وليس عند يحيى وطائفة معه، لأنه رماه مالك من كتابه بأخرة^(١) : وقال ليس عليه العمل لأن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «كل صلاة لا يقرأ فيها بأم القرآن فهي خداج» وقد روى بن عمر أنه أعاد تلك الصلاة، وهو الصحيح عنه . روى يحيى بن يحيى النيسابوري قال : حدثنا أبو معاوية عن الأعمش عن إبراهيم النخعي عن همام بن الحارث : أن عمر نسي القراءة في المغرب فأعاد بهم الصلاة . قال ابن عبد البر : وهذا حديث متصل بشهده همام من عمر روى ذلك من وجوه . وروى أشهب عن مالك قال : سئل مالك عن الذي نسي القراءة : أيسبجك ما قال عمر؟ فقال : أنا أنكر أن يكون عمر فعله - وأنكر الحديث - وقال : يرى الناس عمر يصنع هذا في المغرب ولا يسبحون به ! أرى أن يفيد الصلاة من فعل هذا .

الرابعة عشرة - أجمع العلماء على أن لا صلاة إلا بقراءة، على ما تقدم من أصولهم في ذلك، وأجمعوا على أن لا توقيت في ذلك بعد فاتحة الكتاب، إلا أنهم يستحبون ألا يقرأ مع فاتحة الكتاب إلا سورة واحدة لأنه الأكثر مما جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم . قال مالك : «وسنة القراءة أن يقرأ في الركعتين الأوليين بأم القرآن وسورة» وفي الآخرين بفاتحة الكتاب . وقال الأوزاعي : يقرأ بأم القرآن فإن لم يقرأ بأم القرآن قرأ بغيرها أجزاء، وقال : وإن نسي أن يقرأ في ثلاث ركعات أعاد . وقال الثوري : يقرأ في الركعتين الأوليين بفاتحة الكتاب وسورة ويسبج في الآخرين إن شاء وإن شاء قرأ، وإن لم يقرأ ولم يسبج جازت صلاته، وهو قول أبي حنيفة ومائت الكوفيين . قال ابن المنذر : وقد روي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال : اقرأ في الأوليين، وسبج في الآخرين، وبه قال النخعي . قال سفيان : فإن لم يقرأ في ثلاث ركعات أعاد الصلاة لأنه لا تجزئ قراءة ركعة . قال : وكذلك إن نسي أن يقرأ في ركعة من صلاة الفجر . وقال أبو ثور : لا تجزئ صلاة إلا بقراءة فاتحة الكتاب في كل ركعة، كقول الشافعي المصري، وعليه جماعة أصحاب الشافعي . وكذلك قال ابن خواز منبذ المالكي : قراءة الفاتحة واجبة عندنا في كل ركعة، وهذا هو الصحيح في المسألة . وروى مسلم عن أبي قتادة قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي بنا فيقرأ في الظهر والعصر في الركعتين الأوليين بفاتحة الكتاب وسورتين، ويسمعنا الآية أحياناً، وكان يطول

(١) أي يأنس ويهد من الخبر .

في الركعة الأولى من الظهر ويقصر الثانية ، وكذلك في الصبح . وفي رواية : وقرأ في الركعتين الآخرين بفاتحة الكتاب ؛ وهذا نص صريح وحديث صحيح لما ذهب إليه مالك، ونص في تعيين الفاتحة في كل ركعة ؛ خلافاً لمن أبى ذلك ، والجمعة في السنة ، لا فيما خالفها .

الخامسة عشرة - ذهب الجمهور إلى أن ما زاد على الفاتحة من القراءة ليس بواجب ؛ لما رواه مسلم عن أبي هريرة قال : في كل صلاة قراءة ؛ لما أسمعت النبي صلى الله عليه وسلم أسمعتكم ، وما أخفى منا أخفيتكم ؛ فمن قرأ بأمر القرآن فقد أجزأت عنه ، ومن زاد أفضل . وفي البخاري : « وإن زدت فهو خير » . وقد أبى كثير من أهل العلم ترك السورة لضرورة أو لغير ضرورة ؛ منهم عمران بن حصين ، وأبو سعيد الخدري ، وخوات بن جبير ، وعجاء ، وأبو وائل ، وابن عمر ، وابن عباس ، وغيرهم قالوا : لا صلاة لمن لم يقرأ فيها بفاتحة الكتاب ؛ وفيها من القرآن ؛ فمنهم من حدّ آيتين ، ومنهم من حدّ آية ، ومنهم من لم يحدّ ، وقال : شيء من القرآن معها ؛ وكل هذا موجب لتعلم ما ينس من القرآن على كل حال مع فاتحة الكتاب ؛ لحديث عبادة ، وأبي سعيد الخدري ، وغيرهما . وفي المدونة : وكيع عن الأعمش عن خيشمة قال : حدثني من سمع عمر بن الخطاب يقول : لا تجزئ صلاة من لم يقرأ فيها بفاتحة الكتاب ؛ وفيها . واختلف المذهب في قراءة السورة على ثلاثة أقوال : سنة ، فضيلة ، واجبة .

السادسة عشرة - من تعذر ذلك عليه بعد بلوغ مجوده فلم يقدر على تعلم الفاتحة أو شيء من القرآن ولا تلقى منه شيء ، لزمه أن يذكر الله في موضع القراءة بما أمكنه ، من تكبير أو تهليل أو تحميد أو تسبيح أو تمجيد أو لا حول ولا قوة إلا بالله ، إلخ ؛ وحده ، أو مع إمام فيها أسرّ فيه الإمام ؛ فقد روى أبو داود وغيره عن عبد الله بن أبي أوفى قال : جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : إني لا أستطيع أن أخذ من القرآن شيئاً ، فسلمني ما يجزئني منه ؛ قال : قل سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله " ؛ قال : يا رسول الله ، هذا لله ، فإلى ؟ قال : قل " اللهم ارحمني واطمني واحسنني وأرزقني " .

السابعة عشرة - فإن عجز عن إصابة شيء من هذا اللفظ فلا يدع الصلاة مع الإمام جهده ؛ فالإمام يحل ذلك عنه إن شاء الله ؛ وعليه أبداً أن يجهد نفسه في تعلم فاتحة الكتاب لما زاد ؛ إلى أن يتحول الموت دون ذلك وهو بحال الاجتهاد فيمضيه الله .

الثامنة عشرة - من لم يؤت له لسانه إلى التكلم بالعربية من الأعجميين وغيرهم ترجم له الدعاء العربي بلسان الله يفقه لأقامة صلاته ؛ فإن ذلك يميزه إن شاء الله تعالى .

الثامنة عشرة - لا تجزئ صلاة من قرأ بالفارسية وهو يحسن العربية في قول الجمهور . وقال أبو حنيفة : تجزئه القراءة بالفارسية وإن أحسن العربية ، لأن المقصود إصابة المعنى . قال ابن المنذر : لا يميزه ذلك ؛ لأنه خلاف ما أمر الله به ، وخلاف ما علم النبي صلى الله عليه وسلم ، وخلاف جماعات المسلمين . ولا نعلم أحدا واقفه على ما قال .

الموفية العشرين - من أتى للصلاة كما أمر وهو غير عالم بالقراءة ؛ فطرا عليه العلم بها في أثناء الصلاة ، ويتصور ذلك بأن يكون سمع من قرأها فملقت بحفظه من مجرد السماع فلا يستأنف الصلاة ؛ لأنه أدى ما مضى على حسب ما أمر به ؛ فلا وجه لإبطاله . قاله في كتاب ابن ميمون .

الباب الثالث

في التأمين ، وفيه ثمان مسائل

الأولى - ويسمى لقارئ القرآن أن يقول بعد الفراغ من الفاتحة بعد سكتة على نون (ولا الضالين) تأمين ، يتميز ما هو قرآن بما ليس بقرآن .

الثانية - ثبت في الأمهات من حديث أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "إذا أمن الإمام فأمنوا ، فإنه من وافق تأمينه تأمين الملائكة غفر له ما تقدم من ذنبه" قال علماؤنا رحمة الله عليهم : فترتب المغفرة للذنوب على مقدمات أربع ، تضمنها هذا الحديث ؛ الأولى : تأمين الإمام ، الثانية : تأمين من خلفه ، الثالثة : تأمين الملائكة ، الرابعة : موافقة التأمين ؛ قيل : في الإجابة ، وقيل : في الزمن ، وقيل : في الصفة ، من إخلاص الدعاء ، لقوله عليه السلام : "ادعوا الله وأتمموا قولوا بالإجابة ، واعلموا أن الله لا يستجيب دعاء من قلب غافل لاه" .

الثالثة - روى أبو داود عن أبي مصبح المقرئ قال : كنا نجلس إلى أبي زهير الثوري وكان من الصحابة ، فيحدث أحسن الحديث ، فإذا دعا الرجل منا بدعاء قال : اختتمه بآمين ، فإن آمين مثل الطابع على الصحيفة ؛ قال أبو زهير : ألا أخبركم عن ذلك ، ترجعنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم

ذات ليلة، فأبينا على رجل قد ألح في المسئلة، فوقف النبي صلى الله عليه وسلم يسمع منه، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "أوجب إن ختم" فقال له رجل من القوم: بأى شيء يختم؟ قال: "بآمين" فانه إن ختم بآمين فقد أوجب" فانصرف الرجل الذى سأل النبي صلى الله عليه وسلم، فأبى الرجل فقال له: اختم يا فلان وأبشر. قال ابن عبد البر: أبو زهير التميمي اسمه يحيى بن نفيروى عن النبي صلى الله عليه وسلم: "لا تقتلوا الجراد فانه جسد الله الأعظم" وقال وهب بن منبه: آمين أربعة أحرف يخلق الله من كل حرف ملكا يقول: اللهم اغفر لكل من قال آمين. وفي الخبر: "لقننى جبريل آمين عند فراغى من فاتحة الكتاب، وقال: إنه كان ظم على الكتاب" وفي حديث آخر: "آمين، خاتم رب العالمين". قال المروى: قال أبو بكر: معناه أنه طامع الله على عباده؛ لأنه يدفع [به عنهم] الآفات، والبلايا، فكان نظام الكتاب الذى يصونه، ويمنع من إفساده، وإظهار ما فيه. وفي حديث آخر: "آمين درجة في الجنة" قال أبو بكر: معناه أنه حرف يكتسب به قائله درجة في الجنة.

الرابعة — معنى آمين عند أكثر أهل العلم: اللهم استجب لنا، وضع موضع الدعاء. وقال قوم: هو اسم من أسماء الله، روى عن جعفر بن محمد، ومجاهد، وهلال بن يساف، ورواه ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم ولم يصح، قاله ابن العربي. وقيل: معنى آمين: كذلك فليكن، قاله الجوهري: وروى الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس قال: سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم، ما معنى آمين؟ قال: "رب افعل" وقال مقاتل: هو قوة للدعاء، واستئزال للبركة. وقال الترمذى: معناه لا تحجب رجاءنا.

الخامسة — وفي آمين لتنان: المد على وزن فاعيل بكاسين، والقصر على وزن يمين. قال الشاعر في المد:

يا رب لا تسلىنى حبا أبدا • ويرحم الله عبدا قال آمينا

وقال آخر:

آمين آمين لا أرضى واحدة • حتى أبلفها ألفين آمينا

وقال آخر في القصر :

تباد مني فطعل إذ سأله • آمين فزاد الله ما بيننا بعدا

وتسديد الميم خطأ ؛ قاله الجوهري . وقد روى عن الحسن ، وجمفر الصادق ، التشديد ؛ وهو قول الحسين بن الفضل ؛ من أم إذا قصد أي نحن قاصدون نحوك ؛ ومنه قوله : (وَلَا آمِينَ أَبَيْتَ الْحَرَامَ) . حكاه أبو نصر عبد الرحيم بن عبد الكريم التشيبي .

قال الجوهري : وهو معنى على الفتح مثل أين وكيف لاجتماع الساكنين . وتقول منه : أمّن فلان تأمينا .

السادسة - واختف العلاء : هل يقولها الإمام وهل يحجر بها ؟ فذهب الشافعي ومالك في رواية المدنيين إلى ذلك . وقال الكوفيون وبعض المدنيين : لا يحجر بها . وهو قول الطبري ؛ وبه قال ابن حبيب من علمائنا . وقال ابن بكير : هو غير . وروى ابن القاسم عن مالك : أن الإمام لا يقول آمين وإنما يقول ذلك من خلفه ؛ وهو قول ابن القاسم والمصريين من أصحاب مالك ؛ وجمهورهم : حديث أبي موسى الأشعري ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خطبنا فبين لنا مستنثا وعلينا صلاتنا فقال : « إنا صليتم فأقيموا صفوفكم ، ثم ليؤمكم أحدكم ، فإذا كبر فكبروا ، وإذا قال : (غَيْرَ الْمَقْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ) فقولوا آمين يحبك الله » وذكر الحديث ، أخرجه مسلم . ومثله حديث سفيان عن أبي هريرة ؛ وأخرجه مالك . والصحيح الأول لحديث وإثل بن حجر قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قرأ : (وَلَا الضَّالِّينَ) . قال : « آمين » يرفع بها صوته ؛ أخرجه أبو داود والدارقطني .

قال أبو بكر : هذه سنة تتخذ بها أهل الكوفة - هذا صحيح - والذي بعده ؛ ترجم له البخاري باب جهر الإمام بالتأمين .

وقال عطاء : آمين دعاء ؛ أمّن ابن الزبير ومن وراءه حتى إن للسجد لجة . قال الترمذي : وبه يقول غير واحد من أهل العلم من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ، ومن بعدهم ، يرون أن يرفع الرجل صوته بالتأمين لا يخفيها . وبه يقول الشافعي ؛ وأحمد ، وإسحاق . وفي الموطأ ، والصحيحين ، قال ابن شهاب وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « آمين » . وفي سنن ابن ماجه عن أبي هريرة قال : ترك الناس آمين ؛ وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قال : (غَيْرَ الْمَقْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ)

قال : « آمين » حتى يسمعا أهل الصف الأول يخرج بها المسجد . وأما حديث أبي موسى وميمى فمتاعها التعريف بالموضع الذى يقال فيه آمين ، وهو إذا قال الإمام : (ولا الضالين) — ليكون قولها معا ولا يتقدموه بقول : آمين ، لما ذكرناه ، والله أعلم . ولقوله عليه السلام : « إذا أتمن الإمام فأمنوا » وقال ابن تافع فى كتاب ابن الخارث : لا يقولها المأموم إلا أن يسمع الإمام يقول : (ولا الضالين) . وإذا كان يبعد لا يسمعه فلا يقل .

وقال ابن عيڤوس : يتعزى قدر القراءة ويقول : آمين .

السابعة — قال أصحاب أبى حنيفة : الإخفاء بآمين أولى من الجهر بها لأنه دعاء ، وقد قال الله تعالى : (ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً) . قالوا : والليل عليه ما روى فى تأويل قوله تعالى : (قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا) . قال : كان موسى يدعو وهارون يؤمن ، فسيما الله داعين .

والجواب : أن إخفاء الدعاء إنما كان أفضل لما يدخله من الرياء . وأما ما يتعلق بصلاة الجماعة فشبهوها إشهار شعار ظاهر ، وإظهار حق ينسب العباد إلى إظهاره . وقد تلب الإمام إلى إشهار قراءة فاتحة المشتملة على الدعاء ، والتأمين فى آخرها ، فإذا كان الدعاء بما يسبق الجهر فيه فالتأمين على الدعاء تابع له وجار مجراه وهذا بين .

الثامنة — كلمة آمين لم تكن قبلنا إلا لموسى وهارون عليهما السلام . ذكر الترمذى الحكيم فى (نوادر الأصول) : حدثنا عبد الوارث بن عبد الصمد قال حدثنا أبى قال حدثنا رزين مؤذن مسجد هشام بن حسان قال حدثنا أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ^{٢٥} « إن الله أعطى أمى ثلاثا لم تعط أحدا قبلهم السلام ، وهو تحية أهل الجنة ، وصفوف الملائكة ، وآمين إلا ما كان من موسى وهارون » قال أبو عبد الله : معناه أن موسى دعا على فرعون ، وأمن هارون ، فقال الله تبارك اسمه عند ما ذكر دعاء موسى فى تنزيله : (قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا) ولم يذكر مقالة هارون ، وقال موسى ربنا ، فكان من هارون التأمين ، فسيما داعيا فى تنزيله ، إذ صير ذلك منه دعوة . وقد قيل : إن آمين خاص لهذه الأمة ، لما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : ^{٢٦} « ما حسنتكم اليهود على شيء ما حسنتكم على السلام والتأمين » أخرجه ابن ماجه من حديث حماد بن سلمة عن سميل بن أبى صالح عن أبيه عن عائشة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال الحديث . وأخرج أيضا من حديث ابن

عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " ما حسدتكم اليهود على شيء ما حسدتكم على آمين ، فاكثروا من قول آمين " . قال ملائكتنا رحمة الله عليهم : إنما حسدنا أهل الكتاب لأن أولها حمد الله وثناء عليه ثم خضوع له واستكفة ، ثم دعاء لنا بالمنايا والصراط المستقيم ، ثم الدعاء عليهم مع قولنا آمين .

الباب الرابع

فيما تضمنته الفاتحة من المعاني والقراءات والإعراب وفضل الحامدين ، وفيه ست وثلاثون مسألة

الأولى - قوله سبحانه وتعالى : (الحمد لله) . روى أبو محمد عبد الغني بن سعيد الحافظ من حديث أبي هريرة ، وأبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " إذا قال العبد الحمد لله قال صدق عبدي الحمد لله " وروى مسلم عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الله يرضى عن العبد أن يأكل الأكلة فيحمده عليها أو يشرب الشربة فيحمده عليها " وقال الحسن : ما من نعمة إلا والحمد لله أفضل منها . وروى ابن ماجه عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما أتم الله على عبد نعمة فقال الحمد لله إلا كان الذي أعطى أفضل مما أخذ " . وفي (نوادر الأصول) عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لو أن الدنيا كلها بمخاضها بيد رجل من أمتي ثم قال الحمد لله لكانت الحمد لله أفضل من ذلك قال أبو عبد الله : معناه عندنا أنه قد أعطى الدنيا ، ثم أعطى على أثرها هذه الكلمة حتى تطلق بها ، فكانت هذه الكلمة أفضل من الدنيا كلها ، لأن الدنيا قانية ، والكلمة باقية ، من الباقيات الصالحات . وقال : هو « خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا » . وقيل في بعض الروايات : لكان ما أعطى أكثر مما أخذ . فضمير الكلمة أعطى من العبد والدنيا أخذ من الله فهذا في التذكير كذلك يجري في الكلام أن هذه الكلمة من العبد ، والدنيا من الله ، وكلهما من الله ، في الأصل الدنيا منه ، والكلمة منه ، أعطاه

الدنيا فأغناه، وأعطاه الكلمة فشرفه بها في الآخرة . وروى ابن ماجه عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حدثهم : " أن عبدا من عباد الله قال : يا رب لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك فعضلت بالملكين فلم يدريا كيف يكتبانها ، فصعدا الى السماء فقالا يا ربنا إن عبدا قد قال مقالة لا ندري كيف تكتبها ، قال الله - وهو أعلم بما قال عبده - ماذا قال عبدي ، فقالا يا رب إنه قد قال : يا رب لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك ، فقال الله لها : اكتبها كما قال عبدي حتى يلقياني فأجزيه بها " .

قال أهل اللغة : أعضل الأمر : اشتد واستغلق ، والمعضلات بتشديد الضاد ، الشدائد . وعضلت المرأة والشاة ، إذا نسيب ولدها فلم يسهل مخرجه ، بتشديد الضاد أيضا ، فعل هذا يكون : أعضلت الملكين أو عضلت الملكين بغيراء . والله أعلم . وروى عن مسلم عن أبي مالك الأشعري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " الطهور شطر الإيمان ، والحمد لله تملأ الميزان ، وسبحان الله والحمد لله تملآن أو تملأ ما بين السماء والأرض " وذكر الحديث .

الثانية - اختلف العلماء : أيما أفضل ؛ قول العبد : الحمد لله رب العالمين ، أو قول : لا إله إلا الله ؟ فقالت طائفة : قوله الحمد لله رب العالمين أفضل ؛ لأن في ضمنه التوحيد الذي هو لا إله إلا الله ، ففي قوله توحيد وحمد ، وفي قوله لا إله إلا الله توحيد فقط . وقالت طائفة : لا إله إلا الله أفضل ؛ لأنها تدفع الكفر والإشراك ، وطعنا يقاتل الخلق ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أسهرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله " واختار هذا القول ابن عطية ، قال : وأماكم بذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم : " أفضل ما قلت أنا والتبiron من قبل لا إله إلا الله وحده لا شريك له " .

الثالثة - أجمع المسلمون على أن الله محمود على ما نزل به ، وأن ما أسلم الله به الإيمان ، فدل على أن الإيمان فعله وخلقه ، والدليل على ذلك قوله : (رب العالمين) . والعالمون حملة المخلوقات ، ومن حملتها الإيمان ، لا كما قال القدرية : إنه خلق لهم على ما يأتي بيانه .

الرابعة - الحمد في كلام العرب معناه الثناء الكامل؛ والألف واللام لا ستغراق الجحس من المجد؛ فهو سبحانه يستحق الحمد بأجمعه إذ له الأسماء الحسنى والصفات العلاء؛ وقد جمع لفظ الحمد جمع التثنية في قول الشاعر:

وأبلغ محمود الثناء خصصته • بأفضل أحوالي وأفضل أحمدي

فالحمد: قبض الهمزة؛ تقول: حمدت الرجل أحدهم إذا فوجده ومجود؛ والتحميد أبلغ من الحمد؛ والحمد أعم من الشكر، والمحمد: الذي كثرت خصاله الحمودة. قال الشاعر:

• إلى المساجد التزم الجواد الحمد •

وبذلك سمى رسول الله صلى الله عليه وسلم. وقال الشاعر:

فشقي له من اسمه ليجله • فذو العرش محمود وهذا عبد

والحمدة: خلاف للذمة؛ وأحمد الرجل: صار أمره إلى الحمد؛ وأحمدته: وجدته محموداً؛ تقول: أتيت موضع كذا فأحمدته، أي صادفته محموداً موائماً، وذلك إذا رضيت سكناه أو مرعاه؛ ورجل حمدة - مثل حمزة - يكثر حمد الأشياء ويقول فيها أكثر مما فيها. وحمدة النار - بالتحريك - صوت التهايا.

الخامسة - ذهب أبو جعفر الطبري وأبو العباس المبرد إلى أن الحمد والشكر بمعنى واحد سواء. وليس بمرضى. وحكاه أبو عبد الرحمن السلمي في كتاب "الحقائق" له عن جعفر الصادق وابن عطاء. قال ابن عطاء: معناه الشكر؛ إذا كان منه الامتنان على تلميذا إياه حتى حمدناه، وأستدل الطبري على أنهما بمعنى بصحة قولك: الحمد لله شكراً. قال ابن عطية: وهو في الحقيقة دليل على خلاف ما ذهب إليه؛ لأن قولك شكراً إنما خصصت به الحمد لأنه على نعمة من النعم. وقال بعض العلماء: إن الشكر أعم من الحمد؛ لأنه باللسان وبالجوارح والقلب؛ والحمد إنما يكون باللسان خاصة. وقيل: الحمد أعم لأن فيه معنى الشكر ومعنى المدح؛ وهو أعم من الشكر لأن الحمد يوضع موضع الشكر ولا يوضع الشكر موضع الحمد. وروي عن ابن عباس أنه قال: الحمد لله كلمة كل شاكر، وإن آدم عليه السلام قال حين عطس: الحمد لله. وقال الله لنوح عليه السلام:

(قُلِ أَتَمَدُّ هَـ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ) وقال إبراهيم عليه السلام : (أَتَمَدُّ هَـ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ) . وقال في قصة داود وسليان : (وَقَالَا أَتَمَدُّ هَـ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ) وقال لنبيه صلى الله عليه وسلم : (قُلِ أَتَمَدُّ هَـ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا) . وقال أهل الجنة : (أَتَمَدُّ هَـ الَّذِي أَذْهَبَ عَنْكَ الْحَزْنَ) . (وَأَبْرُدَعَوَامُ أَنْ أَمَدُّ هَـ رَبِّ الْعَالَمِينَ) . فهي كلمة كل شاكر .

قلت : الصحيح أن الحمد شاء على الممدوح بصفاته من غير سبق إحسان ، والشكر تناء على المشكور بما أولى من الإحسان . وعلى هذا الحمد قال علماءنا : الحمد أعم من الشكر ، لأن الحمد يقع على التناء وعلى التحميد ، وعلى الشكر ، والجزء خصوص ، إنما يكون مكافأة لمن أؤلاك معروفًا ، فصار الحمد أعم في الآية ، لأنه يزيد على الشكر . ويذكر الحمد بمعنى الرضا ، يقال : بلوته لحمدته ، أى رضيته . ومنه قوله تعالى : (مَقَامًا مَحْمُودًا) وقال عليه السلام : "أحمد إليكم غسل الإحليل" أى أراضاه لكم . ويذكر من جعفر الصادق في قوله : (الحمد لله) من حمده بصفاته كما وصف نفسه فقد حمد ، لأن الحمد حمه ومعهم ودال ، فالهاء من الوجدانية ، والميم من الملك ، واللام من الديمومية ، فمن عرفه بالوجدانية والديمومية والملك فقد عرفه ، وهذا هو حقيقة الحمد لله . وقال شقيق بن إبراهيم في تفسير (الحمد لله) قال : هو على ثلاثة أوجه : أولاً إذا أعطاك الله شيئاً تعرف من أعطاك . والثاني أن ترضى بما أعطاك . والثالث ما دامت قوته في جسدك ألا تعصيه ، فهذه شرائط الحمد .

السادسة — أثنى الله سبحانه بالحمد على نفسه ، وافتتح كتابه بحمده ، ولم يأذن في ذلك لنبيه ، بل نهى عن ذلك في كتابه ، وعلى لسان نبيه عليه السلام ، قال : (قَلَّا تَرَوْا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِنِي أَنْفِي) وقال عليه السلام : "أخروا في وجوه المداحين التراب" رواه المقداد وسيأتى القول فيه في النساء إن شاء الله تعالى .

فمعنى الحمد لله رب العالمين : أى سبق الحمد منى لنفسى قبل أن يمدحنى أحد من العالمين ، وحدى نفسى لنفسى فى الأزل لم يكن بعلد ، وحسد الخلق مشوب بالمال . قال علماءنا : فيستقيم من الخلق الذى لم يخطئ الكمال أن يمدح نفسه ليستجلب لها المنافع ويدفع عنها المضار . وقيل : لما

(١) ضرب ذلك ابن عطية في تفسيره بقوله ما لم يمدح نفسه قبل أن يمدحها غيره ، والى الصفات به ينفع كلام المؤلف .

علم سبحانه عجز عباده عن حمده، حمد نفسه بنفسه لنفسه في الأزل؛ فاستفراغ طوق عباده، هو محل العجز عن حمده. ألا ترى سيد المرسلين كيف أظهر العجز بقوله: "لا أحصى ثناء عليك" وأنشدوا: إذا نحن أثينا عليك بصلح * فانت كما ننثي وفوق الذي ننثي

وقيل: حمد نفسه في الأزل لما علم من كثرة نعمه على عباده وعجزهم عن القيام بواجب حمده فحمد نفسه عنهم، لتكون النعمة أهلاً لهم، حيث أسقط عنهم به ثقل المنة.

السابعة - وأجمع القراء السبعة وجمهور الناس على رفع الدال من ((الحمد لله)) . وروى عن جفيل بن عينة، ورؤبة بن السباع . الحمد لله ؛ ينصب الدال وهذا على إضمار فعل . ويقال : الحمد لله بالرفع مبتدأ وخبر، وسيل الخبر أن يفيد؛ فما الفائدة في هذا ؟ فالجواب أن سيويه قال : إذا قال الرجل الحمد لله بالرفع ففيه من المعنى مثل ما في قولك : حمدت الله حمداً ؛ إلا أن الذي يرفع الحمد يخبر أن الحمد منه ومن جميع الخلق لله ؛ والذي ينصب الحمد يخبر أن الحمد منه وحده لله . وقال غير سيويه . إنما يتكلم بهذا تعرضاً لعفو الله ومغفرته وتغنياً له وتجيلاً ؛ فهو خلاف معنى الخبر وفيه معنى السؤال . وفي الحديث : " من شغل يذكرى عن مستحق أعطيته أفضل ما أعطى السائلين " . وقيل : إن مدحه عن وجل لنفسه، وثناء عليها، ليعلم ذلك عباده؛ فالمعنى على هذا : قولوا الحمد لله . قال الطبري : الحمد لله ثناء أثنى به على نفسه وفي ضمنه أمر عباده أن يثنوا عليه؛ فكأنه قال : قولوا الحمد لله ؛ وعلى هذا يحى قولوا لياك . وهذا من حذف العرب ما يدل ظاهر الكلام عليه؛ كما قال الشاعر :

وأعلم أنى سأكون رسماً * إذا صار النواحي لا يسير

فقال السائلون لمن حفرتم * فقال القائلون لم وزير

المعنى المحفورة له وزير فخفف لدلالة ظاهر الكلام عليه، وهذا كثير . وروى عن ابن أبي عتبة^(١) الحمد لله، بضم الدال واللام على اتباع الثاني الأول، ولينجاس اللفظ، وطلب التجانس في اللفظ كثير في كلامهم، نحو أخوك وهو متحدر من الجبل، بضم الدال والجيم^(٢) . قال :

* اضرب السابقين أمك هابل *

بضم النون لأجل ضم الحمزة . وفي قوله لأهل مكة "مردفين" بضم الراء لتباعد الهمزة ، وعلى ذلك "مقتلين" بضم القاف . وقالوا : لأملك فكسروا الحمزة اتباعا للام ، وأشد النفاق بن بذ ويل أمها في هواء الجو طالبة . ولا كهذا الذي في الأرض مطلوب

الأصل : ويل لأمها ، فحذفت اللام الأولى واستعملت ضم الحمزة بعد الكسرة ففعلها اللام ثم اتبع اللام الميم . وروى عن الحسن بن أبي الحسن ، وزيد بن علي : الحمد لله ، بكسر الدال على اتباع الأول الثاني .

الثامنة — قوله تعالى : (رَبِّ الْمَالَيْنِ) . أى مالكم وكل من ملك شيئا فهو ربه ، فالرب : المالك . وفي الصحاح : والرب اسم من أسماء الله تعالى ، ولا يقال في غيره إلا بالإضافة ، وقد قالوه في الجاهلية للأك ، قال الحارث بن حِزْرَة :

وهو الرب والشيسد على يو . م الحيارين والبسلاء بلاه

والرب : السيد ، ومنه قوله تعالى : (أَذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ) . وفي الحديث : "أن تاد الأمة ربها" أى سيدتها ، وقد بيناه في كتاب (التذكرة) . والرب : المصلح ، والمدير ، والجابر ، والقائم . قال الهروي وغيره : يقال لمن قام بإصلاح شيء وإتمامه ، قد ربه يربه فهو رب له ورب ، ومنه سمي الربانيون لقيامهم بالكتب . وفي الحديث : "هل لك من نعمة تربها عليه" أى تقوم بها وتصلحها . والرب : المعبود ، ومنه قول الشاعر :

أرب يبول التعلبات برأسه . لقد دخل من بالث عليه الثعالب

ويقال على التكثير : رباه وربيه وربته ، حكاه النحاس . وفي الصحاح : ورب فلان ولده يربه وربا وربيه وتربيته بمعنى ، أى رباه . والمربوب : المربي .

التاسعة — قال بعض العلماء : إن هذا الاسم هو اسم الله الأعظم ، لكثرة دعوة الباعين به ، وتأمل ذلك في القرآن ، كما في آثر آل عمران ، وسورة إبراهيم ، وغيرهما ، ولما يشعر به هذا الوصف من الصلة بين الرب والمربوب ، مع ما يتضمنه من العطف والرحمة والافتقار في كل حال . واختلف في اشتقاقه ، قيل : إنه مشتق من التربية ، فله سبحانه وتعالى مدير خلقه ، ومربيهم ومنه قوله تعالى : (وَرَبَّائِكُمُ الَّذِينَ فِي حُجُورِكُمْ) . فسمى بنت الزوجة ربيبة لتربية الزوج لها .

فعل أنه مدبر خلقه ومربيهم يكون صفة فعل ؛ وعلى أن الرب بمعنى المالك والسيد ، يكون صفة ذات .

العاشرة - متى أدخلت الألف واللام على رب، اختص الله تعالى به لأنها للمهدب؛ وإن حذفنا منه صار مشتركا بين الله وبين عباده، فيقال : الله رب العباد، وزيد رب النار؛ فالله سبحانه ورب الأرباب ؛ يملك الممالك والملكوك، وهو خالق ذلك ورازقه ، وكل رب سواه غير خالق ولا رازق، وكل ملك فملك بعد أن لم يكن، ومنترع ذلك من يده، وإنما يملك شيئا دون شيء ؛ وصفة الله تعالى عاقلة لهذه المعاني، فهذا الفرق بين صفة الخالق والمخلوقين .

الحادية عشرة - قوله تعالى : (الْعَالَمِينَ) . اختلف أهل التأويل في العالمين اختلافًا كثيرا؛ فقال قتادة : المألون جمع عالم، وهو كل موجود سوى الله تعالى ، ولا واحد له من لفظه مثل وحط وقوم . وقيل : أهل كل زمان عالم؛ قاله الحسين بن الفضل لقوله تعالى : (أَتَأْتُونَ اللَّهَ كَرًّا مِنْ الْعَالَمِينَ) أى من الناس . وقال الصميع :
• يَخْتَلِفُ هَامَةُ هَذَا الْعَالَمِ •

وقال جرير بن الخطمى :

تصنفه البرية وهو سام • ويضخى المألون له ميالا

وقال ابن عباس : المألون الجن والإنس . دليله قوله تعالى (لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا) ولم يكن نذيرا للبهائم . وقال الفراء، وأبو عبيدة : العالم ، عبارة عن يعقل ؛ وهم أربعة أمم : الإنس ، والجن ، والملائكة ، والشياطين . ولا يقال للبهائم عالم لأن هذا الجمع إنما هو جمع من يعقل خاصة . قال الأصمى :

• مَا إِنْ سَمِعْتَ بِمَثَلِهِمْ فِي الْعَالَمِ •

وقال زيد بن أسلم : هم المرتزقون ؛ ونحوه قول أبي عمرو بن العلاء : هم الروحانيون، وهو معنى قول ابن عباس أيضا : كل ذى روح دب على وجه الأرض . وقال وهب بن منبه : إن الله عز وجل ثمانية عشر ألف عالم ، الدنيا عالم منها . وقال أبو سعيد الخدري : إن الله أربعين ألف عالم ؛

الدنيا من شرقها إلى غربها عالم واحد . وقال مقاتل : العالمون ثمانون ألف عالم ، أربعون ألف عالم في البر ، وأربعون ألف عالم في البحر . وروى الربيع بن أنس عن أبي العالية قال : الجن عالم ، والإنس عالم ، وسوى ذلك للأرض أربع زوايا في كل زاوية ألف ومعمائة عالم ، خلقهم لعبادته .

قلت والقول الأول أصح هذه الأقوال ، لأنه شامل لكل مخلوق وموجود دليله قوله تعالى : **(قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ . قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا)** ثم هو مأخوذ من العلم والعلامة ، لأنه يدل على موجد كذا قال الزجاج قال : العالم كل ما خلقه الله في الدنيا والآخرة . وقال الخليل : العلم ، والعلامة ، والمعلم : ما دل على الشيء ، فالعالم دال على أن له خالفا ومديرا ، وهذا واضح . وقد ذكر أن رجلا قال بين يدي الجنيد : الحمد لله ، فقال له : أيها كما قال الله : قل : رب العالمين ، فقال الرجل : ومن العالمين حتى تذكر مع الحق ؟ قل قل يا أيها ، فإن المحدث إذا قرن مع القديم لا يبقى له أثر .

الثانية عشرة — يجوز الرفع والنصب في رب ، والنصب على المدح ، والرفع على القلع ، أي هو رب العالمين .

الثالثة عشرة — قوله تعالى : **(الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ)** وصف نفسه تعالى بيد رب العالمين ، بأنه الرحمن الرحيم ، لأنه لما كان في اتصافه برب العالمين ترحيب ، قرنه بالرحمن الرحيم ، لما تضمن من الترحيب ليجمع في صفاته بين الرحمة منه ، والرحمة إليه ، فيكون أعون على طاعته وأمنع ، كما قال : **(نَبِيَّ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ . وَأَنَّ عَلَيَّ هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ)** . وقال : **(غَافِرُ الذَّنْبِ وَقَابِلُ التَّوْبِ شَدِيدُ الْعِقَابِ ذِي الْعَرْشِ الْعَظِيمِ)** . وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : **« لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة ما طمع بجهنم أحد ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة ما قنط من جهنم أحد »** وقد تقدم ما في هذين الآيتين من المعاني ، فلا معنى لإعادته .

الرابعة عشرة — قوله تعالى : **(مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ)** . قرأ محمد بن السميع : بنصب مالك ، وفيه أربع لغات : **مَالِكٍ وَمَلِكٍ وَمَلَكٌ — مخففة من مَلِك — ومَلِكٌ** ، وقال الشاعر :

وَأَلَمَ لَنَا غَرَطُ سِوَالٍ • عَصَبِنَا الْمَلِكَ فِيهَا أَنْ نَسِيَا

وقال آخر^(١) :

فانقح بما قسم الملك فإنما . قسم الخلاق بيننا علامها

الخلاق : الطباع التي جبل الإنسان عليها . وروى عن تافع إشباع الكسرة في ملك ؛ فقرا ملكي عل لسة من يشيع الحركات ؛ وهي لغة العرب ذكرها المهدوي وغيره .

الخامسة عشرة - اختلف العلماء أيما أبلغ : ملك أو مالك ؟ والقراءتان مرويتان عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وأبي بكر ، وعمر ، ذكرها الترمذي ؛ فقيل : ملك أعم وأبلغ من مالك ؛ إذ كل ملك مالك ، وليس كل مالك ملكا ، ولأن أمر الملك نافذ على المالك في ملكه ، حتى لا يتصرف إلا عن تدبير الملك ؛ قاله أبو عبيدة والمبرد . وقيل : مالك أبلغ ؛ لأنه يكون مالكا للناس وغيرهم ؛ فالمالك أبلغ تصرفا وأعظم ؛ إذ إليه إجراء قوانين الشرع ، ثم عنده زيادة التملك .

وقال أبو علي حكي أبو بكر بن السراج عن بعض من أختار القراءة بملك : أن الله سبحانه قد وصف نفسه بأنه مالك كل شيء بقوله : (رَبُّ الْعَالَمِينَ) فلا قائل في قراءة من قرأ مالك لأنها تكرر . قال أبو علي : ولا حجة في هذا لأن في التثنية أشياء على هذه الصورة ، فتلزم العام ثم ذكر الاختصاص كقوله : (هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ) فالخالق يعم ، وذكر المصور لما فيه من التنبيه على الصنعة ، ووجود الحكمة ؛ وكما قال تعالى : (وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ) بعد قوله : (الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ) والغيب يعم الآخرة وغيرها ؛ ولكن ذكرها لعظمها ، والتنبيه على وجوب اعتقادها ، والرد على الكفرة الجاحدين لها ؛ وكما قال : (الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ) فذكر الرحمن الذي هو عام وذكر الرحيم بعده ، لتخصيص المؤمنين به في قوله : (وَكَانَ الْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا) . وقال أبو حاتم : إن مالكا أبلغ في مدح الخلاق من ملك ، وملك أبلغ في مدح المخلوقين من مالك ، والفرق بينهما أن المالك من المخلوقين قد يكون غير ملك وإذا كان الله تعالى مالكا كان ملكا ، واختار هذا القول القاضي أبو بكر بن العربي ؛ وذكر ثلاثة أوجه الأول : أنك تضيفه إلى اختصاص والعام فتقول : مالك الدار والأرض والثوب ، كما تقول : مالك الملوك . الثاني : أنه يطلق على مالك القليل والكثير ؛ وإذا تأملت هذين القولين وجدتتهما واحدا . والثالث : أنك تقول : مالك الملوك ؛ ولا تقول : ملك الملوك . قال ابن الحصار : إنما كان

ذلك، لأن المراد من مالك الدلالة على الملك بكسر الميم وهو لا يتضمن الملك بضم الميم، ومالك يتضمن الأمرين جميعاً، فهو أولى بالمبالغة، ويتضمن أيضاً الكمال، ولذلك استحق الملك على من دونه، ألا ترى إلى قول الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ﴾، ولهذا قال عليه السلام: «الإمامة في قريش» وقريش أفضل قبائل العرب، والعرب أفضل من الجهم وأشرف، ويتضمن الاقتدار، والاختيار، وذلك أمر ضروري في الملك إن لم يكن قادراً غنائراً ثاقفاً حكماً وأمره، قهره عدوه، وظبه غيره، وازدوده رعيته، ويتضمن البطش والأمر والنهي والوعد والوعيد، ألا ترى إلى قول سليمان عليه السلام: ﴿مَالِيَ لَا أَرَى الْهُنْدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْفَالِيقِينَ . لَا مُلْكِيَّةَ عَنَّا شَيْئاً﴾ إلى غير ذلك من الأمور العجيبة، والمعاني الشريفة، التي لا توجد في المالك.

قلت: وقد احتج بعضهم على أن مالكا يبلغ لأن فيه زيادة حرف؛ فلقارنه عشر حركات زيادة عن قرأ ملك. قلت: هنا نظر إلى الصيغة لا إلى المعنى، وقد ثبتت القراءة بملك، وفيه من المعنى ما ليس في مالك، على ما بينا والله أعلم.

السادسة عشرة - لا يجوز أن يسمى أحد بهذا الاسم ولا يدعى به إلا الله تعالى؛ روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يقبض الله الأرض يوم القيامة ويطوى السماء بميخيه ثم يقول أنا الملك أين ملوك الأرض؟» وعنه أيضاً عن النبي صلى الله عليه وسلم: «إن أخت اسم عند الله رجل تسمى ملك الأملاك» زاد مسلم: «لا مالك إلا الله عز وجل» قال سفيان: مثل: شاهان شاه. وقال أحمد بن حنبل: سألت أبا عمرو الشيباني عن أخت؛ فقال: أوضع. وعنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أغبط رجل على الله يوم القيامة وأخوته رجل تسمى ملك الأملاك لا ملك إلا الله سبحانه». قال ابن الحصار: وكذلك ملك يوم الدين، ومالك الملك؛ لا ينبغي أن يختلف في أن هذا محرم على جميع المخلوقين كتحريم ملك الأملاك سواء، وأما الوصف بمالك وملك وهي:

السابعة عشرة - فيجوز أن يوصف بهما من أتصف بمفهومهما؛ قال الله العظيم: ﴿إِنَّ اللَّهَ قَدْ يَمَتَّ لَكُمْ طَالَوْتَ مَلِكاً﴾. وقال صلى الله عليه وسلم: «ناس من أمتي عرضوا على غزاة في سبيل الله يركبون نبيج هذا الحرملوكا على الأسيمة أو مثل الملوك على الأسرة».

الثامنة عشرة - إن قال قائل : كيف قال « مالك يوم الدين » ويوم الدين لم يوجد بعد ، فكيف وصف نفسه بمالك ما لم يوجد ؟ قيل له : اعلم أن مالكا اسم فاعل يعنى ملك بملك ، واسم الفاعل في كلام العرب قد يضاف إلى ما بعده وهو يعنى الفعل المستقبل ويكون ذلك عندهم كلاما صديقا معقولا صحيحا ، كقولك : هذا ضارب زيد ضا ؛ أى مني ضرب زيدا . وكذلك : هذا حاج بيت الله في العام المقبل ، تأويله سيبصح في العام المقبل ، أفلا ترى أن الفعل قد ينسب إليه وهو لم يفعله بعد ، وإن أريد به الاستقبال ، فكذلك قوله عز وجل : (مالك يوم الدين) على تأويل الاستقبال ، أى سيملك يوم الدين أو في يوم الدين إذا حضر .

ووجه ثان : أن يكون تأويل المالك راجعا إلى القدرة ، أى أنه قادر في يوم الدين ، أو على يوم الدين وأحداثه ، لأن المالك الشيء هو المتصرف في الشيء ، والقادر عليه ، والله عز وجل مالك الأعيان كلها ومصرفها على إرادته ، لا يمنع عليه منها شيء .

والوجه الأول أمس بالعربية وأتخذ في طريقها ، قاله أبو القاسم الزجاجي .

ووجه ثالث : فيقال لم خصص يوم الدين وهو مالك يوم الدين وغيره ؟ قيل له : لأن في الدنيا كانوا متنازعين في الملك ، مثل : فرعون ، ونمرود ، وغيرهما ، وفي ذلك اليوم لا ينازعه أحد في ملكه ، وكلهم خضعوا له ، كما قال تعالى : (لِكُلِّ الْمُلْكِ الْيَوْمَ فَاجَابَ جَمِيعُ الْخَلْقِ : (قَدْ أَفْلَحَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ)) فلذلك قال : مالك يوم الدين ، أى في ذلك اليوم لا يكون مالك ولا قاض ولا مجاز غير ، سبحانه لا إله إلا هو .

التاسعة عشرة - إن وصف الله سبحانه بأنه ملك كان ذلك من صفات ذاته ، وإن وصف بأنه مالك كان ذلك من صفات فعله .

المئوية العشرين - اليوم : عبارة عن وقت طلوع الفجر إلى وقت غروب الشمس ، فاستدير فيما بين مبتدأ القيامة إلى وقت استقرار أهل النارين فيهما ، وقد يطلق اليوم على الساعة منه ؛ قال الله تعالى : (الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ) وجمع يوم أيام ، وأصله أيام فادغم ، وربما صبروا عن الشدة باليوم ، يقال : يوم أيوم ، كما يقال : ليلة ليلاء . قال الرازي :

• نعم أخو الميعاد في اليوم القيومي •

(١) هو أبو الحسن الحائلي كما في السان مادة « يوم » .

(١) وهو مقلوب منه، أخر الواو وقدم الميم ثم قلبت الواو ياء حيث صارت طرفا، كما قالوا :
أدل في جمع دلو .

الحادية والعشرون - الذين : الجزء على الأعمال والحساب بها، كذلك قال ابن عباس، وابن
مسعود، وابن جريج، وقتادة، وغيرهم . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم، ويدل عليه قوله تعالى :
(يَوْمَئِذٍ يُوفِّيهِمْ أَجْرَهُ دِينَهُمُ الْحَقُّ) . أى حسابهم . وقال : (الْيَوْمَ يُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ)
و (الْيَوْمَ يُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ) . وقال : (أَنَّا لَمَبِينُونَ) . أى مجزون عاسبون . وقال ليبد :
حصادك يوما ما زرعت وإنما . يدان الفقى يوما كما هو دائن

آخر :

إذا ما رمونا ربناهم • ودائم مثل ما يقرضونا

آخر :

وأعلم يقينا أن ملكك زائل • وأعلم بأن كما تدن تذل

وحكى أهل القنة : دنته ففعله دينا بفتح الدال ودينا بكسرهما جزئته، ومنه الدبان في صفة
الرب تعالى أى المجازى، وفي الحديث : "الكيس من دان نفسه" أى حاسب؛ وقيل : القضاء .
روى من ابن عباس أيضا، ومنه قول طرفة :

لعمرك ما كانت حكومة معبد • على جلتها حريا للبيك من مضر

ومعنى هذه التلاوة متقاربة . والذين أيضا : الطاعة؛ ومنه قول عمرو بن كلثوم :

وأياهم لنا غير طوال • عصيا للملك فيما أنف نلبا

فلى هذا هو لفظ مشترك وهى

(١) وهو أى أئيم .

(٢) في اللسان مادة (دين) : « قال جرير بن نوح الكلابي، « ماوت بن أبى شمر الحناني وكان له اخيه ابنة :

يا سار أئيم أن ملكك زائل • الخ

الثانية والعشرون - قال ثعلب : وإن الرجل إذا أطاع ، وإن إذا عصى ، وإن إذا عثر ، وإن إذا قل ، وإن إذا نهر ، فهو من الأضداد . ويطلق التين على العادة والشأن ، كما قال :
• كبيتك من أم الخويث قبلها •

وقال ثعلب :

قول القادرات لما وطيني • أمنا دينه أبدا ودين

والدين • مبرك ذلك • قال زهير :

فمن حلت يحمو في بني أسد • في دين عمرو وماله يتنا فذلك

أراد في موضع طاعة عمرو ، والدين : الله ، عن الحياطي وأشد :

• يدين قلبك من سلمى وقد دينا •

الثالثة والعشرون - قوله تعالى : (إِيَّاكَ نَعْبُدُ) . رجع من الغيبة إلى الخطاب على التلويح ، لأن من أول السورة إلى ما هنا خبرا عن الله تعالى وشأنه عليه كقوله : (وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا) . ثم قال : (إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً) . وعكسه : (حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِ وَجِهْتُمْ نِيحًا) . ما يأتي .
• ونجد : • معناه نطبع ، والعبادة : الطاعة والتذلل ، وطريق معبد ، إذا كان مثلا للساكنين ، قاله المروئي . ونطقي للكلف به إقرار بالربوبية ، وتحقيق لعبادة الله تعالى ، إذ سائر الناس يعبدون سواه من أصنام وغير ذلك : (وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ) . أي نطلب العون والتأييد والتوفيق .

قال السامري في حقايقه : سمعت محمد بن عبد الله بن شاذان يقول : سمعت أبا حفص الفراءاني يقول : من أتى بربك لعبد وإياك نستعين ، فقد برئ من الجبر والقدر .

الرابعة والعشرون - إن قيل : لم قدم المفعول على الفعل ؟ قيل له : قدم اهتماما ، وشأن العرب تقديم الأهم . يذكر أن أعرابيا سب آخر فاعرض المسبوب عنه ، فقال له الساب : إياك أعني فقال له الآخر : وعك أعرض ، فلما الأهم ، وأيضا لتلا يتقدم ذكر العبد والعبادة على المعبود ، فلا يجوز تعبدك وتسميتك ، ولا تعبد إياك وتسميتك إياك فيقدم الفعل على كناية المفعول ، وإنما يتبع لفظ القرآن . وقال الساجي :

إياك أدعوا فقبل ملني • وأغفر خطاياي وكثرت روقي

ويروى وغيره . وأما قول الشاعر :

• اليك حتى بلغت إياكا •

فشاذ لا يقاس عليه . والورق بكسر الراء من الدراهم ويقصها : المال ، وكسر الاسم لشلا يتوهم إياك بعد ونستعين ضحك •

الخامسة والعشرون — الجمهور من القراء والعلماء على شذ الإيه من إياك في الموضعين ؛ وقرا عمرو ابن واقد : إياك بكسر الهجمة وتخفيف الياء وذلك أنه كره تضعيف الياء لثقلها وكون الكسرة قبلها ؛ وهذه قراءة مرغوب عنها ، فإن المعنى يصير شمسك بعد أو ضوطك ؛ وإيالة الشمس بكسر الهجمة : ضومعا وقد تفتح . وقال :

سقت إياه الشمس إلا لئله • أسف ظم تكلم عليه يأتد

فإن أسقطت الماء منحت . ويقال : الإياه للشمس ، كالملة للقمرة ، وهي البارة حولها . وقرا الفضل الرقاشي : إياك بفتح الهجمة وهي لغة مشهورة ، وقرا أبو السؤار النوى : هياك في الموضعين وهي لغة ، قال :

فهيأك والأمر الذي إن توصت • موارد ضاقت عليك مصابره

السادسة والعشرون — (وإياك تستعين) عطف جملة على جملة ؛ وقرا يحيى بن وثاب ، والأعمش : تستعين بكسر التون ، وهي لغة تيم ، وأسد ، وقيس ، وريمة ، ليل على أنه من استعان ، فكسرت التون كما تكسر ألف الوصل . وأصل تستعين فتستون ، قلبت حركة الواو إلى العين ، فصارت ياء ، والمصدر استعانة ؛ والأصل استعوان ؛ قلبت حركة الواو إلى العين فاقبلت ألفا ولا يلتقي ما كان لحذف الألف الثانية ، لأنها زائدة ، وقيل الأولى ، لأن الثانية للعين ، ولزمت الماء محوذا .

السابعة والعشرون — قوله تعالى : (إهدنا الصراط المستقيم) . إهدنا دعاء ورغبة من المريب إلى الرب ؛ والمعنى دلنا على الصراط المستقيم ، وأرشدنا إليه ، وأرنا طريق هدايتك الموصلة إلى نفسك وقربك . قال بعض العلماء : يقول الله جل وعز عظم الدعاء وحملته موضوعا في هذه السورة ، نصفا فيه مجمع الثناء ، ونصفا فيه مجمع الحاجات ، وجعل هذا الدعاء الذي في هذه السورة أفضل من

الذي يدعو به [الداعي] لأن هذا الكلام قد تكلم به رب العالمين، فأنت تدعو بدعاه هو كلامه الذي تكلم به، وفي الحديث: «ليس شيء أكرم على الله من الدعاء» وقيل المعنى أرشدنا باستعمال السنن في أداء غرائضك، وقيل الأصل فيه الإمامة؛ ومنه قوله تعالى: ﴿ إِنَّا هَدَيْنَاكَ إِلَىٰ مَلَكٍ مُّكَرَّمٍ مِّنْ أَهْلِ الْإِيمَانِ ﴾ (١) أي ملنا؛ ونخرج عليه السلام في مرضه يتهدى بين اثنين: أي يخاف، ومنه الحديث لأنها تمال من ملك إلى ملك. ومنه الهدى فهو الذي يساق إلى الحرم، فاللهي مل بقلوبنا إلى الحق. وقال الفضيل بن عياض: الصراط المستقيم طريق الحج وهذا خاص، والعموم أولى؛ قال محمد بن الحنفية في قوله عز وجل: ﴿ هُدًى لِّلصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ ﴾ هو دين الله الذي لا يقبل من العبادة غيره. وقال حاتم الأحول عن أبي العالية: الصراط المستقيم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وصاحبه من بعده؛ قال حاتم: فقلت لمن: إن أبا العالية يقول: الصراط المستقيم رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحبه، قال: صدق ونصح.

الثامنة والعشرون - أَمَل الصراط في كلام العرب: الطريق؛ قال عامر بن الطفيل:

شعنا أرضهم بالخيال حتى • تركاهم أدل من الصراط

وقال جرير:

أمر المؤمنين على صراط • إننا أوجع الموارد مستقيم

وقال آخر:

• فصبت عن نهج الصراط الواضع •

وحكى النقاش: الصراط: الطريق بلفظة الروم؛ قال ابن عطية: وهذا ضعيف جداً، وقرئ:

الصراط بالسين من الاستراط بمعنى الابتلاع؛ كأن الطريق يستط من يسلكه. وقرئ بين الزاى

والصاد؛ وقرئ بزاى خالصة والسين الأصل؛ وحكى سلمة^(٢) عن الفراء قال: الزراط بإخلاص الزاى:

لفظة لمنزلة، وكلب، وبني القين قال: وهؤلاء يقولون [في أصدق]: أزدق. وقد قالوا: الأزْد في الأسد

والأزْد [في الأسد]، وزلق به في لصق به. والصراط نصب على المفعول الثاني لأن الفعل من الهداية

يتعلّى إلى المفعول الثاني بحرف جر؛ قال الله تعالى: ﴿ فَأَهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ ﴾. وبغير حرف كما

في هذه الآية . المستقيم صفة للصراط ، وهو الذي لا اعوجاج فيه ولا انحراف ، ومنه قوله تعالى : **(وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمٌ فَاتَّبِعُوهُ)** . وأصله مستقوم ، قلت الحركة إلى اللغاف وانقلب الواو ياء لانكسار ما قبلها .

التاسعة والعشرون - (صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ) : صراط يدل من الإقبال بدل الشيء من الشيء ؛ كقولك : جاءني زيد أبوك ؛ ومعناه : آدم هدايتنا ، فإن الإنسان قد يهدي إلى الطريق ثم يقطع به ، وقيل : هو صراط آخر ومعناه العلم بآلة جلق وعز والفهم عنه ؛ قاله جعفر بن محمد . ولغة القرآن الذين في الرفع والنصب والجبر ؛ وهذا قول : اللذون في الرفع ، ومن العرب من يقول : اللذون ، ومنهم من يقول : الذي وسياق .

وفي عليهم عشر لغات : قرئ بمادتها عليهم بضم الماء وإسكان الميم ، وعليمٌ بكسر الماء وإسكان الميم ، وعليمي بكسر الماء والميم والحلق ياء بعد الكسرة ، وعليمو بكسر الماء وضم الميم وزيادة واو بعد الضمة ، وعليمو بضم الماء والميم كتيهما وإدخال واو بعد الميم ، وعليمٌ بضم الماء والميم من غير زيادة واو ، وهذه الأوجه الستة مأثورة عن الأئمة من القراء . وأوجه أربعة منقولة عن العرب ، غير محكية عن القراء : عليمي بضم الماء وكسر الميم وإدخال ياء بعد الميم ، حكاها الحسن البصري عن العرب ، وعلهم بضم الماء وكسر الميم من غير زيادة ياء ، وعلهم بكسر الماء وضم الميم من غير الحلق واو ، وعلهم بكسر الماء والميم ولا ياء بعد الميم ، وكلها صواب قاله ابن الأثيري .

الموفية الثلاثين - قرأ عمر بن الخطاب، وابن الزبير رضي الله عنهما صراط من أُنعمت عليهم، واختلف الناس في المنعم عليهم؛ فقال الجمهور من المفسرين: إنه أراد صراط النبيين والصديقين والشهداء والصالحين؛ وأقرعوا ذلك من قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّدِيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رِجَالًا﴾ - فالآية تقتضي أن هؤلاء على صراط مستقيم، وهو المطلوب في آية الحمد؛ وجميع ما قيل إلى هذا يرجع، فلا معنى لتعدد الأقوال والله المستعان.

الحادية والثلاثون - في هذه الآية ربه على القُدُورِ والمَعْتَلَةِ والإِمامية، لأنهم يستقدون أن إرادة الإنسان كافية في صدور أفعاله منه، طاعة كانت أو معصية؛ لأن الإنسان عندهم خالق لأفعاله، فهو غير

(۱۶) اُی قرآن مجید کی تائید و توثیق کے لئے لکھا گیا ہے ۔ (۱۷) اُی قرآن مجید کی تائید و توثیق کے لئے لکھا گیا ہے ۔

(٤٣) في حقة : « الأعمش البصري » .

محتاج في صدورهما عنه إلى ربه؛ وقد أكد عليهم الله تعالى في هذه الآية، إذ سألوهم الهداية إلى الصراط المستقيم؛ فلو كان الأمر إليهم، والاختيار بينهم دون ربه، لما سألوهم الهداية، ولا كروا السؤال في كل صلاة؛ وكذلك تصرعهم إليه في دفع المكروه، وهو ما يتناقض الهداية حيث قالوا: (صراط الذين أقممت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين)؛ فكما سألوهم أن يهديهم سألوه ألا يضلهم، وكذلك يدعون فيقولون: (ربنا لا تخرج قلوبنا بعد إذ هديتنا) الآية .

الثانية والثلاثون - (غير المغضوب عليهم ولا الضالين) . اختلف في المغضوب عليهم والضالين، من هم ؟ فالجمهور : أن المغضوب عليهم : اليهود؛ والضالين : النصارى ؛ وجاء ذلك مفسرا عن النبي صلى الله عليه وسلم في حديث هدى بن حاتم، وقصة إسلامه، أخرجه أبو داود الطيالسي في مسنده، والترمذي في جامعه، وشهد لهذا التفسير أيضا قوله سبحانه في اليهود: (وَبَايَعُوا بِغَضَبٍ مِنْ آتِهِ) . وقال: (وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ) . وقال في النصارى: (قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ) . وقيل : المغضوب عليهم، المشركون . والضالين، المنافقون . وقيل : المغضوب عليهم، هو من أسقط فرض هذه السورة في الصلاة؛ والضالين عن بركة قراءتها ؛ حكاه السلي في حقايقه، والماوردي في تفسيره - وليس بشيء - قال الماوردي : وهذا وجه مردود؛ لأن ما تمارضت فيه الأخبار، وتقاتلت فيه الآثار، وانتشر فيه الخلاف، لم يجوز أن يطلق عليه هذا الحكم . وقيل : للمغضوب عليهم اتباع البدع ، والضالين عن سنن الهدى . قال الشيخ المؤلف رحمه الله : وهذا حسن؛ وتفسير النبي صلى الله عليه وسلم أولى وأعدل وأحسن . وعظيم في موضع رفع؛ لأن المعنى غضب عليهم؛ والغضب في اللغة: الشدة؛ ورجل غضوب أي شديد الخلق . والغضوب: الحية الخبيثة، لشدةها والغضببة: الدرة من جلد البحر يطوى بعضها على بعض؛ سميت بذلك لشدةها . ومعنى الغضب في صفة الله تعالى إرادة ، فهو صفة ذاته ، وإرادة الله تعالى من صفات ذاته ؛ أو نفس العقوبة ومنه الحديث : "إن الصدقة لتطفئ غضب الرب" فهو صفة فعل .

الثالثة والثلاثون - (ولا الضالين) الضلال في كلام العرب هو الذهاب عن سنن القصد وطريق الحق ؛ ومنه : ضل القين في الماء أي غاب . ومنه : (أَعْمَأَضَلْنَا فِي الْأَرْضِ) أي غيبنا بالموت وصرفنا تزيها؛ قال :

الم آصال قنبرك الديار • عن الحى المضلل ابن ساروا

والضليلة : حجر أملس يرتد الماء فى الوادى ؛ وكذلك النضبة : حفرة فى الجبل عميقة لوتته ، قال :

• وغضبة فى مضبة ما أمنا •

الرابعة والثلاثون — قرأ عمر بن الخطاب ، وأبى بن كعب (غير المتصوب عليهم وغير الضالين) وروى عنهما فى الزاء النصب والخفض فى الحرفين ؛ فانخفض على البدل من الذين أو من الماء والميم فى عليهم ؛ أو صفة للذين والذين معرفة ولا توصف المعارف بالتركات ولا النكرات بالمعارف ، إلا أن الذين ليس بمقصود قصدهم فهو عام ؛ فالكلام بمنزلة قولك : إني لأشتر بمثلك فأكرمه ؛ أولان غير معروف لكونها بين شيئين لا وسط بينهما ، كما قول : الحى غير الميت ، والسكن غير المتحرك ، والقائم غير القاعد ، قولان : الأول للفارسى ، والثانى للزغشرى • والنصب فى الزاء على وجهين : على الحال من الذين ، أو من الماء والميم فى عليهم ، كأنك قلت : أغممت عليهم لا مفضو با عليهم أو على الاستثناء ؛ كأنك قلت : إلا المفضوب عليهم • ويجوز النصب بأخى وحكى عن الخليل •

الخامسة والثلاثون — لا ، فى قوله (ولا الضالين) اختلف فيها ، فقيل هى زائدة قاله الطبرى • ومنه قوله تعالى : (مَا مَلَكَ إِلَّا تَسْجُدٌ) وقيل : هى تأكيد دخلت لتلا يتوهم أن الضالين معطوف على الذين ، حكاه مكى ، والمهدوى • وقال الكوفيون : لا ، بمعنى غير وهى قراءة عمر وأبى وقد تقدم •

السادسة والثلاثون — الأصل فى الضالين : الضالين حذف حركة اللام الأولى ثم أدمت اللام فى اللام فاجتمع ما كان مدة الألف واللام المدغمة • وقرأ أيوب السخيتانى : ولا الضالين بهمزة غير ممدودة كأنه قرأ من اتقاء الساكنين وهى لنة • حكى أبو زيد قال : سمعت عمرو بن عبيد يقرأ : (فَيَوْمَئِذٍ لَا يَسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ) • فظننته قد لحن حتى سمعت من العرب : دابة وشابة ؛ قال أبو الفتح : وصل هذه اللفظة قول كثير :

• إذا ما الفوالى بالعيط احمازت •

تميز تفهيم صورة الحمد لله والحمد لله •

تفسير سورة البقرة

بِحَوْلِ اللَّهِ وَكَرَمِ لَارِبِّ سَوَاءٍ .

وأول مبدؤه به، الكلام في نزولها، وفضلها، وما جاء فيها؛ وهكذا كل سورة إن وجدت لها ذلك؛ فنقول :

سورة البقرة مدنية، نزلت في مدنتي؛ وقيل : هي أول سورة نزلت بالمدينة، إلا قوله تعالى : **(وَأَقْرَأُوا يَوْمَ تُنْجُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ)** فإنه أنشأه نزلت من السماء؛ ونزلت يوم الحرة حجة الوداع بيني؛ وآيات الرأيا أيضا من أوامر ما نزل من القرآن .

وهذه السورة فضلها عظيم وثوابها جسيم؛ ويقال لها : فسقاط القرآن؛ قاله خالد بن معدان؛ وذلك لعظمها وبهايتها، وكثرة أحكامها ومواظعتها؛ وتأمها عمر رضي الله عنه بفقهها وما تحتوي عليه في اثنتي عشرة سنة، وابنه عبد الله في ثمان سنين كما تقدم .

قال ابن العربي : سمعت بعض أشياخي يقول : فيها ألف أمر، وألف نهى، وألف حكم، وألف خبر؛ وبنت رسول الله صلى الله عليه وسلم بنتا وهم ذوو عدد وقدم عليهم أحدهم سنا، لحفظه سورة البقرة؛ وقال له : "انهب فانت أميرهم" أخرجه الترمذي عن أبي هريرة، ومحمد . وروى مسلم عن أبي أمامة الباهلي قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : **"اقرأوا سورة البقرة فإني أخذتها بركة، وتركها حسرة، ولا يستطيعها البطلة"** قال معاوية : يعني أن البطلة : السحرة . وروى أيضا عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : **"لا تجعلوا بيوتكم مقابر إن الشيطان ينفر من البيت الذي تقرأ فيه سورة البقرة"** وروى الدارمي عن عبد الله قال : ما من بيت يقرأ فيه سورة البقرة إلا خرج منه الشيطان وله ضراط . وقال : إن لكل شيء سناما، وإن سنام القرآن سورة البقرة؛ وإن لكل شيء كبا، وإن لباب القرآن المقتصل؛ قال أبو محمد الدارمي : الباب : الخالص . وفي صحيح النسائي عن سهل بن سعد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : **"إن لكل شيء سناما وإن سنام القرآن سورة البقرة ومن قرأها في بيته ليلا لم يدخل الشيطان بيته ثلاث**

ليال ومن قرأها نهارا لم يدخل الشيطان بته ثلاثة أيام * قال أبو حاتم البستي : قوله صل الله عليه وسلم : "لم يدخل الشيطان بته ثلاثة أيام" أراد : مرده الشياطين . وروى البخاري في مسنده عن الشعبي قال : قال عبد الله : من قرأ عشر آيات من سورة البقرة في ليلة لم يدخل ذلك البيت شيطان تلك الليلة حتى يصبح ، أربعا من أولها وآية الكرسي وآيتين بعدها وثلاثا خواتمها ، أولها : ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا﴾ . وعن الشعبي عنه لم يقر به ولا أهله يومئذ شيطان ولا شيء يكرهه ، ولا يقرآن على مجنون إلا أفاق . وقال : المنيرة بن سبيع : — وكان من أصحاب عبد الله — لم ينس القرآن . وقال إصحاق بن عيسى : لم ينس ما قد حفظ . قال أبو محمد البخاري : منهم من يقول : المنيرة بن سبيع . وفي كتاب الاستيعاب لابن عبد البر : وكان ليبد بن ربيعة [بن حاصر^(١)] بن مالك بن جعفر بن كلاب بن ربيعة بن طاهر بن صعصعة من شعراء الجاهلية ، أدرك الإسلام لحسن إسلامه وترك قول الشعر في الإسلام ، وسأله عمر في خلافته عن شعره وأستشده ؛ فقرأ : سورة البقرة ؛ فقال : إنما سألتك عن شعرك ؛ فقال : ما كنت لأقول بيتا من الشعر بعد إذ علمت الله البقرة وآل عمران ؛ فأعجب عمر قوله ؛ وكان حطائه ألفين فزاده خمسمائة . وقد قال كثير من أهل الأخبار : إن ليبيدا لم يقل شعرا منذ أسلم . وقال بعضهم : لم يقل في الإسلام إلا قوله :

الحمد لله إذ لم يأتي أجمل • حتى اكتسبت من الإسلام سرا

قال ابن عبد البر : وقد قيل إن هذا البيت لقردة بن قُفَّاة السلولي ، وهو أصح عندي ، وقال غيره : بل البيت الذي قاله في الإسلام :

ما عاتب المرء الكريم كفسه • والمرء يصلحه القرن الصالح

وسأى ماورد في آية الكرسي وخواتيم البقرة ، ويأتي في أول سورة آل عمران زيادة بيان لفصل هذه السورة إن شاء الله تعالى .

بسم الله الرحمن الرحيم رب يسر وأعن •

قوله تعالى : ﴿الْمَ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ﴾ الآية . اختلف أهل التأويل في الحروف التي في أوائل السور ؛ فقال عامر الشعبي ، وسفيان الثوري ، وجماعة من المحدثين : هي سر الله في القرآن ؛ وفي كل كتاب

(١) الزيادة عن كتاب الاستيعاب (ج ٦ ص ١٢٤٥) طبع الله •

من كتبه سر، فهي من التشابه الذي انفرد الله تعالى بعلمه؛ ولا يجوز أن تتكلم فيها؛ ولكن تؤمن بها
وقرأ كما جاءت؛ وروى هذا القول عن أبي بكر الصديق، وعن علي بن أبي طالب رضى الله عنهما .
وذكر أبو الليث السمرقندي عن عمر، وعثمان، وابن مسعود، أنهم قالوا : الحروف المقطعة من
المحكم الذي لا يفسر . وقال أبو حاتم : لم نجد الحروف المقطعة في القرآن إلا في أوائل السور؛
ولا ندرى ما أراد الله جل وعز بها .

قلت : ومن هذا المعنى ما ذكره أبو بكر الأنباري : حدثنا الحسن بن الحباب حدثنا أبو بكر بن
أبي طالب حدثنا أبو المنذر الواسطي عن مالك بن مغول عن سعيد بن مسروق عن الربيع بن خيثم قال :
إن الله تعالى أنزل هذا القرآن فاستأثر منه بلم ما شاء، وأطلعكم على ما شاء، فأما ما استأثر به لنفسه
فلمنم بنا عليه، فلا تسألوا عنه، وأما الذي أطلعكم عليه فهو الذي تسألون عنه، وتخبرون به، وما بكل
القرآن تعلمون، ولا بكل ما تعلمون تعلمون . قال أبو بكر : فهذا يوضح أن حروفا من القرآن سترت معانيها
عن جميع العالم، اختبأ من الله عز وجل وامتناعا؛ فمن آمن بها أتيب وسعد، ومن كفر وشك
أثم وبعد . حدثنا أبو يوسف بن يعقوب القاضي حدثنا محمد بن أبي بكر حدثنا عبد الرحمن بن مهدي
عن صفيان عن الأعمش عن حمارة عن حريث بن ظهير عن عبد الله قال : ما آمن مؤمن أفضل
من إيمان غيب؛ ثم قرأ : (الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ وَالْآتِيَب) .

قلت : هذا القول في التشابه وحكمه، وهو الصحيح على ما يأتي بيانه في آل عمران إن شاء
الله تعالى . وقال جمع من العلماء كبير : بل يجب أن تتكلم فيها، ونتمس القوائد التي تحتها،
والمعاني التي تخرج عليها، واختلفوا في ذلك على أقوال عديدة؛ فروى عن ابن عباس وعلى أيضا :
أن الحروف المقطعة في القرآن اسم الله الأعظم، إلا أننا لا نعرف تأليفه منها . وقال قطرب والفراء
وغيرهما : هي إشارة إلى حروف الهجاء أصل الله بها العرب حين تحداهم بالقرآن أنه مؤلف من حروف هي
التي منها بناء كلامهم، ليكون عجزهم عنه أبلغ في الحجة عليهم؛ إذ لم يخرج عن كلامهم . قال قطرب :
كانوا ينفرون عند استماع القرآن ؛ فلما سمعوا : (الْم) و (الْمَص) ؛ استنكروا هذا اللفظ ؛
فلما أفضت له صلى الله عليه وسلم أقبل عليهم بالقرآن المؤلف ليثبته في أسماعهم وأذانهم، ويقم الحجة
عليهم . وقال قوم : روى أن المشركين لما عرضوا عن سماع القرآن بكته وقالوا : (لَا تَسْمَعُوا

لَهُذَا الْقُرْآنِ وَالْعَوَّا فِيهِ) نزلت ليستغفروها فيفتحون لها أسماءهم فيسمعون القرآن بعدها فحجب عليهم الحجة . وقال جماعة : هي حروف دالة على أسماء أخذت منها وحذفت بقيتها ، كقول ابن عباس وغيره : الألف من الله ، واللام من جبريل ، والميم من محمد صلى الله عليه وسلم . وقيل : الألف مفتاح اسم الله ، واللام مفتاح اسمه لطيف ، والميم مفتاح اسمه مجيد . وروى أبو الضحى عن ابن عباس في قوله : (اَلَمْ) قال : أنا الله أعلم . (اَلرَّ) أنا الله أرى . (اَلْمَص) أنا الله أفصل . فالألف تؤدى عن معنى أنا ، واللام تؤدى عن اسم الله ، والميم تؤدى عن معنى أعلم . واختار هذا القول الزجاج وقال : أنجب الى أن كل حرف منها يؤدى عن معنى ، وقد تكلمت العرب بالحروف المقطعة نظما لها ووضعها بدل الكلمات التي الحروف منها ، كقوله :

• فقلت لما قفى قتالت قاف •

أراد : قالت وقتت . وقال زهير :

بالخير خيرات وإن شراً فإ • ولا أزيد الشر إلا أن تآ

أراد : وإن شراً فشر . وأراد : إلا أن تشاء .

وقال :

نا دهم ألا الجوا ألاتا • قالوا جميعا كلمهم ألاتا

أراد : ألا تتركبون ، قالوا : ألا فاركبوا . وفي الحديث : "من أمان على قتل مسلم بشطر كلمة" قال شقيق : هو أن يقول في اقتل : ائ كما قال عليه السلام : "كفى بالسف شامناه" شافيا . وقال زيد بن أسلم : هي أسماء للسور . وقال الكلبي : هي أقسام أقسم الله تعالى بها لشرفها وفضلها ، وهي من أسماء عن ابن عباس أيضا . ورد بعض العلماء هذا القول فقال : لا يصح أن يكون قسما لأن القسم معقود على حروف مثل : إن وقد ولقد وما ؛ ولم يوجد هاهنا حرف من هذه الحروف ، فلا يجوز أن يكون ميثا . والجواب أن يقال : موضع القسم قوله تعالى : (لَا رَيْبَ فِيهِ) فلو أن إنسانا حلف فقال : والله هذا الكذب لا ريب فيه ؛ لكان الكلام سديدا ، وتكون لا ، جواب القسم : ثبت أن قول الكلبي وما روى عن ابن عباس سديد صحيح .

فإن قيل : ما الحكمة في القسم من الله تعالى ؟ وكان القوم في ذلك الزمان على صفتين : مصدق ، ومكذب ، فالمصدق يصدق بغير قسم ، والمكذب لا يصدق مع القسم .

قيل له : القولا تزل بلفظ العرب ، والعرب إذا أراد بعضهم أن يؤكد كلامه أقسم على كلامه ، والله تعالى أراد أن يؤكد عليهم الحق ، فاقسم أن القرآن من عنده . وقال بعضهم : (آلم) أي أنزلت عليك هذا الكتاب من اللوح المحفوظ . وقال قتادة في قوله : (آلم) قال : اسم من أسماء القرآن . وروى عن محمد بن علي الترمذي أنه قال : إن الله تعالى أودع جميع ما في تلك السورة من الأحكام والقصص في الحروف التي ذكرها في أول السورة ، ولا يعرف ذلك إلا نبي أو ولي ، ثم بين ذلك في جميع السور ليفقه الناس . وقيل غير هذا من الأقوال ، فافقه أعلم .

والوقت من هذه الحروف على السكون لتفصلها إلا إذا أخبرت عنها أو صطفتها فذلك تعريفا ، واختلف : هل لما عمل من الإعراب ؟ فقيل : لا ، لأنها ليست بأسماء متمكنة ، ولا أفعالا مضارعة ، وإنما هي بمثابة حروف التهجى فهي عجيبة ، وهذا مذهب الخليل وسيبويه . ومن قال : إنها أسماء السور فوضعها عنده الرفع على أنها عنده خبر ابتداء مضمر ، أي هذه (آلم) كما تقول هذه سورة البقرة ، أو تكون رفعاً على الابتداء والخبر فذلك ، كما تقول : زيد ذلك الرجل . وقال ابن كيسان النحوي : (آلم) في موضع نصب ، كما تقول : اقرأ (آلم) أو عليك (آلم) وقيل : في موضع خفض بالقسم لقول ابن عباس : إنها أقسام أقسم الله بها .

قوله تعالى : (ذَلِكَ الْكِتَابُ) قيل : المعنى هذا الكتاب ، وذلك قد تستعمل في الإشارة إلى حاضر ، وإن كان موضوعا للإشارة إلى غائب ، كما قال تعالى في الإخبار عن نفسه جل وعز : (ذَلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ) ، ومنه قول خفاف بن نذبة :

أقول له والريح بأطرمته * تأمل خفاقا إنني أنا ذلكا

أي أنا هذا ، فذلك إشارة إلى أن القرآن ، موضوع موضع هذا ، تلخيصه : آلم هذا الكتاب لأرباب فيه ، وهذا قول أبي حنيفة ، وعكرمة ، وضريحما ، ومنه قوله تعالى : (وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ) (تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَنْتَلُوهَا عَلَيْكَ لَيْتُكَ) أي هذه ، لكنها لما تلخصت صارت كأنها بعلت ، فقيل

تلك . وفي البخاري وقال معمر : ذلك الكتاب ، هذا القرآن هدى للذين يسان ودلالة كقولهم :
(ذَلِكَ كِتَابُ اللَّهِ يُخَوِّدُكُمْ بِهِ) . هذا حكم الله .

قلت : وقد جاء هذا بمعنى ذلك ؛ ومنه قوله عليه السلام في حديث أم حرام : "يركبون شبح هذا البحر" أى ذلك البحر ؛ والله أعلم . وقيل هو على إبه إشارة على غائب .

واختلف في ذلك النائب على أقوال عشرة ؛ قيل : ذلك الكتاب ، أى الكتاب الذى كتبت على الخلائق بالسعادة والشقاوة والأجل والرزق لا ريب فيه أى لا مبدل له . وقيل : ذلك الكتاب ، أى الذى كتبت على نفسى فى الأزل ، أن رحمتى سبقت غضبى . وفى صحيح مسلم عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لما قضى الله الخلق كتب فى كتاب على نفسه فهو موضوع عنده أن رحمتى تغلب غضبى" فى رواية : «سبقت» . وقيل : إن الله تعالى قد كان وعدنيه عليه السلام أن يترلى عليه كتابا لا يحوه الماء ، فأشار إلى ذلك الوعد كما فى صحيح مسلم من حديث عياض بن حمار الجبلى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "إن الله نظر إلى أهل الأرض ففقتهم مريم وعجهم إلا بغايا من أهل الكتاب وقال إنما بشتك لأبتيك وأبتى بك وأزلت عليك كتابا لا يغسله الماء تعرفوه نائما ويقظان" الحديث . وقيل : الإشارة إلى ما قد نزل من القرآن بمكة . وقيل : إن الله تبارك وتعالى لما أنزل على نبيه صلى الله عليه وسلم بمكة : **(إِنَّا سَخَّطْنَا عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا)** لم يزل رسول الله صلى الله عليه وسلم مستشرفا لإنجاز هذا الوعد من ربه عز وجل ، فلما أنزل عليه بالمدينة : **(الَّذِي ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ)** كان فيه معنى ، هذا القرآن الذى أنزلته عليك بالمدينة ، ذلك الكتاب الذى وعدتك أن أوحى إليك بمكة . وقيل : إن ذلك إشارة إلى ما فى التوراة والإنجيل ؛ و **(الَّذِي اسْمُ الْفَرَّانِ)** ، والتقدير بهذا القرآن : ذلك الكتاب المسمى فى التوراة والإنجيل ؛ يعنى أن التوراة والإنجيل يشهدان بصحته ويستغرق ما فىهما ويؤيد طعما ما ليس فىهما . وقيل : إن ذلك الكتاب إشارة إلى التوراة والإنجيل كليهما ؛ والمعنى : الله ذاك الكتابان أو مثل ذين الكتابين ؛ أى هذا القرآن جامع لما فى ذين الكتابين فمهر بذلك عن الإثنين ، بشاهد من القرآن ، قال الله تبارك وتعالى : **(إِنَّمَا بُرِّئُوا لَكُمْ قَارِئُ وَلَا يَكْفُرُونَ بَيْنَ ذَلِكَ)** أى حوأن بين تينك : الفارض ، والبكر ، وسيتأتى . وقيل تيان ذلك إشارة إلى اللوح المحفوظ ؛ وقال الكسائى : ذلك إشارة إلى القرآن الذى فى السماء لم يزل يبدد .

وقيل : إن الله تعالى قد كان وعد أهل الكتاب أنه يزل على عهد صل الله عليه وسلم كتابا ؛ فالإشارة إلى ذلك الوعد . قال المبرد : المعنى هذا القرآن ، ذلك الكتاب الذي كنتم تستفتحون به على الذين كفروا . وقيل : إلى حروف المعجم في قول من قال : (أَلَمْ) الحروف التي تعديتكم بالنظم منها . والكتاب مصدر من كتب يكتب إذا جمع ؛ ومنه قيل : كتيبة لاجتماعها ، وتكتبت الخيل ، صارت كاتب ، وتكتبت البغلة ، إذا جمعت بين شفرى رحما بجلقة أوسير ؛ قال :

لا تأمنن فراريا حلت به • على قلوبك واكتبا بأسيار

والكتبة (بضم الكاف) : الخُرَّة ، والجمع كُتَبٌ ، والكتَبُ : الخُرَّز . قال فوالزمة :
وفراء خرفرة اغنى خوارزها • مشلش ضيمته ينها الكتب

والكتاب : هو خط الكتاب حروف المعجم مجموعة أو متفرقة ؛ ومسمى كتابا وإن كان مكتوبا كما قال الشاعر :

وقتل رجسة مني وفيها • كتاب مثل ما لصق الفراء

والكتاب : الفرض والحكم والتدبر ؛ قال الجعدي :

يا أبنة عمي كتاب الله أخرجني • عنكم وهل آمنن الله ما فعلا

قوله تعالى : (لا ريب) قى تام ؛ ولذلك نصب الريب به . وفي الريب ثلاثة معان . أحدها : الشك ؛ قال عبد الله بن الزبير :

ليس في الحق يا أمية ريب • إنما الريب ما يقول الجهول

وثانيها : التهمة ؛ قال جميل :

بينة قالت يا جميل أربتي • قتل كلاتا يابشين مريب

وثالثها : الحاجة ؛ قال :

فضينا من تامة كل ريب • وخيرهم أجمنا السيوف

فكتاب الله تعالى لا شك فيه ولا ارتياب ؛ والمعنى أنه في ذاته حق ، وأنه منزل من عند الله ، وصفة من صفاته ، غير مخلوق ولا محدث ، وإن وقع ريب للكفار . وقيل : هو خبر ومناه النبي ،

(١) مركب من مالك الأنصاري ؛ كما في اللسان مادة (ريب) .

أى لا تهابوا، وتم الكلام؛ كأنه قال ذلك الكتاب حقاً، وتقول : رابى هذا الأمر إذا أدخل عليك شكاً وخوفاً، وأرأب : صار غاربية فهو مريب وراوى أمره؛ وريب النهر : صروفه .

قوله تعالى : (فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ) فيه ست مسائل .

الأولى - قوله تعالى : (فِيهِ) الهاء في فيه في موضع خفض بنى . وفيه خمسة أوجه ؛
أجودها : فيه هدى ، وفيه فيه هدى بضم الهاء بغير واو وهى قراءة الزهرى وسلام أبى المنذر ،
وفيهِ لَيْسَ هدى بإثبات الياء وهى قراءة ابن كثير، ويموز فهو هدى بالواو، ويموز فيه هدى مدغمًا، وارتفع هدى على الابتداء والتجريد فيه ، والهدى في كلام العرب معناه الرشد والبيان، أى فيه كشف لأهل المعرفة ورشد وزيادة بيان وهدى .

الثانية - الهدى هديان : هدى دلالة، وهو الذى يهتدى به الرسل واتباعهم ، قال الله تعالى : (وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ) وقال : (وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) فأنيت لهم الهدى الذى معناه الدلالة والهدوة والتلبيه ، وتقرء هو سبحانه بالهدى الذى معناه التأييد والتوفيق ، فقال لنبيه صلى الله عليه وسلم : (إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ) فالهدى على هذا معنى ، بمعنى خلق الإيمان في القلب ، ومنه قوله تعالى : (أَوَلَيْكَ مَلَأَ هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ) وقوله : (وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ) . والهدى : الاهتداء ومعناه راجع الى معنى الإرشاد كيفما تصرف ، قال أبو المعلى : وقد ترد الهداية والمراد بها إرشاد المؤمنين الى مسالك الجنان والطرق المفضية إليها ، من ذلك قوله تعالى في صفة المجاهدين : (فَلَنْ يَضِلَّ أَعْمَالُهُمْ سَبِيلَهُمْ) ومنه قوله تعالى : (فَأَهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ الْجَحِيمِ) معناه فاسلكوهم إليها .

الثالثة - الهدى لفظ مؤنث . قال الفراء : بعض بنى أسد تؤنث الهدى فتقول : هذه هدى حسنة . وقال الخبائى : هو مذكر، ولم يعرب لأنه مقصور والألف لا تتحرك، ويتعدى بحرف وبغير حرف، وقد مضى في الفاعلة تقول : هديته الطريق وإلى الطريق، والدار وإلى النار أى عرفته، الأولى لغة أهل الحجاز والثانية حكاهما الأخفش . وفى التثنية : (اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ) و (اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ) . وقيل : إن الهدى اسم من أسماء التهان، لأن الناس يهتدون فيه لما يشتم ويجمع ما يرغب ، ومنه قول ابن مقبل :

(١) أى بهد الهاء من (فيه) .

[حتى استبلت الهدى واليبد هاجمة • يخشع في الآن غلغا أو يصليتا]

الزامة — قوله تعالى : (للتقين) خص الله تعالى للتقين بهدايته وإن كان هدى لخاص أجمعين
تتميزوا لهم ، لانهم آمنوا وصدقوا بما فيه . وروى عن أبي ذؤيب أنه قال : هدى للتقين ، أى كرامة
لهم ، يعنى إنا أضاف إليهم إجلالهم وكرامة لهم وبينا تفضلهم . وأصل للتقين : للوثقين بيامين .
عنفتين حذفت الكسرة من الياء الأولى لظنها ثم حذفت الياء لالتقاء الساكنين وأبدلت الواو تاء
على أصلهم في اجتماع الواو والتاء وأدغمت التاء في التاء فصارت للتقين .

الخامسة — التقوى يقال أصلها في اللغة : قلة الكلام ، حكاه ابن فارس . قلت : ومنه الحديث :
« أتى ملجم والمتى فوق المؤمن والطالح » وهو الذى يشقى بصالح عمله وخالف دمايته عذاب الله
تعالى ، مأخوذ من اتقاء المكروه بما يجعله حائرا بينك وبينه ، كما قال النابغة :

سقط التَّصَيُّفُ ولم يزد إسقاطه • فتأولته واتقتنا باليبد

وقال آخر :

فالتت قبيحا دونه الشمس واتقت • بأحسن موصولين كف ومعهم

ونخرج أبو محمد عبد الفتى الحافظ من حديث سعيد بن زريق أبى حبيدة عن عاصم بن بهلثة من
زيد بن حبيش عن كبن مسعود قال : قال يوما لابن أخيه : يا بن أئى ترى الناس ما أكثرهم ؟ قال :
نعم ، قال : لا خير فيهم إلا تأتب أو تئى ، ثم قال : يا بن أئى ترى الناس ما أكثرهم ؟ قلت : بلى ،
قال : لا خير فيهم إلا تألم أو تعلم . وقال أبو يزيد البسطامى : المتقى من إذا قال قال الله ، ومن إذا عمل
عمل الله . وقال أبو سليمان البزازى : المتقون الذين تزعج الله عن قلوبهم حب الشهوات . وقيل :
المتقى الذى اتقى الشرك وبرى من الفسق . قال ابن عطية : وهذا فاسد لأنه قد يكون كذلك وهو
فاسق . وسأل عمر بن الخطاب رضى الله عنه أبيا عن التقوى ، فقال : هل أخذت طريقا ذا شوك ؟
قال : نعم ، قال : فما عملت فيه ؟ قال : تشمرت وحذرت ، قال : فذلك التقوى ، وأخذ هذا المعنى
ابن المعتز فتنظمه :

خَلَّ الذُّنُوبَ صَغِيرَهَا • وَكَبِيرَهَا خَلَّكَ التَّقْوَى

وَأَصْنَحَ كَأَنَّ فَوْقَ أَرْ • عَنْ الشُّكِّ مَحْذَرَهَا يَرَى

لَا تَحْفَرَنَّ صَغِيرَةً • إِنَّ الْجِبَالَ مِنَ الْحَصَى

السادسة - التقوى، فيها جامع الخلق كله، وهي وصية الله في الأولين والآخرين، وهي خير ما يستفيد به الإنسان؛ كما قال أبو الدرداء وقد قيل له إن أصحابك يقولون الشعر وأنت ما حفظت منك شيء، فقال:

يُرِيدُ الْمَرْءُ أَنْ يُقَى مِنْهُ • وَيَأْتِي بِلِقَهِ إِلَّا مَا أَرَادَا

يَقُولُ الْمَرْءُ فَاتَّقَى وَمَلَى • وَتَقْوَى اللَّهِ أَفْضَلُ مَا اسْتَفَادَا

وروى ابن ماجه في سننه عن أبي أمامة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان يقول: "ما استفاد المرء بعد تقوى الله خيرا له من زوجة صالحة إن أمرها أطاعته وإن نظر إليها سرته وإن أقسم عليها أبرته وإن غاب عنها نصحت في نفسها وماله".

والأصل في التقوى: وتقوى على وزن فعلت الولوات من وقته أقبه أى منعه؛ ورجل تقى أى خائف، أصله وقى؛ وكذلك تهافت كانت في الأصل وقاة كما قالوا: نجده وقات، والأصل وجاء ووراث.

قوله تعالى: (الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ) فيها ست وعشرون مسئلة.

الأولى - قوله: (الذين) في موضع خفض تحت التقوى، ويموز الزرع على القطع أى هم الذين، ويموز النصب على اللوح. (يؤمنون) يصدقون، والإيمان في اللغة: التصديق، وهو شرطية (وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا) أى بصدق؛ ويتعدى بالياء واللام؛ كما قال: (وَلَا تَقْرَبُوا إِلَاهَ إِلَّا بِمَنْحِ دِينِكُمْ) (فَمَا آمَنَ لِمُوسَى) وروى حجاج بن حجاج الأحول - ويقب بفتح السين - قال سمعت قتادة يقول: يا أبا ندم، إن كنت لا تريد أن تأتي الخمر إلا عن تشاؤك فقل صلاة إلى الصلاة والفترة والملة؛ ولكن المؤمن هو المتأمل، والمؤمن هو المتقوى، والمؤمن هو المستند، وإن المؤمن

هم المجاجون إلى الله الليل والنهار؛ والله ما يزال المؤمن يقول : ربنا ربنا في السر والعانية حتى استجاب لهم في السر والعانية .

الثانية — قوله تعالى : (**بِالنَّيِّبِ**) النيب في كلام العرب : كل ما غاب عنك ، وهو من ذوات الياء ؛ يقال منه : غابت الشمس نيباً ، والنيبة معروفة ، وأغابت المرأة فهي مفية إذا غاب عنها زوجها ، ووقعنا في غيبة وغيابة ، أي هبطت من الأرض ؛ والنيابة : الأجمة ، وهي جماع الشجر يناب فيها ؛ ويسمى المطمئن من الأرض : النيب ، لأنه غاب عن البصر .

الثالثة — واختلف المفسرون في تأويل النيب هنا ؛ فقالت فرقة : النيب في هذه الآية : الله سبحانه . وضعفه ابن العربي . وقال آخرون : القضاء والقدر . وقال آخرون : القرآن وما فيه من النيوب . وقال آخرون النيب : كل ما أخبر به الرسول عليه السلام مما لا تهتدى إليه العقول من أشراط الساعة ، وعذاب القبر ، والحشر والنشر ، والصراط والميزان ، والجنة والنار . قال ابن عطية : وهذه الأقوال لا تتعارض بل يقع النيب على جميعها .

قلت : وهذا هو الإيمان الشرعي المشار إليه في حديث جبريل عليه السلام حين قال للنبي صلى الله عليه وسلم : « فاعبدي عن الإيمان » قال : أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وتؤمن بالقدر خيره وشره ؛ قال : « صدقت » وذكر الحديث . وقال عبد الله بن مسعود : ما آمن مؤمن أفضل من إيمان نبيي ، ثم قرأ : (**الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالنَّيِّبِ**)

قلت : وفي التثنية : (**وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ**) وقال : (**الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ**) . فهو سبحانه ظالمهم من الأضمار ، غير مبني في هذه الدار ، غير غائب بالنظر والاستدلال ؛ فهم يؤمنون أن لهم رباً قادراً يمازى على الأعمال ، فهم يخشونه في سرراتهم ، وخلواتهم التي يفيون فيها عن الناس ، لعلمهم بإصلاحه عليهم ؛ وعلى هذا تنطبق الآية ولا تتعارض ؛ والحمد لله .

وقيل بالنيب ، أي ضياعهم وقلوبهم ، بخلاف المنافقين ؛ وهذا قول حسن . وقال الشاعر :

وبالنيب آتينا وقد كان قوماً • يصلون لأوثان قبل محمد

الرابعة - قوله تعالى : (وَيُحْمُونَ آلَ صَالَةَ) مطوف جملة على جملة ، وإقامة الصلاة أداؤها بأركانها وسننها وعبادتها في أوقاتها على ما يأتي بيانه ، يقال : قام الشيء أى دام وثبت ، وليس من القيام على الرجل ، وإنما هو من قولك : قام الحق أى ظهر وثبت ، قال الشاعر :

• وقامت الحرب بنا على ساق •

وقال آخر :

وإذا يقال أقيمتم لم يرحسوا • حتى تقيم الخيل سوق طعان

وقيل : يقيمون ، يدينون ، وأقامه : أى أدامه ، وإلى هذا المعنى أشار عمر بقوله : من حفظها وحافظ عليها حفظ دينه ، ومن ضيعها فهو لما سواها أضيّع •

الخامسة - إقامة الصلاة معروفة ، وهى سنة عند الجمهور ، ولا إعادة على تركها ، وعند الأوزاعي ، وعطاء ، ومجاهد ، وابن أبى ليلى ، هى واجبة وعلى من تركها الإعادة ، وبه قال أهل الظاهر • وروى عن مالك ، وأخذه ابن العربى قال : لأن فى حديث الأعرابي : " وأقم " فاحمله بالإقامة كما أمره بالتكبير والاستقبال والوضوء •

قال : فاما أتم الآن وقد وقفتم على الحديث ، فقد نعين عليكم أن تقولوا بإحدى روايتي مالك الموافقة للحديث وهى أن الإقامة فرض • قال ابن عبد البر قوله صلى الله عليه وسلم : " وتحرر بها التكبير " دليل على أنه لم يدخل فى الصلاة من لم يحرم ، فسا كان قبل الإحرام لحكمه ألا تعاد منه الصلاة إلا أن يحرموا على شيء ، فيسلم للإجماع كالطهارة والقبلة والوقت ونحو ذلك ، وقال بعض علماءنا : من تركها عمدا أعاد الصلاة ، وليس ذلك لوجوبها إذ لو كان ذلك لا ستوى سبورها وعمدها ، وإنما ذلك للاستغفاف بالسنة والله أعلم •

السادسة - واختلف العلماء فيما سمع الإقامة هل يسرع أولا ؟ فذهب الأكثر إلى أنه لا يسرع وإن خاف فوت الركعة لقوله عليه السلام : " إذا أقيمت الصلاة فلا تأتوها تسعون وأتوها تمشون عليكم السكينة فإدركتم فصلوا وما فاتكم فاتموا " رواه أبو هريرة أخرجه مسلم ، وعنه أيضا قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إذا نُوبَ بالصلاة فلا يسئ إليها أحدكم ولكن يمشى وعليه السكينة والوقار ، مثل ما أدركت وأفيض ما سبقك " وهذا نص ، ومن جهة المعنى أنه

إذا أسرع انهر فتشوش عليه دخوله في الصلاة وقراءتها وخشوعها . وذهب جماعة من السلف منهم ابن عمر ، وابن مسعود ، على اختلاف عنه أنه إذا خاف فواتها أسرع ، وقال إسحاق : يسرع إذا خاف فوات الركعة ؛ وروى عن مالك نحوه ، وقال : لا بأس لمن كان على فرس أن يعرك الفرس ، وتأوله بعضهم على الفرق بين الماشي والراكب لأن الراكب ، لا يكاد أن ينبر كما ينبر الماشي .

قلت : واستعمال حنة رسول الله صلى الله عليه وسلم في كل حال أولى ، فيمشي كما جاء الحديث وعليه السكينة والوقار ، لأنه في صلاة ؛ وعالم أن يكون خبره صلى الله عليه وسلم على خلاف ما أخبر ، فكأن الداخل في الصلاة يلزم الوقار والسكون ، كذلك الماشي ، حتى يحصل له التشبه به فيحصل له ثوابه ، وما يدل على صحة هذا ما ذكرناه من السنة ؛ وما خرجته الدرايم في مستنده ، وقال حنشا محمد بن يوسف قال حدثنا سفيان عن محمد بن عجلان عن المقبري عن كعب بن عجرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إذا توضأت فمضت إلى المسجد فلا تشبك بين أصابعك فإنك في صلاة " ففتح صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث وهو صحيح بما هو أقل من الإسراع ، وجعله كالتمشي ، وهذه السنن ثين معنى قوله تعالى : (فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ) وأنه ليس المراد به الاشتداد على الأقدام ، وإنما على العمل والفعل ، هكذا فسر مالك ، وهو الصواب في ذلك والله أعلم .

السابعة - واختلف العلماء في تأويل قوله عليه السلام : "وما فاتكم فأتوا" وقوله : "وأتوا" ما سبقك هل هما بمعنى واحد أولا ؟ فقول : هما بمعنى واحد وأن التفضيل قد يطلق ويراد به التمام ، قال الله تعالى : (فَإِنَّا قُضِيَيتُ الصَّلَاةُ) وقال : (فَإِنَّا قُضِيَيتُ مَنَاسِكُكُمْ) . وقيل : معناهما مختلف وهو الصحيح ، ويترتب على هذا الخلاف خلاف فيما يتركة الداخل ، هل هو أقل صلاته أو آخرها ؟ فنذهب إلى الأول جماعة من أصحاب مالك ، منهم ابن القاسم ولكنه يقضى ما فاته بالحمد وسورة ، فيكون بائيا في الأفعال قاضيا في الأقوال . قال ابن عبد البر : وهو المشهور من المذهب . وقال ابن خواز مناذ : وهو الذي عليه أصحابنا ، وهو قول الأوزاعي ، والثاني ، وعبد بن الحسن ، وأحمد بن حنبل ، والطبري ، وداود بن علي . وروى أشهب وهو الذي ذكره ابن عبد الحكم عن مالك ، ورواه عيسى عن ابن القاسم من ذلك ، أن ما لم يركع فهو لأشبه ، وأنه يكون قاضيا في الأفعال والأقوال ، وهو قول الكوفي . قال القاضي أبو محمد عبد الوهاب : وهو مشهور مذهب مالك . قال ابن عبد البر : من

جعل ما أدرك أول صلاته فاعتهم راعوا الإحرام لأنه لا يكون إلا في أول الصلاة، والشاهد والتسليم لا يكون إلا في آخرها، فمن هنا قالوا: إن ما أدرك فهو أول صلاته، مع ما ورد في ذلك من السنة من قوله: "فأتموا" واتمام هو الآخر.

واحتج الآخرون بقوله: "فأقضوا" والذي يقضيه هو الفائت، إلا أن رواية من روى: فأتوا أكثر، وليس يستقيم على قول من قال: إن ما أدرك أول صلاته ويطرد، إلا ما قاله عبد العزيز بن أبي سلمة الماجشون، والمزني، وإسحاق، وداود، من أنه يقرأ مع الإمام بالحمد وسورة إن أدرك ذلك معه، وإذا قام للقضاء قرأ بالحمد وحدها، فهؤلاء اطرد على أصلهم قولهم وعلفهم، رضى الله عنهم.

الثامنة — الإقامة تمتع من ابتداء صلاة نافلة؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إذا أقيمت الصلاة فلا صلاة إلا المكتوبة" خرج مسلم وغيره؛ فأما إذا شرع في نافلة فلا يقطعها لقوله تعالى: ﴿وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾ وخاصة إذا صل ركعة منها؛ وقيل: يقطعها، لعموم الحديث في ذلك والله أعلم.

التاسعة — واختلف العلماء فيما دخل المسجد ولم يكن ركع ركعتي الفجر، ثم أقيمت الصلاة؛ فقال مالك: يدخل مع الإمام ولا يركعها؛ وإن كان لم يدخل المسجد، فإن لم يخف فوت ركعة فليركع خارج المسجد، ولا يركعها في شيء من أقبية المسجد — التي تصل فيها الجمعة — اللاصقة بالمسجد؛ وإن خاف أن يفوته الركعة الأولى فليدخل وليصل معه، ثم يصلها إذا طلعت الشمس، أحب إلى وأفضل من تركها؛ وقال أبو حنيفة وأصحابه: إن خشي أن يفوته الركعتان ولا يدرك الإمام قيل رفعه من الركوع في الثانية دخل معه، وإن رجا أن يدرك ركعة صلى ركعتي الفجر خارج المسجد، ثم يدخل مع الإمام، وكذلك قال الأوزاعي؛ إلا أنه يجوز ركوعهما في المسجد ما لم يخف فوت الركعة الأخيرة؛ وقال الثوري: إن خشي فوت ركعة دخل معهم ولم يصلها، وإلا صلاهما وإن كان قد دخل المسجد. وقال الحسن بن علي ويقال ابن حبان: إذا أخذ المقيم في الإقامة فلا تطوع إلا ركعتي الفجر. وقال الشافعي: من دخل المسجد وقد أقيمت الصلاة دخل مع الإمام ولم يركعها لا خارج المسجد ولا في المسجد؛ وكذلك قال الطبري وبه قال أحمد بن حنبل؛ وحكي عن مالك وهو الصحيح في ذلك لقوله عليه السلام: "إذا أقيمت الصلاة فلا صلاة إلا المكتوبة" وذكرنا البجري

إثنا سنة، وإما فضيلة، وإما رغبة، وإلحجة عند التنازع حجة السنة، ومن حجة قول مالك المشهور وأبي حنيفة، ما روى عن ابن عمر : أنه جاء والإمام يصلي صلاة الصبح فصلما في حجرة خفصة، ثم إنه صلى مع الإمام . ومن حجة الثوري والأوزاعي ما روى عن عبد الله بن مسعود : أنه دخل المسجد وقد أقيمت الصلاة فصل إلى اسطوانة في المسجد ركعتي الفجر، ثم دخل الصلاة بحضور من حذفة وأبي موسى رضي الله عنهما . قالوا : وإذا جاز أن يشتغل بالنافلة عن المكتوبة خارج المسجد جاز له ذلك في المسجد، روى مسلم عن عبد الله بن مالك بن بحينة قال : أقيمت صلاة الصبح فرأى رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلا يصلي ولم يؤذن يقيم، فقال : «أصلي الصبح أربعا» ! وهذا إنكار منه صلى الله عليه وسلم على الرجل، لصلاته ركعتي الفجر في المسجد والإمام يصلي، ويمكن أن يستدل به أيضا على أن ركعتي الفجر إن وقعت في تلك الحال صحت؛ لأنه عليه السلام لم يقطع عليه صلاته، مع تمكنه من ذلك، والله أعلم .

العاشر - الصلاة أصلها في اللغة : اللطء، مأخوذة من صلى يصل إذا دعا، ومنه قوله عليه السلام : «إذا دعى أحدكم إلى طعام فليجب، فإن كان مفطرا فليطعم وإن كان صائما فليصم» أي فليدع . وقال بعض العلماء : إن المراد الصلاة المعروفة، فيصلي ركعتين وينصرف؛ والأوّل أشهر، وعليه من العلماء الأكثر . ولما ولدت أسماء عبد الله بن الزبير أرسلته إلى النبي صلى الله عليه وسلم، قالت أسماء : ثم مسح صلى الله عليه، أي دعا له . وقال تعالى : ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾ أي أدع لهم .

وقال الأعشى :

تهول بتي وقد قربت مرتحلا • يا رب جنب أبي الأوصاب والوجبا
عليك مثل الذي صليت فاضمضي • يوما فإن جنب المرء مضطجبا

وقال الأعشى أيضا :

وقابلها المرح في دنيا • وصل على دنيا ولو تيم

ارتسم الرجل : كبر ودعا، قاله في الصحاح . وقال قوم : هي مأخوذة من الصلاة وهو عرق في وسط الظهر ويخترق عند السج - فيكتشفه، ومنه أخذ المصل في سبق الخيل، لأنه يأتي في الخلبة

(و) رغبة أميري في غارات ج عبد الملك ورايم مالك بن هشيب في غارة الأوصاب

ورأسه عند صلوى السابق؛ فاشتقت الصلاة منه، إما لأنها جاءت ثانية للإيمان فشبهت بالمصل من الخليل، وإما لأن الراكع تنى صلواه. والصلاة مغرز التنب من الفرس، والاشتان صلوان؛ والمصل، «
تالى للسابق» لأن رأسه عند صلاة. وقال عليّ رضي الله عنه: سبق رسول الله صلى الله عليه وسلم
وصلى أبو بكر وثلاث عمر. وقيل: هي مأخوذة من الزوم؛ ومنه صلى بالنار إذا لزما؛ ومنه:
(تَصَلَّ نَارًا حَامِيَةً) قال الحارث بن عباد:

لم أكن من جئاتها علم الله. وإني بحرها اليوم صال

أى ملازم لحرها، وكَنَّ المعنى على هذا ملازمة العبادة على الحد الذى أمر الله تعالى به. وقيل:
هي مأخوذة من صليت العود بالنار إذا قومتها وليته بالصلاة؛ والصلاة: صلاة النار بكسر الصاد
ممدود، فإن تحمت الصاد قصرت، فقلت صلا النار، فكان المصل يقوم نفسه بالمعانة فيها ويلين
ويخضع؛ قال الخوارزمي:

فلاتجمل بأمرك واستنم. لسا صل عصاك كستديم

والصلاة: النداء؛ والصلاة: الرحمة، ومنه: «اللهم صل على عبدك الخليل». والصلاة:
العبادة؛ ومنه قوله تعالى: (وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ) الآية، أى عبادتهم. والصلاة: الغافلة؛
ومنه قوله تعالى: (وَأَمْرُ أَهْلِكَ بِالصَّلَاةِ). والصلاة: التسبيح؛ ومنه قوله تعالى: (قُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا
كَانَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ) أى من المصلين. ومنه: سبعة الضحى. وقد قيل فى تأويل: (فَسَجِدْ
بِحَمْدِكَ) فعلى: والصلاة: القراءة؛ ومنه قوله تعالى: (وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ) فهى فقط مشتركة.
والصلاة: بيت يصل فيه، قاله ابن فارس. وقد قيل: إن الصلاة اسم علم وضع لهذه العبادة فإن
الله تعالى لم يخل زماناً من شرع، ولم يخل شراً من صلاة، حكاه أبو نصر القشيري.

قلت: فلى هذا القول لا اشتقاق لما؛ وعلى قول الجمهور وهى:

الحادية عشرة—اختلف الأصوليون هل هى مبقاة على أصلها اللغوى الوضعى الابتدائى، وكذلك
الإيمان والزكاة والصيام والحج، والشرع إنما تصرف بالشروط والأحكام، وعلى تلك الزيادة من الشرع

(١) كما فى جميع الأصول، وفى اللسان مادة (صلا): «... ليس بن فصح» (٢) كان جميع الأصول
فى اللسان: «صلاه»

يصيرها موضوعة كالوضع الابتدائي من قبل الشرع ؛ هنا اختلافهم ، والأول أصح ، لأن الشريعة ثبتت بالعربية ؛ والقرآن نزل بها بلسان عربي مبين ؛ ولكن للعرب تحكم في الأسماء ، كالدابة وضعت لكل ما يدب ؛ خصصها العرف بالبهائم ؛ فكذلك لعرف الشرع تحكم في الأسماء والله أعلم .

الثانية عشرة - واختلف في المراد بالصلاة هنا ؛ فقيل : القرائن ؛ وقيل : القرائض والنوافل معا ؛ وهو الصحيح لأن اللفظ طم والمثني يأتي بهما .

الثالثة عشرة - الصلاة سبب للرزق ؛ قال الله تعالى : ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ ﴾ الآية على ما يأتي بيانه في طه إن شاء الله تعالى ، وشفاء من وجع البطن وغيره ؛ روى ابن ماجه عن أبي هريرة قال : سأل النبي صلى الله عليه وسلم فتهجرت فصليت ثم جلست ، فالتفت إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : " أشكيت دود ؟ " قلت : نعم يا رسول الله ؛ قال : " ثم فصل فإن في الصلاة شفاء " في رواية : " أشكيت دود " يعني تهتكى بطبك بالفارسية ؛ وكان عليه الصلاة والسلام إذا حربه أمر فزع إلى الصلاة .

الرابعة عشرة - الصلاة لا تصح إلا بشروط وفروض ؛ فمن شروطها : الطهارة ، وسبأى بيان أحكامها في سورة النساء والمائدة ، وستر العورة ، يأتي في الأعراف القول فيها إن شاء الله تعالى . وأما فروضها : فاستقبال القبلة ، والنية ، وتكبير الإحرام ، والقيام لها ، وقراءة أم القرآن ، والقيام لها ، والركوع والطمأنينة فيه ، ورفع الرأس من الركوع والاحتلال فيه ، والسجود والطمأنينة فيه ، ورفع الرأس من السجود ، والجلوس بين السجدين والطمأنينة فيه ، والسجود الثاني والطمأنينة فيه . والأصل في هذه الجملة حديث أبي هريرة في الرجل الذي صلى الله عليه النبي صلى الله عليه وسلم الصلاة لما أخل بها ، فقال له : " إذا قلت إلى الصلاة فأسبغ الوضوء ، ثم استقبل القبلة ، ثم كبر ، ثم اقرأ ما تيسر معك من القرآن ، ثم أركع حتى تطمئن راكعا ، ثم ارفع حتى تعتدل قائما ، ثم اسجد حتى تطمئن ساجدا ، ثم ارفع حتى تطمئن جالسا ، ثم اقل ذلك في صلاتك كلها " ترجمه مسلم ؛ ومثله حديث رفاعه بن رافع ، أن ترجمه الدارقطني وغيره . قال عطاءنا : فحين قوله صلى الله عليه وسلم أركان الصلاة ، وسكت عن الإقامة ، ورفع اليدين ، وعن حد القراءة ، وعن تكبير الاستتالات ، وعن التسبيح في الركوع والسجود ، وعن الجلوس

الوسطى، وعن التشهد، وعن الجلطة الأخيرة، وعن السلام، أما الإقامة وتعيين الفاتحة فقد مضى الكلام فيها؛ وأما رفع اليدين فليس بواجب عند جماعة العلماء، وطامة للفقهاء، لحديث أبي هريرة، وحديث رفاعة ابن رافع، وقال داود وبعض أصحابه يوجب ذلك عند تكبيرة الإحرام، وقال بعض أصحابه: الرفع عند الإحرام وعند الركوع وعند الرفع من الركوع واجب، وإن من لم يرفع يديه فصلاته باطلة وهو قول الحنفي، ورواية من الأوزاعي، واحتجوا بقوله عليه السلام: "صلوا كما رأيتموني أصلي" أخرجه البخاري؛ قالوا: فوجب علينا أن نفعل كما رأيناه يفعل، لأنه المبلغ عن الله مراده؛ وأما التكبير ما عدا تكبيرة الإحرام فمستنون عند الجمهور للحديث المذكور، وكان ابن قاسم صاحب مالك يقول: من أسقط من التكبير في الصلاة ثلاث تكبيرات لما فوقها جحد للمسوق قبل السلام، وإن لم يسجد بطلت صلاته، وإن نسي تكبيرة واحدة أو اثنين جحد أيضا للمسوق، فإن لم يفعل فلا شيء عليه، وروى عنه أن التكبيرة الواحدة لا سهو على من سها فيها، وهذا يدل على أن عظم التكبير وجماعته عنده فرض، وأن التسليم منه متجاوز عنه. وقال أصح بن الفرج، وجهد الله بن عبد الحكم: ليس من لم يكبر في الصلاة من أولها إلى آخرها شيء إذا كبر تكبيرة الإحرام، فإن تركه ساهيا جحد للمسوق، فإن لم يسجد فلا شيء عليه، ولا ينبغي لأحد أن يترك التكبير عابدا، لأنه سنة من سنن الصلاة، فإن فعل فقد أساء، ولا شيء عليه، وصلاته ماضية.

قلت: هذا هو الصحيح وهو الذي عليه جماعة فقهاء الأمصار من الشافعيين والكوفيين، وجماعة أهل الحديث، والمالكيين غير من ذهب مذهب ابن القاسم. وقد ترجم البخاري رحمه الله "باب إتمام التكبير في الركوع والسجود" وساق حديث مطرف بن عبد الله قال: صليت خلف علي بن أبي طالب أنا وعمران بن حصين، فكان إذا سجد كبر، وإذا رفع رأسه كبر، وإذا نهض من الركعتين كبر، فلما قضى الصلاة أخذ بيدي عمران بن حصين فقال: لقد ذكرني هذا صلاة محمد صلى الله عليه وسلم، أو قال: لقد صلى بنا صلاة محمد صلى الله عليه وسلم. وحديث عكرمة قال: رأيت رجلا عند مقام يكبر في كل خفض ورفع، وإذا قام وإذا وضع؛ فأخبرت ابن عباس فقال: أو ليس تلك صلاة النبي صلى الله عليه وسلم لا أم لك؟ فقال البخاري رحمه الله بهذا السبب على أن التكبير لم يكن معمولاً به عندهم. وروى أبو إسحاق السجسي عن يزيد بن أبي مرزوم عن أبي موسى الأشعري قال:

صل بنا على يوم الجبل صلاة أذكركم بها صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كان يكبر في كل خفض ورفع ، وقيام وقعود ، قال أبو موسى : إنما نسيناها وإما تركناها عمدا .

قلت : إنهم أعادوا الصلاة ! فكيف يقال من ترك التكبير بطلت صلاته ! ولو كان ذلك لم يكن فرق بين السنة والفرض ، والشئ إذا لم يجب أفراده لم يجب جميعه ، وبالله التوفيق .

الخامسة عشرة - وأما التسبيح في الركوع والسجود ففيه واجب عند الجمهور للحديث المذكور ، وأوجه إسحاق بن رافع ، وأن من تركه أعاد الصلاة ، لقوله عليه السلام : "أما الركوع فعظموا فيه الرب ، وأما السجود فاجتهدوا في البطء ، فممن أن يستجاب لكم" .

السادسة عشرة - وأما الجلوس والتشهد فاختلف العلماء في ذلك ، فقال مالك وأصحابه : الجلوس الأول والتشهد له ستان ، وأوجب جماعة من العلماء الجلوس الأول وقالوا : هو مخصوص من بين سائر الفروض بأن ينوب عنه السجود كالمرأى من المزابنة ، والقراض من الإجازات ، وكالوقوف بعد الاحرام لمن وجد الإمام راكعا ، واحتجوا بأنه لو كان سنة ما كان العائد لتركه تبطل صلاته كما لا تبطل بترك سن الصلاة ، احتج من لم يوجب به بأن قال : لو كان من فرائض الصلاة لرجع السأى عنه إليه حتى يأتي به ، كما لو ترك سجدة أو ركعة ، ويراعى فيه ما يراعى في الركوع والسجود من الولاء والزينة ، ثم يسجد لسبوه كما يصنع من ترك ركعة أو سجدة وآتى بهما . وفي حديث عبد الله ابن مسعود : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قام من ركعتين ونسى أن يتشهد فسيح الناس خلفه كما يجلس ثوب قائما قداما ، فلما فرغ من صلاته سجد بمجدتي السهو قبل التسليم ، فلو كان الجلوس فرضا لم يسقطه النسيان والسهو ، لأن الفرائض في الصلاة يستوى في تركها السهو والعمد إلا في المؤتم . واختفوا في حكم الجلوس الأخير في الصلاة وما الفرض من ذلك . وهي

السابعة عشرة - على خمسة أقوال :

أحدها : أن الجلوس فرض ، والتشهد فرض ، والسلام فرض ، ومن قال ذلك الشافعي وأحمد ابن حنبل في رواية ، وحكاه أبو مصعب في مختصره عن مالك وأهل المدينة ، وبه قال داود . قال الشافعي : من ترك التشهد الأول والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم فلا إعادة عليه ، وطيه سجدة السهو لتركه ، وإذا ترك التشهد الأخير ساهيا أو غاملا أعاد ، واحتجوا بأن بيان النبي صلى الله عليه وسلم

وصلى في الصلاة فرض، لأن أصل فرضها مجل يقتصر إلى اليان إلا ما خرج بدليل . وقيل قال صلى الله عليه وسلم : "صلاوا كما رأيتموني أصلي" .

القول الثاني : إن الجلوس والتشهد والسلام ليس بواجب ، وإنما ذلك كله سنة مسنونة ؛ هذا قول بعض البصريين ، وإليه ذهب إبراهيم بن أبيّة ، وصرح بقياس الجلسة الأخيرة على الأولى ، بخالف الجمهور وشذ ، إلا أنه يرى الإطاعة على من ترك شيئاً من ذلك كله . ومن حجتهم حديث عبد الله بن عمرو بن العاصي عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " إذا رفع الإمام رأسه من آخر سجدة في صلاته ثم أحلث فقد تمت صلاته " وهو حديث لا يصح على ما قاله أبو عمر ؛ وقد بيناه في كتاب المقتبس ^(١) . وهذا اللفظ إنما يسقط السلام لا الجلوس .

القول الثالث : إن الجلوس مقدار التشهد فرض ، وليس التشهد ولا السلام بواجب فرضاً . قاله أبو حنيفة وأصحابه وجماعة من الكوفيين ، واحتجوا بحديث ابن المبارك عن الإفريق عبد الرحمن ابن زياد ، وهو ضعيف ، وفيه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " إذا جلس أحدكم في آخر صلاته فأحدث قبل أن يسلم فقد تمت صلاته " قال ابن العربي : وكان شيخنا نحر الإسلام يشدها في اللهروس .

ويرى الخروج من الصلاة بضرطة . ابن الضراط من السلام عليكم

قال ابن العربي : وسلك بعض علماءنا من هذه المسئلة فرعين ضعيفين ، أما أحدهما : فروى عبد الملك بن عبد الملك : أن من سلم من ركعتين متتابعات فخرج اليان أنه كان على أربع ، أن يحزبه ؛ وهذا مذهب أهل العراق بعينه . وأما الثاني : فوقع في الكتب المنبوذة أن الإمام لما أحدث بعد التشهد حسدا وقبل السلام أنه يحزى من خلفه ؛ وهذا مما لا ينبغي أن يلتفت إليه في الفتوى ؛ فإن صحت به المجالس للذكرى .

القول الرابع : أن الجلوس والسلام فرض ؛ وليس التشهد بواجب ؛ ومن قال هذا مالك ابن أنس ، وأصحابه ، وأحمد بن حنبل في رواية ؛ واحتجوا بأن قالوا ؛ ليس شيء من ذلك كوجب إلا تكبيرة الإحرام ، وقراءة لم القرآن .

(١) في بعض الأصول : «المقتبس» .

القول الخامس : أن التشهد والجلوس واجب ، وليس السلام واجب ، قاله جماعة منهم إمام بن رَأَوَيْهِ ، واحتج إمام بن يحيى بن مسعود حين علمه رسول الله صلى الله عليه وسلم التشهد وقال له : " إذا فرضت من هذا فقد تمت صلاتك وقضيت ما عليك " قال البارقي : قوله : " إذا فرضت من هذا فقد تمت صلاتك " أدركه بعضهم عن زهير في الحديث ، ووصله بكلام النبي صلى الله عليه وسلم ، وفصله شبابة عن زهير ، وجعله من كلام ابن مسعود ، وقوله أشبه بالصواب من قول من أدركه في حديث النبي صلى الله عليه وسلم .. وشبابة ثقة وقد تابعه غسان بن الربيع على ذلك . جعل آخر الحديث من كلام ابن مسعود ، ولم يرفعه إلى النبي صلى الله عليه وسلم .

الثامنة عشرة - اختلف العلماء في السلام ، فقيل : واجب ، وقيل : ليس بواجب ، والصحيح وجوبه لحديث عائشة وحديث عليّ الصحيح خرجاه أبو داود والترمذي ورواه حفيان الثوري عن عبد الله ابن محمد بن عقيل عن محمد بن الحنفية عن عليّ قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " مفتاح الصلاة الطهور وتحريمها التكبير وتحليلها التسليم " وهذا الحديث أصل في إيجاب التكبير والتسليم ، وأنه لا يميز بينهما فیهما كما لا يميز عن الطهارة فیهما باتفاق ، قال عبد الرحمن ابن مهدي : لو افتتح رجل صلاته بسبعين أمنا من أسماء الله عز وجل ولم يكبر تكبيرة الإحرام لم يميزه ، وإن أحدث قيل أن يسلم لم يميزه ؛ وهذا تصحيح من عبد الرحمن بن مهدي لحديث عليّ ، وهو إمام في علم الحديث وعرفه صحيحه من سفيمة . وحسبك به !

وقد اختلف العلماء في وجوب التكبير عند الافتتاح وهي :

الثامنة عشرة - فقال ابن شهاب الزهري ، وسعيد بن المسيب ، والأوزاعي ، وعبد الرحمن ، وطائفة : تكبيرة الإحرام ليست بواجبة ، وقد روى عن مالك في المأموم ما يدل على هذا القول ، والصحيح من مذهبه إيجاب تكبيرة الإحرام وأنها فرض وركن من أركان الصلاة ، وهو الصواب وعليه الجمهور ، وكل من خالف ذلك لمحبوج بالسنة :

الخوفية عشرين - واختلف العلماء في اللفظ الذي يدخل به في الصلاة ، فقال مالك وأصحابه بوجوب العناء ، لا يميز إلا التكبير ، لا يميز منه تهليل ولا تسبيح ولا تعظيم ولا تحميد ، هذا قول المجازين وأكثر العراقيين ، ولا يميز عند مالك إلا : " الله أكبر " لا غير ذلك ، وكذلك قال الشافعي

وزاد : ويميز "الله الأكبر" و"الله الكبير" . والحجة لمالك حديث عائشة قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يستفتح الصلاة بالتكبير ، والقراءة (الحمد لله رب العالمين) . وحديث علي : ونحريمها التكبير ، وحديث الأعرجي : فكبر ؛ وفي سنن ابن ماجه حديث أبو بكر بن أبي شيبة وعلي بن محمد الطنافسي قال : حدثنا أبو أسامة قال : حدثني عبد الحميد بن جعفر قال : حدثنا محمد بن عمرو ابن عطاء قال : سمعت أبا حميد الساعدي يقول : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قام إلى الصلاة استقبل القبلة ورفع يديه ، وقال : "الله أكبر" وهذا نص صريح ، وحديث صحيح ، في تعيين لفظ التكبير ؛ قال الشاعر :

رأيت الله أكبر كل شيء • محاورة وأعظمه جنودا

ثم أنه يتضمن القدم ، وليس يتضمنه كبير ولا عظيم ، فكان أبلغ في المعنى والله أعلم .

وقال أبو حنيفة : إن انتفع بلا إله إلا الله يميزه ، وإن قال : اللهم اغفر لي لم يميزه ؛ وبه قال محمد بن الحسن . وقال أبو يوسف : لا يميزه إذا كان يحسن التكبير . وكان الحكم بن عتيبة يقول : إذا ذكر الله مكان التكبير أجزأه . قال ابن المنذر : ولا أعلمهم يختلفون أن من أحسن القراءة فهلل وكبر ولم يقرأ أن صلاته فاسدة ، فمن كان هنا منعه فالأزم له أن يقول لا يميزه مكان التكبير غيره ، كما لا يميز مكان القراءة غيرها ؛ وقال أبو حنيفة : يميزه التكبير بالفارسية وإن كان يحسن العربية . قال ابن المنذر : لا يميزه لأنه خلاف ما عليه جماعات المسلمين ، وخلاف ما علم النبي صلى الله عليه وسلم أمته ؛ ولا نعلم أحدا وافقه على ما قال والله أعلم .

الحادية والعشرون — وانفقت الأمة على وجوب النية عند تكبيرة الإحرام إلا شيأ روى عن بعض أصحابنا يأتي الكلام عليه في آية الطهارة ؛ وحقيقتها قصد التقرب إلى الأمر بفعل ما أمر به على الوجه المطلوب منه . قال ابن العربي : والأصل في كل نية أن يكون عقدها مع التلبس بالفعل للنوى بها ، أو قبل ذلك بشرط استصحابها ، فإن تمددت النية وطرأت غفلة فوقع التلبس بالعبادة في تلك الحالة لم يمتد بها ، كما لا يمتد بالنية إذا وقعت بعد التلبس بالفعل ؛ وقد رخص في تمددتها في الصوم لعظم الحرج في اقترانها به . قال ابن العربي : وقال لنسابة الحسين القروي : يفتقر حقلان : سمعت إمام الحرمين يقول : يحضر الإنسان عند التلبس بالمبلاة النية ، ويحذر النظر

في الصانع وحدوث العالم والنبوت حتى يقبى نظره الى نية الصلاة؛ قال : ولا يحتاج ذلك الى زمان طويل، وإنما يكون ذلك في أوج لحظة، لأن تعليم الجمل يقتصر الى الزمان الطويل، وتذكرها يكون في لحظة، ومن تمام النية أن تكون مستصحبة على الصلاة كلها، إلا أن ذلك لما كان أمرًا يتكرر منحه الشرع في عزوب النية في أثنائها، سمعت شيخنا أبا بكر الفهرى بالمسجد الأقصى يقول : قال محمد بن ميمون : رأيت أبا ميمون ربما بكل الصلاة فيعيدها، فقلت له ما هذا؟ فقال : حزيت نبي في أثنائها فلأجل ذلك أعيدتها .

قلت : فهذه جملة من أحكام الصلاة، وسائر أحكامها يأتي بيانها في مواضعها من هذا الكتاب بحول الله تعالى، فيأتي ذكر الركوع، وصلاة الجماعة، والقبلة، والمبادرة الى الأوقات، وبعض صلاة الخوف، في هذه السورة، ويأتي ذكر قصر الصلاة، وصلاة الخوف، في "النساء"، والأوقات، في "مؤد وسبحان والروم"، وصلاة الليل، في "المزمل"، وصعود السلوة، في "الأعراف"، وصعود الشكر، في "ص"، كل في موضعه إن شاء الله تعالى .

الثانية والعشرون - قوله تعالى : (وَمَا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ) رزقناهم : أعطيناهم، والرزق عند أهل السنة ما مع الانتفاع به، حلالا كان أو حراما، خلافا للفتنة في قولهم : إن الحرام ليس برزق لأنه لا يصح تملكه، وإن الله لا يرزق الحرام، وإنما يرزق الحلال، والرزق لا يكون إلا بمعنى الملك . قالوا : فلو نشأ حي مع النصوص ولم يأكل شيئا إلا ما أعطاه النصوص الى أن بلغ وقوى وصار لصا، ثم لم يزل يتخصص ويأكل ما تلصصه الى أن مات، فإن الله لم يرزقه شيئا، إذ لم يملكه، وإنه يموت ولم يأكل من رزق الله شيئا .

وهذا فاسد، والدليل عليه أنه الرزق لو كان بمعنى التملك لوجب ألا يكون الطفل مرزوقا، ولا البهائم التي ترعى في الصحراء، ولا السخال من البهائم، لأن لبن أمهاتها ملك لصاحبها دون السخال .

ولما اجتمعت الأمة على أن الطفل والسخال والبهائم مرزوقون، وأن الله تعالى يرزقهم مع كونهم غير مالكين علم أن الرزق هو النماء لأن الأمة مجمعة على أن العبد والإمام مرزوقون، وأن الله تعالى يرزقهم مع كونهم غير مالكين؛ فلم أن الرزق ما قلناه، لا ما قالوه، والذي يدل على أنه لا رازق سواه قوله الحق : (هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرِ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ) وقال : (إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ

ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ) وقال: (وَمَا مِنْ نَابَةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا) وهذا قاطع، فافقه تعالى رازق حقيقة، وابن آدم رازق تجزأ، لأنه يملك ملكا متزما، كما بيناه في الفاعلة؛ مرزوق حقيقة، كالبائس التي لا ملك لها؛ إلا أن الشيء إذا كان مأذونا له في تناوله فهو حلال حكما، وما كان منه غير مأذون له في تناوله فهو حرام حكما، وجميع ذلك رزق.

وقد تخرج بعض النبلاء من قوله تعالى: (كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلَدًا طَيِّبَةً وَرَبُّكُمْ فَكُورٌ) فقال: ذكر المنفرة بشير إلى أن الرزق قد يكون فيه حرام.

الثالثة والعشرون— قوله تعالى: (وَمَا رَزَقْنَاهُمْ) الرزق مصدر رزق يرزق رزقا، فالرزق بالفتح المصدر، وبالكسر الاسم، وجمعه أرزاق، والرزق: السطاء. والرازقة: ثياب كان [بيض^(١)]. وارتقى الجند: أخذوا أرزاقهم. والرزقة: المرة الواحدة؛ هكذا قال أهل اللغة، وقال ابن السكيت: الرزق بلغة أزد شنوءة: الشكر؛ وهو قوله عز وجل: (وَيَجْلُوْنَ رِزْقَكُمْ أَنْتُمْ تُكْذِبُونَ) أى شكرهم التكذيب. ويقول: رزقني أى شكرني.

الرابعة والعشرون— قوله تعالى: (يَتَّقُونَ) يتقون؛ يخرجون؛ والإهاق؛ إخراج المال من اليد؛ ومنه نفق البيع؛ أى خرج من يد البائع إلى المشتري. ونفقت الدابة: خرجت روحها؛ ومنه النافقاء بجر الربوع الذى يخرج منه إذا أخذ من جهة أخرى. ومنه المنافق لأنه يخرج من الإيمان أو يخرج الإيمان من قلبه؛ ونيفق السراويل معروفة وهو خرج الرجل منها. ونفق الزاد: نفى وأفققه صاحبه. وأفق القوم: نفى زابهم؛ ومنه قوله تعالى: (إِذَا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِقْرَاقِ).

الخامسة والعشرون— واختلف العلماء في المراد بالنفقة ههنا؛ فقيل: الزكاة المفروضة— روى عن ابن عباس— لمقارنتها الصلاة. وقيل: نفقة الرجل على أهله— روى عن ابن مسعود— لأن ذلك أفضل النفقة؛ روى مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "دينار أنفقته في سبيل الله، ودينار أنفقته في رقية، ودينار تصلقت به على مسكين، ودينار أنفقته على أهلك أعظمها أجرا الذى أنفقته على أهلك" وروى عن ثوبان قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

«أفضل دينار يتفق الرجل دينار يتفق على عياله، ودينار يتفق الرجل على نأبته في سبيل الله عز وجل، ودينار يتفق على أصحابه في سبيل الله» قال أبو قلابة: وبدأ باليال [ثم] قال أبو قلابة: وأي رجل أعظم أجراً من رجل يتفق على عياله صغار يتفقهم أو يتفقهم الله به ويتفقهم - وقيل: للمراد صدقة التطوع - روى عن الضحاك - نظراً إلى أن الزكاة لا تأتي إلا بلفظها المختص بها، وهو الزكاة، فإذا جاءت بلفظ غير الزكاة احتملت للفرض والتطوع، فإذا جاءت بلفظ الإهراق لم تكن إلا التطوع. قال الضحاك: كانت الثقة قريباً يتقربون بها إلى الله جل وعز على قدر جهلهم حتى زلت فرائض الصدقات والتسبُّحات في «برائة». وقيل: إنه الحقوق الواجبة العارضة في الأموال ما عدا الزكاة، لأن الله تعالى لما قرنه بالصلاة كان فرضاً، ولما عدل عن لفظها كان فرضاً سواها. وقيل: هو مأم، وهو الصحيح؛ لأنه تخرج عرج للدخ في الإهراق بما رزقوا، وذلك لا يكون إلا من الحلال: أي يؤتون ما أزمهم الشرع من زكاة وغيرها مما يمتن في بعض الأحوال مع ما تنهيه إليه. وقيل: الإيمان بالنبي: حفظ القلب، وإقام الصلاة: حفظ البدن، وما رزقاهم يتفقون: حفظ المال؛ وهذا ظاهر. وقال بعض المتقدمين في تأويل قوله تعالى: (وَمَا رَزَقْنَاهُمْ يُشْكِرُونَ) أي عما حللهم يعلمون، حكاه أبو نصر عبد الرحيم بن عبد الكريم القشيري.

قوله تعالى: (وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ) الآية، قيل: المراد مؤمنو أهل الكتاب، كعب الله ابن سلام وفيه زلت، وزلت الأولى في معنى العرب، وقيل: الآيتان جميعاً في المؤمنين، وعليه فأمراب الذين خفض على العطف، ويصح أن يكون رفعاً على الاستئناف أي وهم الذين؛ ومن جعلها في صفتين فأمراب الذين رفع بالابتداء وخبره أولئك على هدى؛ ويحتمل الخفضي عطفاً.

قوله تعالى: (بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ) يعني القرآن (وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ) يعني الكتب السابقة، بخلاف ما فعله اليهود والنصارى حسب ما أخبر الله عنهم في قوله: (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أُنْزِلَ اللَّهُ قَالُوا قُرْآنٌ مِثْلُ مَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا) الآية. ويقال: لما نزلت هذه الآية: (الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ وَالنَّبِيِّ) قالت اليهود والنصارى: نحن آمنّا بالنبي؛ فلما قال: (وَيُؤْمِنُونَ الصَّلَاةَ) قالوا: نحن نقيم الصلاة؛

(١) مثل قوله تعالى: «خذ من أموالهم صدقة الآية» قد قال ابن العربي أنها آية لآية: «والذين يذكرون الذهب والفضة الآية» أنظر صفحة ٣٨١ من الجزء الأول من تفسيره المطبوع بمصر سنة ١٣٣١هـ وكذلك روى الجصاص نسخها بما من مزين جدهلوزن.

فلما قال : (وَمَا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ) قالوا : نحن نتفق وتتصدق ؛ فلما قال : (وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ) . فزروا من ذلك . وفي حديث أبي ذر قال : قلت يا رسول الله كم كتابا أنزل الله ؟ قال : ٣٠٠ كتاب وأربعة كتب أنزل الله على شيت خمسين صحيفة ، وعلى أخنوخ ثلاثين صحيفة ، وعلى إبراهيم عشر صحائف ، وأنزل على موسى قبل التوراة عشر صحائف ، وأنزل التوراة والإنجيل والزيور والفرقان ٢٠٠ الحليث . أنعمه الحسين الأجرى ، وأبو حاتم البستي .

وهنا مسألة ، إن قال قائل : كيف يمكن الإيمان بجميعها مع تناقض أحكامها ؟ قيل له فيه جوابان أحدهما : أن الإيمان بأن جميعها نزل من عند الله ، وهو قول من أسقط التعبد بما تقدم من الشرائع . الثاني : أن الإيمان بالم يسخ منها ، وهذا قول من أوجب التزام الشرائع المتقدمة على ما يأتي بيانه إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : (وَالْآخِرَةُ هُمْ يَرْجُوهْنَ) . أى وبالبحث والنسهر ما ملون . واليقين : العلم دون الشك ؛ يقال منه : يقنت الأمر بالكسر يقنا ، وأيقنت واستيقنت وتيقنت كله بمعنى ؛ وأنا على يقين منه . وأما صارت إليه وأوا في قولك : موثق ، الضمة قبلها وأذا صغرته رددته إلى الأصل ؛ فقلت ميقن . والتصغير يرد الأشياء إلى أصولها وكذلك الجمع ، وربما صغروا باليقين عن الظن ، ومنه قول علمائنا في الجين اللغو : هو أن يحلف بالله على أمر يوقنه ، ثم يبين له أنه خلاف ذلك ، فلا شيء عليه ؛ قال الشاعر :

تَحْسَبَ هَوَاسٌ وَأَيْقَنَ أَتَى • بَهَا مَفْتَدٍ مِنْ وَاجِدٍ لَا أَغَامِرُهُ

يقول : تسم الأسد هواسي ، بظن أنني مفتد بها منه ، واستعصى نفسي فأتى بها ولا أقصم المهالك بمقاتلته . فاما الظن بمعنى اليقين فورد في التثنية وهو في الشعر كثير وسباني . والآخرة مشتقة من التأخر لتأخرها عما وتأخرنا عنها ، كما أن الدنيا مشتقة من الدنو على ما يأتي .

قوله تعالى : (أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ) قال النحاس أهل نجد يقولون : أولئك ، وبعضهم يقول : أولئك ، والكاتب لخطاب . قال الكسائي : من قال أولئك فواحدته ذلك ، ومن قال أولئك فواحدته ذلك ، وأشد ابن السكيت :

الآلک قوی لم یکنوا آثابة • وهل یعط الضلیل الا الالکا

وربما قالوا : أولک فی غیر العلاء ؛ قال الشاعر :

ذم المنازل بعد منزلة اللوی • والعیش بعد أولک الأيام

وقل تعالى : (إِنْ السَّعِ وَالْبَصَرِ وَالْقُوَادِ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا) وقال علمائنا إن

فی قوله تعالى : (من ربه) • ردًا علی القدرة فی قولهم : یخلقون إیمانهم وهداهم ، تعالى الله عن قولهم ؛ ولو کان كما قالوا لقال : « من أنفسهم » ؛ وقد تهدم الكلام فیہ وفی الهدی فلا معنى لإعادة ذک •

(وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) • هم ، یحوز أن یكون مبتدأ ثانیًا وخبره المفلحون ، والثانی وخبره خبر

الأول ؛ ویحوز أن تكون هم زائدة — یسمیها البصريون فاصلة والكوفيون عمادا — والمفْلِحون خبر أولک •

والفلاح أصله فی اللغة الشق والقطع ؛ قال الشاعر :

• إن الحدید بالحدید یفلح •

أی یشق ، ومنه فلاحه الأرضین إنما هو شقها للحرث ، قاله أبو عیبد ، ولذلک سمی الأکارف فلاحا ،

وقال الذی شقت شفته السفلى أفلح ، وهو بین الفلعة ، فکان المفلح قد قطع المصاعب حتى نال مطلوبه • وقد يستعمل فی الفوز والبقاء ، وهو أصله أيضا فی اللغة ، ومنه قول الرجل لامرأته : استغلی بأمرک ، معناه فوزی بأمرک ؛ وقال الشاعر :

لو کان حق مدرك الفلاح • أدركه ملاعب الرماح

وقال الأصمطي بن قریع السعدي فی الجاهلیة الجهلاء :

لکل هم من المذموم سمه • والمثی والصبح لا فلاح معه

يقول : ليس مع کمال اللیل والنهار بقاء ؛ وقال آخر :

نحس بلانا کما حل قبلنا • ونرجو الفلاح بعد عاد وحمیر

أی البقاء ؛ وقال حمید :

أفلح بما شئت فقد بورك بالضم • یف وقد یُخدَع الأریب

أى أبى بما شئت من كيس وحقى قد رمزق الأحق ويعرم العاقل . فنى وأولئك هم المفلحون
 أى الفائزون بالجنة والباقيون فيها . وقال ابن أبى إسحاق : المفلحون هم الذين أدرکوا ما طلبوا ونجوا
 من شر ما منه همروا ، والمعنى واحد . وقد استعمل الفلاح في السحور ؛ ومنه الحديث : حتى
 كاد يفوتنا الفلاح مع رسول الله صلى الله عليه وسلم . قلت : وما الفلاح ؟ قال : السحور ، أخرجه
 أبو داود ، فكأن معنى الحديث أن السحور به بقاء الصوم فلهذا سماه فلاحا . والفلاح بتشديد اللام ،
 للكاري في قول القائل^(١) .

لها وطل تكيل الزيت فيه . وفلاح يسوق لها حمارا

ثم الفلاح في العرف : الظفر بالمطلوب ، والنجاة من المهروب .

مسئلة - إن قال قائل كيف قرأ حزة : طيهم واليهم وليهم ، ولم يقرأ مع ربهم ولا فيهم
 ولا جنتهم ؟ فالجواب أن طيهم واليهم وليهم واليهم واليهم واليهم واليهم واليهم واليهم
 واليهم فافترت الماء على ضمتها ، وليس ذلك في فهم ولا من ربهم ولا جنتهم وواقع الكسائي في طيهم
 البلة واليهم اثنين على ما هو معروف من القراءة عنهما .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ الآية ؛ لما ذكر المؤمنين وأحوالهم ، ذكر الكافرين ومآلهم ،
 والكفر ضد الإيمان وهو المراد في الآية ؛ وقد يكون بمعنى بخود النعمة والإحسان ، ومنه قوله عليه
 السلام في النساء في حديث الكسوف : «ورأيت النار فم أو منظرا كاليدوم قط أظفح ورأيت أكثر
 أهلها النساء قيل يا رسول الله ؟ قال : «يكفرون» ؛ قيل أي كفروا بالله ؟ قال : «يكفرون المشبر
 ويكفرون الإحسان لو أحسنت إلى أحد من النمر كله ثم رأيت منك شيئا قالت ما رأيت منك خيرا
 قط» أخرجه البخاري وغيره . .

وأصل الكفر في كلام العرب : الست والتغطية ؛ ومنه قول الشاعر :

• في ليلة كفر النجوم غمامها •

أى سترها ، ومنه سمي الليل كافرا لأنه يغطي كل شيء بسواده ؛ قال الشاعر :

قَدْ كَرَا قَمَلًا رَيْبًا بَعْدَمَا • أَلْقَتْ دُكْلًا مَيْمَنًا فِي كَافِرٍ

(١) هو عربون أمر بالاجل ؛ كما في اللسان مادة (طح) .

(٢) حروطة بن صيرة المازني ، وصف النظم والناعمة ورواها إلى جنبها عند غروب الشمس . - اللسان مادة (كفر)

ذَكَاهُ يَضُمُ الْمَذَالَ وَالْمَذَاسِمَ لِلشَّمْسِ؛ وَمِنْهُ قَوْلُ الْآخَرِ:

فَوَرَدَتْ قَبْلَ انْبِلَاجِ الْفَجْرِ • وَأَبْنُ ذَكَاهُ كَامِنٌ فِي كَفَرٍ

أَيُّ فِي لَيْلٍ • وَالْكَافِرُ أَيْضًا ، الْبَحْرُ ، وَالنَّهْرُ الْعَظِيمُ ، وَالْكَافِرُ : الزَّارِعُ وَالْجَمْعُ كُفَّارٌ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ كَثِيلٌ غَيْثٌ أُنْجِبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ﴾ . بَنَى الزَّرَاعَ لِأَنَّهُمْ يَنْطَوْنُ الْحَبَّ ، وَرَمَادٌ مَكْفُورٌ : سَفَتَ الرِّيحُ عَلَيْهِ التُّرَابَ • وَالْكَافِرُ مِنَ الْأَرْضِ : مَا بَعْدَ عَنِ النَّاسِ لَا يَكْدُ يَتْلَهُ وَلَا يَمْزِيهِ أَحَدٌ ؛ وَمِنْ حُلِّ بَتْلِكَ الْمَوَاضِعِ فَهَمُّ أَهْلِ الْكُفُورِ ؛ وَيُقَالُ الْكُفُورُ : الْقَرَى •

قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ﴾ مَعْنَاهُ مُمْتَلِئٌ عَنْهُمْ الْإِنْتَارُ وَتَرَكَهُ ؛ أَيْ سِوَاهُ عَلَيْهِمْ هَذَا ؛ وَجِيءَ بِالِاسْتِغْنَاءِ مِنْ أَجْلِ التَّسْوِيَةِ ، وَمِثْلُهُ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَضْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ ﴾ •

وَقَالَ الشَّاعِرُ ،

وَلَيْسَ يَقُولُ النَّاسُ مِنْ ظُلُمَاتِهِ • سِوَاهُ صَحِيحَاتِ الْعِيُونِ وَعُورِهَا

قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ أَلَا نُنَزِّلُكُمْ ﴾ الْإِنْتَارُ : الْإِبْلَاجُ وَالْإِعْلَامُ ، وَلَا يَكْدُ يَكُونُ إِلَّا فِي تَخْوِيفٍ يَسَعُ زَمَانَهُ الْإِسْتِخَارَ ، فَإِنْ لَمْ يَسَعِ زَمَانَهُ لَلِاسْتِخَارِ كَانَ إِشَارًا وَلَمْ يَكُنْ إِثَارًا ؛ قَالَ الشَّاعِرُ :

أَنْذَرْتُ عَمْرًا وَهُوَ فِي مَهْلٍ • قَبْلَ الصَّبَاحِ فَقَدْ صَحَى عَمْرُو

وَيُنَادِرُ بَنُو قُلَانِ هَذَا الْأَمْرَ إِذَا خَوَّفَهُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا •

وَإِخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِي تَأْوِيلِ هَذِهِ الْآيَةِ ، فَقِيلَ : هِيَ عَامَةٌ وَمَعْنَاهَا الْخُصُوصُ فِيمَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْمَذَابِ ، وَسَبَقَ فِي عِلْمِ اللَّهِ أَنَّهُ يَمُوتُ عَلَى كُفْرِهِ ؛ أَرَادَ اللَّهُ تَعَالَى أَنْ يَعْلَمَ أَنَّ فِي النَّاسِ مِنْ هَذِهِ صِلَةٍ ، دُونَ أَنْ يَمِينَ أَحَدًا • وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَالْكَافِي : نَزَلَتْ فِي رُؤَسَاءِ الْيَهُودِ ، مِنْهُمْ حُجَيْبُ بْنُ أَبِي أَخْطَبٍ ، وَكُصْبُ بْنُ الْأَشْرَفِ وَنُظَرَاؤُهُمْ • وَقَالَ الرَّيْجُ بْنُ أَنَسٍ : نَزَلَتْ فِيمَنْ قَبْلَ يَوْمِ بَدْرٍ مِنْ قَادَةِ الْأَحْزَابِ ؛ وَالْأَوَّلُ أَصَحُّ ، فَإِنْ مِنْ مِثْلِ أَحَدٍ فَمَا مِثْلُ بَعْضٍ كَشَفَ الشَّيْبَ عَنْهُ بِمَوْتِهِ عَلَى الْكُفْرِ ، وَفَلَكٌ تَاخُلُ فِي ضَمَنِ الْآيَةِ •

قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ • مُوَاضِعُهُ رَفَعَ خَبَرَ إِنْ ، أَيْ إِنْ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا يُؤْمِنُونَ ، وَقِيلَ خَبَرُ الْإِسْتِغْنَاءِ ، زَمَانًا يَدْعُو بِمَقَامِ الصَّلَاةِ ؛ قَالَهُ ابْنُ كَيْسَانَ • وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ يَزِيدَ ، سِوَاهُ رَفَعَ بِالْإِسْتِغْنَاءِ ،

ما أنذرتهم أم لم تنذرهم الخبر، والجملة خبر إن . قال النحاس : أى أنهم يتألمون فلم تكن فيهم النذارة شيئاً . واختلف القراء في قراءة ما أنذرتهم ، فقرأ أهل المدينة ، وأبو عمرو ، والأعمش ، وعبد الله بن أبي إسحاق : أنذرتهم بتحقيق الأولى وتسهيل الثانية ، واختارها الخليل وسيبويه ، وهى لغة قريش^(١) وسعد بن بكر، وعليها قول الشاعر :

أيا ظلية الوعاء بين جلال • وبين النقا أنت أم أم سالم

هما أنت ألف واحدة؛ وقال الآخر :

تظاللت فاستشرقه فرقه • فقلت له أنت زيد الأرناب

وروى عن ابن جحيم أنه قرأ : (أنذرتهم أم لم تنذرهم) بحمزة لا ألف بعدها ، لحذف لانتفاء المميزين أولاً لأن أم تدل على الاستفهام كما قال الشاعر :

روح من الخى أم يصكر • وماذا يضريك لو تنظّر

أراد : أروح فاكنى بأم من الألف . وروى عن ابن أبي إسحاق أنه قرأ : ما أنذرتهم ؛ لحق المميزين وأدخل بينهما ألفاً للتأنيص بينهما . قال أبو حاتم : ويجوز أن تدخل بينهما ألفاً وتقف لتأنيص ؛ وأبو عمرو ، ونافع ، يملآن ذلك كثيراً ؛ وقرأ حمزة ، وطام ، والكسائي بتحقيق المميزين : أنذرتهم وهو اختيار أبي سعيد ، وذلك بعيد عند الخليل ؛ وقال سيبويه : يشبه في التثقل ضنواء قال الأخفش : ويجوز تخفيف الأولى من المميزين وذلك ردى لأنهم إنما يخفون بعد الاستئصال ، وبعد حصول الواحدة . قال أبو حاتم : ويجوز تخفيف المميزين جميعاً ؛ فهذه سبعة أوجه من القراءات عروجه فمن يجوز في غير القرآن ، لأنه مخالف للشواذ ؛ قال الأخفش : سعيد : تبدل من الحمزة هاء تقول : ها أنذرتهم ؛ كما يقال هياك وإياك ، وظل الأخفش في قول الله تعالى : (ها أنتم) إنما هي أنتم . قوله تعالى : (ختم الله على قلوبهم) الآية فيها عشر مسائل .

الأولى — قوله تعالى : (ختم الله) بين سبحانه في هذه الآية السامع لهم من الإيمان بقوله : ختم الله ، والختم مصدر ختمت الشيء ختماً فهو غنوم وغم شدد اللبابة ، ومعناه التغطية على الشيء

(١) هو عبارة كما في سيم البلدان لالتوت .

والاستيقاظ منه حتى لا يدخله شيء ، ومنه : ختم الكتاب والباب وما يشبه ذلك ، حتى لا يوصل إلى ما فيه ، ولا يوضع فيه شيء ما فيه .

وقال أهل المعاني : وصف الله تعالى قلوب الكفار بعشرة أوصاف : بالتم ، والطبع ، والضيق ، والمرض ، والرين ، والموت ، والقساوة ، والانصراف ، والحمية ، والإنكار ، فقال في الإنكار : **(قُلُوبُهُمْ مُّكَيِّدَةٌ وَهُمْ مُّسْتَكْبِرُونَ)** . وقال في الحمية : **(إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ)** . وقال في الانصراف : **(ثُمَّ أَنْصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهِ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ)** . وقال في القساوة : **(قَوْلِ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ)** . وقال : **(ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ)** . وقال في الموت : **(أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ)** . وقال : **(إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَسْمَعُونَ)** . وقال في الرين : **(كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)** . وقال في المرض : **(فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ)** . وقال في الضيق : **(وَمَنْ يُدْذَنْ يَضِلْ يُجْهَلْ صَدْرُهُ ضَيْقًا حَرِيًّا)** . وقال في الطبع : **(وَطَبَعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ لَعْنَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ)** . وقال : **(بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ)** . وقال في الختم : **(خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ)** . وسبأني بيأتها كلها في مواضعها إن شاء الله تعالى .

الثانية - الختم يكون محسوسا كما بينا ، ومعنى كما في هذه الآية ، فأنتم على القلوب : عدم الوعي من الحق سبحانه مفهوم خاطئاته والفكر في آياته ، وعلى السمع : عدم فهمهم للقرآن إذا نال عليهم أودعوا إلى وحدانيته ؛ وعلى الأبصار : عدم هدايتها للنظر في مخلوقاته ، وعجايب مصنوعات ، هذا معنى قول ابن عباس ، وابن مسعود ، وقتادة ، وغيرهم .

الثالثة - في هذه الآية أدل دليل وأوضح دليل ، على أن الله سبحانه خالق المحدث والضللال ، والكفر والإيمان ؛ فاعبروا أيها السامعون ، وتعبوا أيها المفكرون من عقول القلبية التافهة بخلاف إيمانهم ومذاهبهم ، فإن الختم هو الطبع فمن أين لهم الإيمان ولو جهلوا ؛ وقد طبع على قلوبهم ، وعلى سمعهم ، وجعل على أبصارهم غشاوة ، فتي يتدنون ؟ أو من عليهم من بعد الله إذا أضلهم وأسمهم وأعمى أبصارهم **(وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ)** . وكان فعل الله ذلك عللا فيمن أضله وخلله ، إذ لم يعمه حقا وجب له قتل صفة العدل ، وإنما منهم ما كان له أن يتفضل به عليهم ، لا ما وجب لهم .

فإن قالوا ، إن معنى الختم والطبع والفساوة : التسمية والحكم والإخبار بأنهم لا يؤمنون ، لا الفعل .
 قلنا : هذا فاسد ، لأن حقيقة الختم والطبع إنما هو فعل ما يصير به القلب مطبوعا مخنوما ، ولا يجوز
 أن تكون حقيقته التسمية والحكم ، ألا ترى أنه إذا قيل فلان طبع الكتاب وختمه ، كان حقيقته أنه
 فعل ما صار به الكتاب مطبوعا ومخنوما ، لا التسمية والحكم ، هذا ما لا خلاف فيه بين أهل اللغة ،
 ولأن الأمة مجمعة على أن الله تعالى قد وصف نفسه بالختم والطبع على قلوب الكافرين ، مجازاة لكفرهم ،
 كما قال تعالى : ﴿ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ ﴾ وأجمعت الأمة على أن الطبع والختم على قلوبهم من
 جهة النبي عليه السلام ، والملائكة ، والمؤمنين ، ممنوع ؛ فلو كان الختم والطبع هو التسمية والحكم لما
 امتنع من ذلك الأنبياء والمؤمنون ، لأنهم كلهم يسمون الكفار بأنهم مطبوع على قلوبهم ، وأنهم مخنوم
 عليها ، وأنهم في ضلال لا يؤمنون ، ويمكنون عليهم بذلك ، فنبت أن الختم والطبع هو معنى غير التسمية
 والحكم ، وإنما هو معنى يخلفه الله في القلب يمنع من الإيمان به ؛ دليله قوله تعالى : ﴿ كَذَلِكَ تَسْلُكُهُ
 فِي قُلُوبِ الْمُتَكِبِينَ . لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾ . وقال : ﴿ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ ﴾ . أى فلا
 يفقهوه ، وما كان مثله .

الراصة - قوله : ﴿ عَلَى قُلُوبِهِمْ ﴾ . فيه دليل على فضل القلب على جميع الجوارح ، والقلب للإنسان
 وفيه . وخالص كل شيء وأشرفه قلبه ؛ فالقلب موضع الفكر ، وهو في الأصل مصدر قلبت الشيء
 قلبه قلبا ، إذا رددته على بداهته ، وقلبت الإثارة ؛ وددته على وجهه ، ثم يقل هذا اللفظ فسمى به هذا
 العضو ، الذي هو أشرف الحيوان ، لسرعة انخراط إليه ، ولتردد ما عليه ؛ كما قيل :

ما متى القلب إلا من قلبه - فاحضر على القلب من قلب وتحويل

ثم لما قلت العرب هذا المصدر لهذا العضو الشريف ، التزمت فيه تسمية قافه ، فخرقنا بهذه
 وبين أصله ؛ روى ابن ماجه عن أبي موسى الأشعري عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « جعل
 القلب ريشة تغلب الرياح بخلافه » ولهذا المعنى كان عليه الصلاة والسلام يقول : « اللهم يا منبت
 القلوب ثبت قلوبنا على طاعتك » فإذا كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول مع عظيم قدره ، وجلال
 منصبه ، فتحن أولى بذلك ، اقتضاه به ؛ قال الله تعالى : ﴿ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ ﴾ .
 وسبباني .

الخامسة - الحلوحة : وإن مكنت ناجة القلب فقد سائر القلب وإن كان من جسمه لم يملكها - بأعمالها للارتباط الذي بين الظاهر والباطن ؛ قال صلى الله عليه وسلم : "إن الرجل ليصدق فتنتك في قلبه نكتة يضاء وإن الرجل ليكذب الكذبة فيسود قلبه" وروى الترمذي : وصححه عن أبي هريرة : "إن الرجل ليصيب الذنب فيسود قلبه فإن هو تاب صف قلبه" قال : وهو الزن الذي ذكره الله في القرآن في قوله : (كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ) . وقال مجاهد : القلب كالصف يقبض منه بكل ذنب أصح ، ثم يطبع .

قلت : وفي قول مجاهد هذا ، وقوله عليه السلام : "إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله إلا وهي القلب" دليل على أن الختم يكون حقيقيا والله أعلم . وقد قيل : إن القلب يشبه الصورة ؛ وهو ضد قول مجاهد . والله أعلم .

وقد روى مسلم عن حذيفة قال حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثين قد سألت أحدهما وأنا أنتظر الآخر ، حدثنا : "أن الأمانة زلت في جذر قلوب الرجال ثم زل القرآن فعلموا من القرآن وعلموا من السنة" ثم حدثنا عن رفع الأمانة قال : "ينام الرجل النومة فيقبض الأمانة من قلبه فيظل أثرها مثل الوكت ثم ينام النومة فيقبض الأمانة من قلبه فيظل أثرها مثل الجمل يحمر درجته على رجليك فتنطه ، قرأه متبرأ وليس فيه شيء ، ثم أخذ حصي فندرجه على رجليه فيصبح الناس يتبايعون لا يكاد أحد يؤدى الأمانة حتى يقال إن في بني فلان رجلا أميناً حتى يقال للرجل ما أجله ما أظرفه ما أحقه وما في قلبه متعلق حبة من نخل من إيمان ولقد أتى على زمان وما أبالي أياكم يايت ، إن كان مسلماً ليردته على سببه وإن كان نصرانياً أو يهودياً ليردته على سابعه وأما اليوم فما كنت لأباع منكم إلا فلانا وفلانا" .

قضى قوله : الوكت وهو الأثر اليسير ؛ ويقال للبسر إذا وقعت فيه نكتة من الأرباب قد وكت ، فهو موكت . وقوله : الجمل ، وهو أن يكون بين الجسد والقيم ماء ؛ وقد حسره النبي صلى الله عليه وسلم بقوله : "يحمر درجته" أي يورثه على رجليك فتنطه ، قرأه متبرأ أي صرخاً ، ما يبل على أشد ذلك كله محسوس في القلب وفعل فيه ؛ وكذلك الختم والطبع والله أعلم . وفي حديث حذيفة قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "نمرض القلوب كالصبر حودا لمعدودا" .

فَأَيُّ قَلْبٍ أَشْرَبُ نَيْتُكَ نَكْتَةُ سَوْدَاءَ وَأَيُّ قَلْبٍ أَنْكَرُهُ نَكْتَةُ قَيْضِ حَكَّةَ بِيضٍ سَحَى تَصِيرُ عَلَى قَلْبَيْنِ عَلَى أَبْيَضٍ مِثْلَ الصَّفَاءِ فَلَا تَضُرُّهُ فَتْسَةٌ مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَالْأَسْوَدُ مِرْبَادٌ كَالْكَوْذِ بَحْجِيًّا لَا يَعْرِفُ مَعْرُوفًا وَلَا يَنْكَرُ مَنَكًا إِلَّا مَا أَشْرَبَ مِنْ هَوَاءٍ وَذَكَرَ الْحَلِيتِ بَحْجِيًّا ، بَعْنِي مِثْلًا .

السادسة — القلب قد يبر عنه بالقواد والصدر؛ قال الله تعالى : (كَذَلِكَ لِنَبِّتَ بِهِ قُوتَكَ) . وقال : (أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ) يعني في الموضعين قلبك ، وقد يبر به عن العقل قال الله تعالى : (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ) أي عقل ؛ لأن القلب عمل العقل في قول الأَكْثَرِينَ ، والقواد عمل القلب ، والصدر عمل القواد . والله أعلم .

السابعة — قوله تعالى : (وَعَلَى سَمْعِهِمْ) استدل بها من فَضْلِ السَّمْعِ عَلَى الْبَصَرِ لِنَتَقَدِّمَ عَلَيْهِ . وقال تعالى : (قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَبَصَارَكُمْ) . وقال : (وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ) . قال : والسَّمْعُ يدرك به الجهات الست ، وفي النور والظلمة ، ولا يدرك بالبصر إلا من الجهة المتعاقبة ، وبواسطة من ضياء وشعاع . وقال أكثر المتكلمين بتفضيل البصر على السَّمْعِ لأنَّ السَّمْعَ لَا يدرك به إلا الأصوات والكلام ، والبصر يدرك به الأجسام والألوان والحبيبات كلها . قالوا : فلما كانت تعلقاته أكثر كان أفضل ؛ وأجازوا الإدراك بالبصر من الجهات الست .

الثامنة — إن قال قائل : لم جمع الأبصار ووجد السَّمْعُ ؟ قيل له : إنما وجد لأنه مصدر يقع للقليل والكثير ، يقال : سمعت الشيء أسمعه سما وسماعا ، فالسَّمْعُ مصدر سمعت ، والسَّمْعُ أيضا اسم للمارحة المسموع بها سميت بالمصدر . وقيل : إنه لما أضاف السَّمْعَ إِلَى الْجَمَاعَةِ دَلَّ عَلَى أَنَّهُ يراد به أَسْمَاعُ الْجَمَاعَةِ ؛ كما قال الشاعر :

بِهَا جِيفُ الْحَسْرِ فَأَمَّا عِظَامُهَا * فَيَبِضُ وَأَمَّا جِلْدُهَا فَصَلْبُ

إِنَّمَا جَرِدَ جِلْدُهَا فَوَحْدًا لِأَنَّهُ قَدْ حُلِمَ أَنَّهُ لَا يَكُونُ لِلْجَمَاعَةِ جِلْدٌ وَاحِدٌ .

وقال آخر في مثله :

لَا تَنْكَرُ الْقَتْلَ وَقَدْ ضَيَّيْتُ * فِي حَقِّكَ عِظَمٌ وَقَدْ ضَيَّيْتُ

يريد في حلوكم، ومثله قول الآخر :

كانه وجه تركين قد غضبا • مستهدف لطحان غير تذيب

وإنما يريد وجهين ، فقال وجه تركين لأنه قد علم أنه لا يكون للاثين وجه واحد ، ومثله كثير جدا . وقرئ : وعلى أسماعهم ، ويحتمل أن يكون المعنى وعلى مواضع سمعهم ، لأن السمع لا يتم وإنما يتم موضع السمع ، فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه . وقد يكون السمع بمعنى الاستماع ، يقال : سمعك حديثي - أي استماعك إلى حديثي - بمعنى ، ومنه قول ذي الرمة ، يصف ثورا تسمع إلى صوت صائد وكلاب :

وقد توجس ركزا مصفر ندس • بنبأة الصوت ما في سمعه كذب .

أي ما في استماعه كذب ، أي هو صادق الاستماع ، والندس : الخافق . والنبأة : الصوت الخفي ، وكذلك الركز . والسمع بكسر السين وإسكان الميم : ذكر الإنسان بالجميل ، يقال : ذهب سمع من الناس أي ذكره . والسمع أيضا : ولد الذئب من الضبع . ولوقوف هنا : وعلى سمعهم . وغشاوة رفع على الابتداء وما قبله خبره . والضاثر في قلوبهم وما عطف عليه من سبق في علم الله أنه لا يؤمن من كفار قريش ، وقيل من المنافقين ، وقيل من اليهود ، وقيل من الجميع ، وهو أصوب ، لأنه يم . فاحطم على القلوب والإسماح . والغشاوة على الأبصار . والغشاء : الغطاء . وهي :

التاسعة - ومنه غاشية السرج ، وغشيت الشيء غشيته قال النابغة :

هلا سألت بني ذبيان ما جسي • إذا النخاس نفث الأثمط البرما

وقال آخر :

صحتك إذ عيني عليها غشاوة • فلما انحلت قطعت نفسي الرومها

قال ابن كيسان : فإن جمعت غشاوة قلت : غشاء بجذف الهاء . وحكي الفراء : غشاوى مثل أداوى وقرئ : غشاوة بالنصب على معنى وجعل ، فيكون من باب قوله : علقها تينا وماء باردا ، وقول الآخر :

بأليت زوجك في الوفا • متقلبا سيفا ورعا

(١) هو الحادث بن ماله الخروبي : كما في اللسان مادة (غشا) .

المضى وأسقيتها ماء ، وحاملا ربحا ، لأن الربح لا يتفقد . قال الفارسي : ولا تكاد تجد هذا الاستعمال في حال سعة واختيار ؛ فقراءة الرفع أحسن ، وتكون الواو عاطفة جملة على جملة . قال : ولم أسمع من النشأوة فصلا متصرفا بالواو . وقال بعض المفسرين : للنشأوة على الأسماع والأبصار ؛ والوقف على قلوبهم . وقال آخرون : انلتم في الجميع ، والنشأوة هي انلتم فالوقف على هذا على غشأوة ؛ وقرأ الحسن غشأوة بضم الغين ، وقرأ أبو حنيفة : بفتحها ؛ وروى عن أبي عمرو : غشوة رده إلى أصل المصدر ؛ قال ابن كيسان : ويجوز غشوة وغشوة وأجودها غشأوة ؛ كذلك تستعمل العرب في كل ما كان مشتتلا على الشيء ، نحو عمامة وكأنة وقلادة وعصاية وغير ذلك .

الساخرة — قوله تعالى : (وَلَهُمْ) أى للكافرين المكثرين (عَذَابٌ عَظِيمٌ) نته ؛ والعذاب مثل الضرب بالسوط والحرق بالنار والقطع بالحديد ؛ إلى غير ذلك مما يؤلم الإنسان . وفي التزييل (وَلَيَسْهَدَنَّ مَذَاجُهَا طَائِفَةً مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ) وهو مشتق من الحبس والمنع ؛ يقال في اللغة : اعذبته عن كذا أى أحبسه وأمنه ، ومنه سمي مذوبة الماء لأنها قد أعذبت ، واستعذب بالحبس في الوطء ليصفو ويفارقه ما خاطله ؛ ومنه قول علي رضي الله عنه : أعذبوا نساءكم عن الخروج ، أى احبسوهن . ومنه رضي الله عنه وقد شجع سرية فقال : أعذبوا عن ذكر النساء فإن ذلك يكسرهم عن الغزو ؛ وكل من منعه شيئا فقد أعذبه ؛ وفي المثل : « لا تجنك بلاما معذبا » أى مانعا عن ركوب الناس ؛ ويقال : أعذب أى امتنع . وأعذب غيره فهو لازم ومتعد ؛ فسمى العذاب عذابا لأن صاحبه يحبس ويمنع عنه جميع ما يلائم الجسد من الخيروحال عليه أضلعهما .

قوله تعالى : (وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا) . فيه سبع مسائل :

الأولى — روى ابن جرير عن مجاهد قال : نزلت أربع آيات من سورة البقرة في المؤمنين ، واثنان في نعت الكافرين ، وثلاث عشرة في المنافقين . وروى أسباط عن السدي في قوله : (وَمِنَ النَّاسِ) قال : هم المنافقون . وقال علماء الصوفية : الناس اسم جنس ، واسم الجنس لا يخاطب به الأولياء .

الثانية — واختلف النحاة في لفظ الناس ، قليل : هو اسم من أسماء المجموع يجمع إنسان وإنسانة على غير اللفظ وتخصيص نوبس ، فالناس هي النوبس وهو الحركة يقال : نوبس نوبس أي

تحرك ، ومنه حديث أم زرع : « أناس من حل أذنى » ، وقيل : أصله من نسي فأصل ناس نسي قلب فصار نيس تحركت الياء فافتتح ما قبلها فأقبلت ألفاء ثم دخلت الألف واللام فقبل : الناس . قال ابن عباس : نسي آدم عهد الله فسمى إنسانا . وقال عليه السلام : « نسي آدم فنسيت ذريته » وفي التبريل : (ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسي) . وسيأتي ، وعلى هذا فالهمزة زائدة ؛ قال الشاعر :

لا تسمين تلك اليهود فلما • سميت إنسانا لأنتك ناسي

وقال آخر :

فإن نسيت يهودا منك ساقفة • فاعقر فأول ناس أول الناس

وقيل : سمى إنسانا لأنسه بجواه . وقيل : لأنسه بربه ، فالهمزة أصلية ؛ قال الشاعر :

وما سمى الإنسان إلا لأنسه • ولا القلب إلا أنه يتقلب

الثالثة — لما ذكر الله جل وتعالى للمؤمنين أولا ، وبدأ بهم لشرفهم وفضلهم ، ذكر الكافرين في مقابلتهم ، إذ الكفر والإيمان طرفان ، ثم ذكر المنافقين بعدهم والحفهم بالكافرين قبلهم ، لنفي الإيمان عنهم بقوله الحق : (وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ) . ففى هذا رد على الكرامية حيث قالوا : إن الإيمان قول باللسان وإن لم يستند بالقلب ، واحتجوا بقوله تعالى : (فَأَتَيْنَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا) . ولم يقل : بما قالوا وامضوا ؛ وجوابه عليه السلام : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم » وهذا منهم قصور وجود ، وترك نظر لما نعلق به القرآن والسنة من العمل مع القول والاعتقاد ؛ وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الإيمان معرفة بالقلب وقول باللسان وعمل بالأركان » أخرجه ابن ماجه فى سننه ، فذهب إليه محمد بن كرام السجستاني وأصحابه هو اتفاق وعين الشقاق ؛ ونمود بأنه من الخلطان وسوء الاعتقاد .

الرابعة — قال علماءنا رحمة الله عليهم : للمؤمن ضربان ؛ مؤمن يحبه الله ويؤاياه ، ومؤمن لا يحبه الله ولا يؤاياه ، بل يبغضه ويماديه ؛ فكل من علم الله أنه يوافق بالإيمان ، فاقه محب له ، موافق له ، وإلّا حبسه وكل من علم الله أنه يوافق بالكفر ، فاقه مبغض له ، سخط عليه ، معاد له ، لا لأجل إيمانه ، ولكن لكفره وضلاله الذى يوافق به ، والكافر ضربان ؛ كافر يعاقب لا محالة ، وكافر لا يعاقب ؛

فالذى يعاقب هو الذى يوافق بالكفر، فالله ساخط عليه معادله ؛ والذى لا يعاقب هو الموافق بالإيمان، فالله غير ساخط على هذا، ولا باغض له، بل يحب له، موالٍ له، لا لكفره لكن لإيمانه الموافق به ؛ فلا يجوز أن يطلق القول وهى :

الخامسة — بأن المؤمن يستحق الثواب، والكافر يستحق العقاب، بل يجب تقييده بالموافقة، ولأجل هذا قلنا إن الله راضٍ عن عمر فى الوقت الذى كان يعبد الأصنام، ومريد ثوابه ودخوله الجنة، لا لعبادته الصنم، لكن لإيمانه الموافق به ؛ وإن الله تعالى ساخط على إبليس فى حال عبادته لكفره الموافق به .

وخالفت القدرية فى هذا وقالت : إن الله لم يكن ساخطا على إبليس وقت عبادته، ولا راضيا عن عمر وقت عبادته للصنم، وهذا فاسد لما ثبت أن الله سبحانه عالم بما يوافق به إبليس لعنه الله، وبما يوافق به عمر رضى الله عنه فيما لم يزل ؛ فثبت أنه كان ساخطا على إبليس عبدا لعمر، ويدل عليه إجماع الأمة على أن الله سبحانه وتعالى غير محبلن علم أنه من أهل النار، بل هو ساخط عليه، وأنه محب لمن علم أنه من أهل الجنة؛ وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "وإنما الأعمال بالخواتيم" ولهذا قال علماء الصوفية : ليس الإيمان ما يتبرن به العبد قولاً وفعلًا، لكن الإيمان جرى السعادة فى سوابق الأزل؛ وأما ظهوره على الهياكل فربما يكون عارياً، وربما يكون حقيقة .

قلت : هذا كما ثبت فى صحيح مسلم وغيره، عن عبد الله بن مسعود قال حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الصادق المصدوق : "إن أحدكم يجمع خلقه فى بطن أمه أربعين يوماً ثم يكون فى ذلك علقة مثل ذلك ثم يكون فى ذلك مضفة مثل ذلك ثم يرسل الله الملك فينفخ فيه الروح ويؤمر بأربع كلمات بكب رزقه وأجله وعمله وشقى أو سعيد فوالذى لا إله غيره إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها" فان قيل وهى :

السادسة — فقد نرجح الإمام الحافظ أبو محمد عبد الله بن سفيان المصبرى من حديث محمد بن عبد الله بن المبارك فى الزندقة، وهو محمد بن أبي قيس عن سليمان بن موسى وهو الأشعري،

عن مجاهد بن جبر عن ابن عباس أخبرنا أبو رزين العقيلي قال : قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم :
 " لأشربن أنا وأنت يا أبا رزين من لبن لم يتغير طعمه " قال : قلت : " كيف يحيى الله الموتى ؟ قال :
 " أما مررت بأرض لك مجدية ثم مررت بها مخصبة ، ثم مررت بها مجدية ثم مررت بها مخصبة "
 قلت : بلى ، قال : " كذلك النشور " قال قلت : كيف لي أن أعلم أنني مؤمن ؟ قال : " ليس أحد من
 هذه الأمة - قال ابن أبي قيس أو قال من أمي - عمل حسنة وعلم أنها حسنة وأن الله جازيه بها
 خيرا أو عمل سيئة وعلم أنها سيئة وأن الله جازيه بها شرا أو ينفرها إلا مؤمن " .

قلت : وهذا الحديث وإن كان سنده ليس بالقوى فإن معناه صحيح وليس بمعارض لحديث
 ابن مسعود ؛ فإن ذلك موقف على الخلقة ؛ كما قال عليه السلام : " وإنما الأعمال بالخواتيم " وهذا
 إنما يدل على أنه مؤمن في الحال والله أعلم .

السابعة - قال علماء اللغة : إنما سمى المناق حناقا لإظهاره غير ما يضم تشبها بالبرقع
 له جحر يقال له : المناق ، وأثر يقال له : القاصعاء ؛ وذلك أنه يخرق الأرض حتى إذا كاد يبلغ
 ظاهر الأرض أرق التراب ؛ فإذا رآه ريب دفع ذلك التراب برأسه فخرج ؛ فظاهر جحره تراب ،
 وباطنه حفر ؛ وكذلك المناق ظاهره إيمان ، وباطنه كفر ؛ وقد تهتم هذا المعنى .

قوله تعالى : (يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا) . قال علماءنا : معنى يخادعون الله أى يخادعون عنه
 أنفسهم وعلى ظنهم . وقيل : قال ذلك لمعلمهم عمل الخادع . وقيل : في الكلام حنف ، تقديره :
 يخادعون رسول الله صلى الله عليه وسلم ، عن الحسن وغيره ؛ وجعل خداعهم لرسوله خداعا لهم ؛
 لا لمعلمهم برأسه ؛ وكذلك إذا خادعوا المؤمنين فقد خادعوا الله ؛ وخادعهم ما أظهره من
 الإيمان خلاف ما أبطنوه من الكفر ؛ ليحقتوا دماءهم وأموالهم ؛ ويطنون أنهم قد نجوا وخدعوا ؛
 قاله جماعة من التأولين . وقال أهل اللغة : أصل الخدع في كلام العرب : اللبث ، حكاه ثعلب
 من لبن للأعرابي وأقصد :

أبيض اللون لئلا يطعمه * طيب الريق إذا الريق خدع^(١)

قلت : فيخادعون الله على هذا ، أى يفسدون إيمانهم وأعمالهم فيما بينهم وبين الله تعالى بالرياء .
وكذا جاء مفسرا عن النبي صلى الله عليه وسلم على ما يأتى ، وفى التنزيل : (يَأْسُونَ النَّاسَ) . وقيل :
أصله الإخفاء ، ومنه خدع البيت الذى يجرى فيه النهر حكاية ابن فارس وفيه ، وقول العرب :
اتخدع الغضب فى جحره .

قوله تعالى : (وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ) هى وإيجاب أى ما تحمل ماقبة الخدع إلا بهم ؟ ومن
كلامهم : من خدع من لا يخدع فانما يخدع نفسه . وهذا صحيح لان الخداع إنما يكون مع من
لا يعرف البواطن ، وأما من عرف البواطن فن دخل معه فى الخداع فانما يخدع نفسه ، ودل هذا
على أن المنافقين لم يعرفوا الله إذ لو عرفوه لعرفوا أنه لا يخدع ، وقد هتتم من قوله عليه السلام أنه
قال : " لا يخادع الله ، فإنه من يخادع الله يخدعه الله ، ونفسه يخدع لو يشمر " قالوا : يا رسول الله ،
وكيف يخادع الله ؟ قال : " تعمل بما أمرك الله به وتطلب به فيه " . وسيأتى بيان الخدع من
الله تعالى كيف هو عند قوله تعالى : (اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ) وقرأ فافع ، وابن كثير ، وأبو عمرو :
(يَخَادِعُونَ) فى الموضعين ليتجانس اللفظان . وقرأ عاصم ، وحركة ، والكسائى ، وابن عامر : (يَخْدَعُونَ)
الثانى ، والمصدر خدع بكسر الخاء وخديعة حكى ذلك أبو زيد . وقرأ مورو السجلى : (يَخْدَعُونَ)
الله (بضم الباء) وضع الخاء وتشديد اللام على الكثير . وقرأ أبو طالوت عبد السلام بن شداد والجارود
بضم الياء إسكان الخاء وقبح الدال على معنى وما يخدعون إلا عن أنفسهم ، فحذف حرف الجزاء قال
تعالى : (وَأَخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ) . أى من قومه .

قوله تعالى : (وَمَا يَشْعُرُونَ) . أى يظنون أن وبال خدمهم راجع عليهم ، فيظنون أنهم قد
نجوا بخدعهم وقازوا ، وإنما ذلك فى الدنيا ، وفى الآخرة يقال لهم : (أَرْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَاتِمِسُوا نُورًا)
على ما يأتى . قال أهل اللغة : شعرت بالشيء أى فطنت له ، ومنه الشاعر لقطعة لأنه فطن لما
لا يظن له غيره من غريب المعانى .

ومنه قولهم : ليت شعرى أى ليتى حالت .

قوله تعالى : (فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ) . ابتداء وخبر ، والمرض عبارة مستعمارة للقساد الذى
فى عقائدهم ، وذلك إما أن يكون شكاً وتفاقاً ، وإما مجداً وتكتيا ، والمعنى قلوبهم مرضى مثلهما

عن العصمة والتوفيق ، والرعاية والتأييد ؛ قال ابن فارس اللغوي : المرض - كل ما خرج به الإنسان عن حد الصحة ، من علة ، أو نفاق ، أو قصير في أمر . والقراء يجمعون على فتح الراء من مرض إلا ما روى الأصمعي عن أبي عمرو أنه سكن الراء .

قوله تعالى : (فَرَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا) . قيل : هو دعاء عليهم ، ويكون معنى الكلام زادهم الله شكا وتفاقا ، جزاء على كفرهم وضعفا عن الانتصار ، وعجزا عن القدرة ؛ كما قال الشاعر :

يا مرسل الريح جنوبا وصبا * إذ غضبت زيد فزدها غضبا

أي لا تهدأ على الانتصار فيما غضبت منه ؛ وعلى هذا يكون في الآية دليل على جواز الدعاء على المنافقين والظلمة لهم . لأنهم شر خلق الله ، وقيل : هو إخبار من الله تعالى عن زيادة مرضهم أي زادهم الله مرضا إلى مرضهم ، كما قال في آية أخرى : (فَرَادَتْهُمْ وَجْسا إِلَى وَجْهِهِمْ) . وقال أرباب المعاني : في قلوبهم مرض أي بسكونهم إلى الدنيا ، وحبيهم لها ، وغفلتهم عن الآخرة ، وإعراضهم عنها . وقوله : (فَرَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا) أي وكلهم إلى أنفسهم ، وجمع عليهم هموم الدنيا فلم يتفردوا من ذلك إلى اهتمام بالدين ولهم عذاب أليم بما فتنى عما سبق . وقال الجنيدي : ملل القلوب من اتباع الهوى ، كما أن ملل الجوارح من مرض البدن .

قوله تعالى : (وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ) . أليم في كلام العرب معناه مؤلم أي موجه ، مثل السميع بمعنى المسمع ؛ قال ذو الرمة يصف إبلا :

ونزع من صدور شمردلات * يمسك عوجوها روج أليم

والكم اتنا أوجع ، والإيلام : الإجماع ، والألم : الوجع ، وقتة ألم بالملح ، والتالم : التوجع ، وجمع أليم على الألام والملاء مثل : كريم وكرياء ، وآلام مثل أشراف .

قوله تعالى : (بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ) . ما مصغرة أي بشكيتهم الرسل ، وركعهم على الله جل وعز ، وشكيتهم بآياتهم قاله أبو حاتم . وقرا طعم ، وحزق ، والكسكك بالتخفيف ؛ ومعناه بكبتهم وقولهم إنما وليهم إبليس .

مسألة — واختلف العلماء في إساءة النبي صلى الله عليه وسلم عن قتل المنافقين مع علمه بنفاقهم على أربعة أقوال :

القول الأول — قال بعض العلماء : إنما لم يقتلهم لأنه لم يعلم حليم أحد سواه . وقد اتفق العلماء على بكرة أبيهم على أن القاضى لا يقتل بعلمه ، وإن اختلفوا في سائر الأحكام ؛ قال ابن العربي : وهذا منتقض ، فقد قتل بالحد بن زياد ، الحارث بن سويد بن الصامت لأن المجنن قتل أباه سويدا يوم بعاث ؛ فأسلم الحارث وأغفله يوم أحد فقتله ؛ فأخبر به جبريل النبي صلى الله عليه وسلم فقتله به لأن قتله كان غيلة^(١) ، وقتل الغيلة حد من حدود الله .

قلت : وهذه غفلة من هذا الإمام ، لأنه إن ثبت الإجماع المذكور فليس بمنتقض بما ذكر ، لأن الإجماع لا ينمقد ولا ينهد إلا بعد موت النبي صلى الله عليه وسلم واقطاع الوحي ؛ وعلى هذا فتكون تلك قضية في حين ، يوحى ، فلا يحتج بها أو منسوخة بالإجماع والله أعلم .

القول الثاني — قال أصحاب الشافعى : إنما لم يقتلهم لأن الزنديق وهو الذى يسر الكفر ويظهر الإيمان يستتاب ولا يقتل . قال ابن العربي : وهذا وهم ؛ فإن النبي صلى الله عليه وسلم لم يستبهم ولا قتل ذلك أحد ، ولا يقول أحد إن استتابه الزنديق واجبة ؛ وقد كان للنبي صلى الله عليه وسلم معرضا عنهم مع علمه بهم . فهذا المتأخر من أصحاب الشافعى الذى قال : إن استتابه الزنديق جائزة قال قولاً لم يصح لأحد .

القول الثالث ب — إنما لم يقتلهم مصلحة ، لتأليف القلوب عليه ، لتلا تفرغه ؛ وقد أشار صلى الله عليه وسلم إلى هذا المعنى بقوله لعمر : " معاذ الله أن يتحدث الناس أنى أقتل أصحابي " أنرجه البخارى ومسلم . وقد كان يعطى للوفقة قلوبهم مع علمه بسوء اعتقادهم تألفاً ؛ وهذا هو قول طائفة من غيرهم . قال ابن عطية : وهى طريقة أصحاب مالك رحمه الله في كف رسول الله صلى الله عليه وسلم من المنافقين ؛ نص على هذا محمد بن الجهم ، والشافعى إسماعيل ، والأهلبى ؛ وابن الماجشون ، واحتج بقوله تعالى : (وَلَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ) إلى قوله . (وَتَوَلَّوْا قَهِيلًا) . قال قتادة : معناه إذا هم أعلنوا للفاق . قال مالك رحمه الله : للفاق في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

(١) راجع هذه القصة في سيرة ابن هشام (ص ٤٣٥٦ ٤٩٧) طبع أوربا . وكتاب الاستيابة ، في اسم المجنن .

عليه وسلم هو الزندقة فينا اليوم، فيقتل الزنديق إذا شهد عليه بها دون استتابة؛ وهو أحد قول الشافعي .
 قال مالك : وإنما كف رسول الله صلى الله عليه وسلم عن المنافقين لئلا يمت أن الحاكم لا يحكم
 بعلمه إذ لم يشهد على المنافقين . قال القاضي إسماعيل : لم يشهد على عبد الله بن أبي إلا زيد بن
 أرقم ونحوه؛ ولا على الجلاس بن سويد إلا عمير بن سعد ربيعة؛ ولو شهد على أحد منهم رجالان بكفزه
 وقتلته لقتل . وقال الشافعي رحمه الله محتجا للقول الآخر: السنة فيمن شهد عليه بالزندقة فجحد وأعلن
 بالإيمان وبرأ من كل دين سوى الإسلام إن ذلك يمنع من إراقة دمه؛ وبه قال أصحاب الرأي وأحمد
 والطبري وغيرهم . قال الشافعي وأصحابه : وإنما منع رسول الله صلى الله عليه وسلم من قتل المنافقين
 ما كانوا يظهرونه من الإسلام مع العلم بنفاقهم ، لأن ما يظهرونه يجب ما قبله . وقال الطبري :
 جعل الله تعالى الأحكام بين عبادته على الظاهر، وتولى الحكم في سرائهم دون أحد من خلقه،
 فليس لأحد أن يحكم بخلاف ما ظهر، لأنه حكم بالظنون ، ولو كان ذلك لأحد كان أولى الناس به
 رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد حكم للمنافقين بحكم المسلمين بما أظهروا، ووكّل سرائهم إلى الله،
 وقد كذب الله ظاهرهم بقوله : (وَأَلَّهَ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ كَاذِبُونَ) . قال ابن عطية : يتفصل
 السالكون عما لزموه من هذه الآية بأنها لم تبين أشخاصهم فيها وإنما جاء فيها توجيه لكل مقصود
 عليه بالتناقض؛ وبقي لكل واحد منهم أن يقول : لم أرد بها وما إلا مؤمن، ولو عين أحد لما
 جب كذبه شيئا .

قلت : هذا الانفصال فيه نظر، فإن النبي صلى الله عليه وسلم كان يصلهم أو كثيرا منهم بأسمائهم
 وأعيانهم بإعلام الله تعالى إياه، وكان حذيفة يعلم ذلك بإخبار النبي عليه السلام إياه حتى كان عمر
 رضى الله عنه يقول له : يا حذيفة هل أنا منهم ؟ فيقول له : لا .

القول الرابع - وهو أن الله تعالى كان قد حفظ أصحاب نبيه عليه السلام بكونه منهم
 أن يفسدوا للمنافقين أو يفسدوا دينهم فلم يكن في تقييتهم ضرر، وليس كذلك اليوم ، لأننا لا نأمن
 من الزندقة أن يفسدوا طاعتنا وجهالنا .

قوله تعالى : (وَإِنَّا قَبِلْ لَمْ لَا تُحْسِنُوا فِي الْأَرْضِ) الآية ، إذا في موضع نصب على الظرف
 والمائل فيها قالوا ، وهي توكيد بوقوع الفعل المنتظر . قال الجوهري : إذا اسم يقع على زمان

مستقبل ولم تستعمل إلا مضافة إلى جملة، تقول : أجيئك إذا أحرق البسر وإذا قدم فلان؛ والذي يدل على أنها اسم وقوعها موقع قولك : أتيتك يوم يقدم فلان؛ فهي ظرف وفيها معنى المجازة .
وجزاء الشرط ثلاثة : الفعل والفاء وإذا؛ فالفعل قولك : إن تأتني آتت، والفاء إن تأتني فأتا أحسن إليك؛ وإذا كقوله تعالى : (وَإِنْ تُصِيبِهِمْ سَيِّئَةٌ مِنْ قَدَمَتِ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَنْتُظُونَ) . وما جاء من المجازة فإذا في الشعر قول قيس بن الخطيم :

إذا قصرت أسيافا كان وصلها • خطانا إلى أعدائنا فنضارب

فصطف فنضارب بالجزم على موضع كانت لأنه مجزوم، ولو لم يكن مجزوما لقال فنضارب بالنصب . وقد تراءى على إذا ، ما أكيدا فيجزم بها أيضا؛ ومثله قول الفرزدق :

فقام أبو ليلى إليه ابن ظالم • وكان إذا ما يسال السيف يضرب

قال سيويه : والجيد ما قال كعب بن زهير :

وإذا ما نساء تبعت منها • مغرب الشمس تاشطأ مذعورا

يعني أن الجيد ألا يجزم فإذا كما لم يجزم في هذا البيت . وحكى عن المبرد : أنها في قولك في المفاجأة خرجت فإذا زيد ظرف مكان لأنها تضمنت جنة ، وهذا مردود لأن المعنى خرجت فإذا حضور زيد، وإنما تضمنت المصدر كما يقتضيه سائر ظروف الزمان؛ ومثله قوله : « اليوم نمر وهذا أمر » فعناء وجود نمر ووقوع أمر .

قوله : (قِيلَ) من القول وأصله قول قلت كسرة الواو إلى القاف فاقبلت الواو ياء؛ ويجوز قبل لم ، بإدغام اللام في اللام ، وجزاء الجمع بين ما كتبتين لأن الياء حرف مد ولين؛ قال الأخفش : ويجوز قيل بضم القاف والياء ، وقال الكسائي : ويجوز اشماع القاف الضم ليدل على أنه لما لم يسم فاعله ، وهي لغة قيس؛ وكذلك جى، وغيض وحمل وسبق وسبي، وكذلك روى هشام عن ابن عباس، وروى عن يعقوب؛ وأشم منها نافع ميم، وسبقت خاصة؛ وزاد ابن ذر كان : حيل وسبق وكسر الباقون في الجميع . فأما هذيل وبنو دبر من أسد وبنو قيس فيقولون : قول يواو ما كنه .

(١) في نسخة : « ابن عامر » .

(٢) وروى (كزيب) لقب محمد بن الحوكل القاري ، وروى يعقوب بن اسحاق . القاموس المحيط .

قوله : (لَا تَقْسِلُوا) لا نهى ، والفساد ضدّ الصلاح ، وحقيقته المدلول عن الاستقامة إلى ضلّتها . فسد الشيء يفسد فسادا وفسونا وهو فاسد وفسيد . والمعنى في الآية لا تقسّلوا في الأرض بالكفر وموالاته أهله ، وتفريق الناس عن الإيمان بحمد صلى الله عليه وسلم والقرآن . وقيل : كانت الأرض قبل أن يبعث النبي صلى الله عليه وسلم فيها الفساد ، ويفعل فيها بالمعاصي ؛ فلما بعث النبي صلى الله عليه وسلم ارتفع الفساد ووصلحت الأرض ؛ فإذا عملوا بالمعاصي فقد أفسدوا في الأرض بعد إصلاحها ، كما قال في آية أخرى : (وَلَا تَقْسِلُوا فِي الْأَرْضِ بَدَأَ إِصْلَاحَهَا) .

قوله : (فِي الْأَرْضِ) الأرض مؤنثة وهي أمّ جنس ، وكانت حقّ الواحدة منها أن يقال أرضة ، ولكنهم لم يقولوا ، والجمع أرضات لأنهم قد يجمعون المؤنث الذي ليست فيه هاء التانيث بالناء كقولهم : عُرْسَات ، ثم قالوا أرضون يجمعوا بالواو والنون ، والمؤنث لا يجمع بالواو والنون إلا أن يكون متقوصا كقبة وقلبة ، ولكنهم جعلوا الواو والنون ، عوضا من حذفهم الألف والناء وتركوا قطعة الراء على حالها ، وربما سكنت ، وقد تجمع على أروض ؛ وزعم أبو الخطاب أنهم يقولون : أرض وأراض ، كما قالوا : أهل وأهال ؛ والأراضى أيضا على غير قياس كأنهم جمعوا أرضا ؛ وكل ما سفل فهو أرض ؛ وأرض أرضة أى زكية بيّنة الأراضة ، وقد أُرِضْتُ بالضم أى زكت . قال أبو عمرو : تزلأ أرضا أرضية أى معجبة للعين ؛ وقال : لأرض لك ، كما يقال : لا أم لك . والأرض أسفل قوائم النمل ؛ قال حيد يصف فرسا :

ولم يقلب أرضها ليطار • ولا لجليه بها حبار

أى أثر ؛ والأرض : التفضية والرملة . روى حماد بن سلمة عن قتادة عن عبيد الله بن الحبارث قال : زلّلت الأرض بالبصرة ، فقال ابن عباس : والله ما أدرى ؟ أزّلّلت الأرض فى أم بنى أرض ؟ أى أم بنى رعدة ؛ وقال ذو الرمة يصف صائدا :

إذا توجّس رِكْرا من ستابكها • أو كان صاحب أرض أو به الموم

والأرض : الزكام ، وقد أرضه الله إرضاء أى تاركه فهو مأروض ؛ وفسيل مستأرض ، وودية مستأرض بكسر الراء وهو أن يكون له عرق في الأرض ؛ فأما إذا نبت على جذع النخل فهو الراكب . والإراض بالكسر ببسط ضخم من صهلو وحرب ويصل أرض ، أى متواضع خثى خفيف ؛ قال

الأصمعى يقال : هو أرضهم أن يفعل ذلك أى أخلقهم ، وشئ عريض أريض اتباع له ، وبمعظم
فردو ويقول : جدى أريض أى سمين .

قوله : (نَحْنُ) أصل نحن نَحْنُ قلبت حركة الحاء على التون وأسكنت الحاء ، قاله هشام
ابن معاوية النحوى . وقال الزجاج : نحن بجماعة ، ومن علامة الجماعة الواو ، والضممة من
جنس الواو ، فلما اضطرزوا إلى حركة نحن لالتقاء الساكنين حركوها بما يكون للجماعة . قال ولهذا
ضموا واو الجمع فى قوله عز وجل : (أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ) . وقال محمد بن يزيد : نحن مثل
قَبْلُ وبعد لأنها متعلقة بالإخبار عن اثنين وأكثر ، فانا الواحد ، ونحن للتثنية والجمع ، وقد يجر به
المتكلم عن نفسه فى قوله : نحن فتنا ، قال الله تعالى : (نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَيعَتَهُمْ) . والمؤنث فى هذا
إذا كانت مشكلة بمنزلة المذكور ؛ تقول المرأة : قتلت وذعبت ، وقتنا وذعبنا ، وأنا فعلت ذلك ، ونحن
فعلنا . هذا كلام العرب فأعلم .

قوله تعالى : (مُصْلِحُونَ) اسم فاعل من أصلح ، والإصلاح : ضد الفساد ، وصلح الشيء
اللام وفصحها لغتان قاله ابن السكيت . والصلوح بضم الصاد مصدر صلح بضم اللام ، قال الشاعر :

فكيف بإطراقى إذا ما شفتنى • وما بعد شتم الوالدین صلوح

وإصلاح من أسماء مكة ، والصلح بكسر الصاد : نهر .

وإنما قالوا ذلك على ظنهم ، لأن إفسادهم عندهم إصلاح ، أى إن عالجنا الكفار إنما نزيد بها
الإصلاح بينهم وبين المؤمنين . قاله ابن عباس وغيره .

قوله عز وجل : (أَلَا إِنَّهُمْ مُمَّ الْمُفْسِدُونَ) ردنا عليهم وتكثيرا لقولهم ، قال أرباب المعانى :
من أظهر الدعوى كذب ، ألا ترى أن الله عز وجل يقول : (أَلَا إِنَّهُمْ مُمَّ الْمُفْسِدُونَ) . وهذا صحيح .
وكسرت إن لأنها مبتدأة ، قاله النحاس . وقال علي بن سليمان : يجوز فصحا كما أجاز سيوريه : حقا أنك
منطلق ، بمعنى ألا . وهم يجوز أن يكون مبتدأ والمفسدون خبره والمبتدأ وخبره خبر إن ، ويجوز أن
تكون هم توكيدا للهاء والميم فى إنهم ، ويجوز أن تكون فاصلة — والكوفيون يقولون عمادا —
والمفسدون خبر إن ، والتقدير : ألا إنهم المفسدون ، كما تقدم فى قوله : (وَأُولَئِكَ مُمَّ الْمُفْسِدُونَ) .

(١) فى الباء غرض . ولعل الصواب : «... يجوز فصحا كما أجاز سيوريه أما أنك متعلق على من حقا أنت متعلق . وأما بمعنى الهم .

قوله تعالى : ﴿ وَلَئِنْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ . قال ابن كيسان يقال : ما على من لم يعلم أنه مفسد من
النم ، إنما يتم إذا علم أنه مفسد ، ثم أفسد على علم ، قال : ففيه جوابان ؛ أحدهما : أنهم كانوا
يعملون الفساد سرا ويظهرون الصلاح وهم لا يشعرون أن أمرهم يظهر عند النبي صلى الله عليه
وسلم ، والوجه الآخر : أن يكون فسادهم عندهم صلاحا ، وهم لا يشعرون أن ذلك فساد ، وقد عصوا
الله ورسوله في تركهم تبين الحق واتباعه . ولكن حرف تأكيد واستدراك ، ولا بد فيه من نفى
وإثبات ، إن كان قبله نفى ، كان بعده إيجاب ، وإن كان قبله إيجاب ، كان بعده نفى ؛ ولا يجوز
الاقتصار بعده على اسم واحد إذا تقدم الإيجاب ، ولكنك تذكر جملة مضادة لما قبلها كما في هذه
الآية ، وقولك : جاءني زيد لكن عمرو لم يحن ، ولا يجوز جاءني زيد لكن عمرو ثم نسكت ، لأنهم
قد استثنوا بيل في مثل هذا الموضع عن لكن ، وإنما يجوز ذلك إذا تقدم النفي كقولك : ما جاءني
زيد لكن عمرو .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ﴾ . يعني المنافقين ، في قول مقاتل وغيره ، ﴿ آمَنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ ﴾
أي صدقوا بحمد صلى الله عليه وسلم وشرعه ، كما صدق المهاجرون والمخفون من أهل يثرب . وألف
آمنوا ألف قطع لإثبات قول : يؤمن ، والكاف في موضع نصب لأنها نعت لمصدر محذوف أي إيمانا
بكيمان الناس .

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا أَتُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ ﴾ . يعني أصحاب عهد صلى الله عليه وسلم ، من ابن
عباس ؛ ومنه أيضا : مؤمنو أهل الكتاب ؛ وهذا القول من المنافقين إنما كانوا يقولونه في خفاء
واستتراء ، فاطلع الله نبيه والمؤمنين على ذلك ، وقرر أن السفه ، ورقة الخلو ، وفساد البصائر ، إنما
هي في حيزهم ، وصفة لهم ، وأخبر أنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون للذين الذين على قلوبهم وروى
الكوفي عن أبي صالح عن ابن عباس : أنها نزلت في شأن اليهود أي وإذا قيل لهم يعني اليهود آمنوا
كما آمن الناس عبد الله بن سلام وأصحابه ، قالوا : أتؤمن كما آمن السفهاء ! يعني أجهال وانحرقاء .
وأصل السفه في كلام العرب : الخفة والرقعة ، يقال : ثوب سفه إذا كان رديا . النسج خفيفه ،
أو كان باليا رقيقا . ونسجت الرياح الشجر : مالت به ، قال ذو الرمة :
شعشع^(١) كما أهترت رماح تفضت • أعاليها من الرياح التواسم

(١) كما في الأسر ، واللسان مادة (شعشع) وفي ديوانه : «رديا» .

وتسفت الشيء : استحققرته . والسفه : ضد الحلم ؛ ويقال : إن السفه أن يكثر الرجل شرب الماء فلا يروى . ويجوز في هزقي السفهاء أربعة أوجه ، أجودها أن تحقق الأولى وتقلب الثانية وأوا خالصة ، وهي قراءة أهل المدينة ، والمعروف من قراءة أبي عمرو ؛ وإن شئت خففتها جميعا فجعلت الأولى بين الممزة والواو وجعلت الثانية وأوا خالصة ؛ وإن شئت خففت الأولى وحقت الثانية ؛ وإن شئت حققتها جميعا .

قوله تعالى : (وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ) . مثل ولكن لا يشعرون ؛ وقد تقدم . والعلم معرفة المعلوم على ما هو به ، تقول : علمت الشيء أعلمه علما عرفته ، وعلمت الرجل فعلته أعلمه بالضمعة في المستقبل ظننته بالعلم .

قوله تعالى : (وَإِذَا قَالُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا) . أنزلت هذه الآية في ذكر المنافقين . أصل لقوا ؛ لقوا تقلت الضمة إلى القاف وحذفت الياء لالتقاء الساكنين ؛ وقرا محمد بن السبيع الخثعمي : لاقوا الذين ءامنوا . والأصل لاقوا ؛ تحركت الياء وقبلها فتحة انقلبت ألفا ، اجتمع ما كان الألف والواو وحذفت الألف لالتقاء الساكنين ثم حركت الواو بالضم .

وإن قيل : لم ضمت الواو في لاقوا في الإدراج ، وحذفت من لقوا ؟ فالجواب : أن قبل الواو التي في لقوا ضمة فلو حركت الواو بالضم لتقل على اللسان النطق بها لحذفت لتقلها ، وحركت في لاقوا لأن قبلها فتحة .

قوله تعالى : (وَإِذَا خَلَاوْا إِلَى) . إن قيل : لم وصلت خلوا بإلى وعرفها أن توصل بالياء ؟ قيل له : خلوا هنا بمعنى ذهبوا وانصرفوا ؛ ومنه قول الفرزدق :

كيف تراني قالبا بجنى • قد تسل الله زيادا حنى

لما أنزله مثله صرف ؛ وقال قوم : إلى بمعنى مع وفيه ضعف . وقال قوم : إلى بمعنى الياء ، وهذا باباه الخليل وسيبويه . وقيل : المعنى وإذا خلوا من المؤمنين إلى شياطينهم ، فإلى على بابها . والشياطين جمع شيطانات على التكسير وقد تقدم القول في اشتقاقه ومعناه في الاستماعة . واختلف المفسرون في المراد بالشياطين هنا ؛ فقال ابن عباس والسدي : هم رؤساء الكفر . وقال الكلبي :

هم شياطين الجن . وقال جمع من المفسرين : هم الكهان . ولفظ الشيطنة الذى معناه البعد عن الإيمان والتجريم جميع من ذكر . والله أعلم .

قوله تعالى : (إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزَؤُونَ) . أى مكذبون بما تدعى إليه ؛ وقيل : ساخرون . والمهزء : السخرية واللعب ؛ يقال : هزئ به واستهزأ ؛ قال الراجز :

قد هزئت منى أم طيله * قالت أراه معدما لا مال له

وقيل : أصل الاستهزاء : الاستقام ؛ كما قال الآخر :

قد استهزموا منى بالئى مدج * سبراتهم وسط الضحاح جنم

قوله تعالى : (اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ) . أى يتقهم منهم ويماقهم ، ويستخفهم ويمازهم على استهزائهم ؛ فسعى العقوبة باسم التنب ، هذا قول الجمهور من العلماء ؛ والعرب تستعمل ذلك كثيرا فى كلامهم ، من ذلك قول عمرو بن كلثوم :

ألا يا يجهل أحد علينا * فنجهل فوق جهل الجاهلينا

فسعى انتصاره جهلا ، والجهل لا يفخر به ذو عقل ؛ وإنما قاله ليزدوج الكلام فيكون ذلك أخف على اللسان من المخالفة بينهما ؛ وكانت العرب إذا وضعوا لفظا بإزاء لفظ جوابا له وجزاء ذكره بمن لفظه وإن كان مخالفا له فى معناه ؛ وعلى ذلك جاء القرآن والسنة ؛ وقال الله عز وجل : (وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا) . وقال : (قُلْ أَنتَدِىٰ عَلَيْكُمْ فَآتَوْهُوا عَلَيْهِ يَمِئِلُونَ مَا أَنتَدِىٰ عَلَيْهِمْ) . والجزاء لا يكون سيئة ، والقصاص لا يكون اعتداء لأنه حق وجب ؛ ومثله : (وَمَكْرُوهٌ وَمَكْرَآهٌ) . (وَإِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا وَأَكِيدُ كَيْدًا) . و (إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزَؤُونَ . اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ) . وليس منه سبحانه مكرولا مهزء ولا كيد ، إنما هو جزاء لمكرهم واستهزائهم وجزاء كيدهم ؛ وكذلك (يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ) . (فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ) . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إن الله لا يمل حتى تعلموا ولا يسأم حتى تساموا" قيل حتى بمعنى ألوا أى وتعلموا ؛ وقيل : للمعنى وأتم تعلمون ؛ وقيل : للمعنى لا يقطع عنكم ثواب أعمالكم حتى تقطعوا العمل ؛ وقال قوم : إن الله تعالى يفضلهم أفضلا

هي في تأمل البشر من مودع ومكر، حسب ما روى : **« إن النكر محمد كآية محمد لا إله إلا الله »** عليها ويظنونها منجاة فتخسف بهم **« وروى الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس في قوله تعالى : (وَإِنَّا لَنُؤْتِيهِم مَّا كَانُوا يَعْتَدُونَ)** هم منافقو أهل الكذب ، فذكرهم وذكر استزاعهم ، وأنهم إذا خلوا إلى شياطينهم يعني رؤساعهم في الكفر — على ما فهم — قالوا : إنا معكم على دينكم إنما نحن مستهزون بأصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ، الله يستهزئ بهم في الآخرة ، يفتح لهم باب جهنم من الجنة ، ثم يقال لهم : **« كما ألوا فيقبلون يسبحون في النار »** والمؤمنون على الأراك وهي السر في الجبال ينظرون إليهم ، فإذا انتهوا إلى الباب سد عنهم ، فيضك المؤمنين منهم ؛ فذلك قول الله عز وجل : **« (اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ)** أي في الآخرة ، ويضك المؤمنين منهم حين خلقت دنوبهم الأبواب ؛ فذلك قوله تعالى : **« (قَالِ يَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا مِنَ الْكَافِرِينَ ضُكَّوْنَ . عَلَى الْأَرْبَابِ يَنْظُرُونَ)** . إلى أهل النار : **« (هَلْ تَوَبَّ الْكَافِرُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ)** . وقال قوم : الخداع من الله والاستزاع هو استدراجهم بدور السم الدنيوية عليهم ؛ فله سبحانه وتعالى يظهر لهم من الإحسان في الدنيا ، خلاف ما ينبغي عنهم ، ويستتر عنهم من طلب الآخرة ، فيظنون أنه راض عنهم ، وهو تعالى قد حتم مذاهبهم ؛ فهذا على تأمل البشر كآية استزاع ومكر وخداع ؛ وذلك على هذا التأويل قوله صلى الله عليه وسلم : **« إنا رأيت الله عز وجل يعطى العبد ما يحب وهو مقيم على معاصيه فإما ذلك منه استدراج »** ثم نزع هذه الآية : **« (فَلَمَّا نَسُوا مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ)** ففتح عليهم أبواب كل شيء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبسوثون . فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين) . قال بعض العلماء في قوله تعالى : **« (سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ)** . كما أخذنا فنيا أحدث لهم نعمة .

قوله تعالى : **« (وَيَعْلَمُ)** . أي يطيل لهم المدة ويمهلهم ويحل لهم ؛ كما قال : **« (إِنَّمَا تَعْلَى لِمَ لِيَزِيدَهُمْ مَّا يَكُونُ لَكُمْ عَذَابًا)** وأصله الزيادة ؛ قال يونس بن حبيب : يقال مد في الشر ، وأمد في الخير ؛ قال الله تعالى : **« (وَأَمَدَدْنَاكُمْ لِمَ بَنِيَّائِنا وَبَنِيَّائِنا)** . وقال : **« (وَأَمَدَدْنَاكُمْ لِمَ بَنِيَّائِنا وَبَنِيَّائِنا)** موحى

(١) في نسخة «محمد» بالحاء .

(٢) في الجاه الصغير : «إنا رأيت» .

من الأخفش : حدث له إذا تركه ، وأمدته إذا أعطيته . وعن القراء والحجاني : حدثت فيما كانت زيادته من مثله ، يقال : مَدَّ النهر [النهر] ، وفي التثنية : (وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ) ، وأمدت فيما كانت زيادته من غيره كقولك : أمدت الجيش بمدد ، ومنه : (يُمِدُّكُمْ رَبُّكُمْ بِمَحْصَاتٍ مَلَائِكَةٍ) وأمد الجرح لأن اللثة من غيره أي صارت فيه لثة .

قوله تعالى : (فِي طَبَائِنِهِمْ) كفرهم وضلالم ، وأصل الطينان مجاوزة الحد ، ومنه قوله تعالى : (إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ) أي ارتفع وعلا وتجاوز المقدر الذي قدرته الخزان ، وقوله في فرعون : (إِنَّهُ طَغَى) . أي أسرف في الدعوى حيث قال : (أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى) . والمعنى في الآية يمدهم بطول العمر حتى يزيدوا في الطينان فيزيدهم في عنابهم .

قوله تعالى : (بِمَهْوُونٍ) يسمون ، وقال مجاهد : أي يترددون متعبرين في الكفر ، وحكى أهل اللغة : عمه الرجل يعمه عموها وعمها فهو عمه وعمه إذا حار ، ويقال : رجل عامه وعمه : حار متدد ، وجمعه عمه ، وفحيت إبله الممهي إذا لم يدرك أين ذهبت . والمعنى في اللبن ، والمعنى في القلب ، وفي التثنية : (فَإِنَّمَا لَا تَعْنَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْنَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ) .

قوله تعالى : (أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهَدَى) . قال سيويه : ضمت الواو في اشتروا فرقا بينها وبين الواو الأصلية ، نحو : (وَأَنْ لَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ) . وقال ابن كيسان : الضمة في الواو أخف من غيرها لأنها من جنسها . وقال الزجاج : حركت بالضم كفاعل في نحن . وقرأ ابن أبي إسحاق ويحيى بن يعمر بكسر الواو على أصل النقاء الساكنين . وروى أبو زيد الأنصاري عن قنبل أبي السبال العدوي : أنه قرأ بفتح الواو خلفه الفتحة وأن ما قبلها مفتوحا ، وأجاز الكسائي هزل الواو وضما كأدود . واشتروا من الشراء ، والشراء هنا مستعار ، والمعنى استحبوا الكفر على الإيمان كما قال : (فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى) . فغير عنه بالشراء لأن الشراء إنما يكون فيما يحبه مشتريه ، فاما أن يكون معنى شراء المعاضة فلا ، لأن المنافقين لم يكونوا مؤمنين فيؤمنون بإيمانهم . وقال ابن عباس : أخذوا الضلالة وتركوا الهدى ، ومعناه استبدلوا واختاروا الكفر على الإيمان ، وإنما

أنحريه بلفظ الشراء توسعا لأن الشراء والتجارة راجعان إلى الاستبدال، والعرب تستعمل ذلك في كل من استبدل شيئا بشيء، قال أبو ذؤيب :

وان ترعيني كنت أجهل فيكم * فإني اشتريت الحلم بصدك بالجهل

وأصل الضلالة : الحيرة ؛ ويسمى النسيان ضلالة لما فيه من الحيرة ؛ قال جل وعز :
 ﴿ فَتَلَّهَا لِفْدًا وَإِنَّا مِنَ الضَّالِّينَ ﴾ . أى التامسين ؛ ويسمى الهلاك ضلالة ؛ كما قال عز وجل :
 ﴿ وَقَالُوا إِنَّمَا ضَلَّلْنَا فِي الْأَرْضِ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ لَمَّا رَمَحَتْ نِجَارَتُهُمْ ﴾ . أسند تعالى الرمح إلى التجارة على مادة العرب في قولهم :
 رمح يبعك، وخسرت صفقتك ؛ وقولهم : ليل قائم، ونهار صائم ؛ والمعنى ربحت وخسرت في بيعك،
 وقتت في ليالك وصمت في نهارك ؛ أى فما ربحوا في تجارتهم ؛ وقال الشاعر :

نهارك هائم وليسك قائم * كذلك في الدنيا تعيش البهائم

أبن كيسان : ويجوز تجارة وتجارت، وضلالة وضلال .

﴿ وَمَا كَانُوا مُتَّبِعِينَ ﴾ في اشتراطهم الضلالة ؛ وقيل : في سابق علم الله . والاحتماء ضد الرشاد ؛
 وقد تقدم .

قوله تعالى : ﴿ مَثَلُهُمْ كَمِثْلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا ﴾ . فظهم رفع بالابتداء والخبر في الكاف، فهو
 اسم كما هي في قول الأضفى :

أتبهون ولن ينهى ذوى شطط * كالطعن يذهب فيه الزيت والقتل

وقول امرئ القيس :

ورحنا بكابن الماء يحبب وسطنا * تصوب فيه العين طورا وترقى

أراد مثل الطعن، ومثل أبى الماء ؛ ويجوز أن يكون الخبر محذوف تقديره منهم مستعبر
 كمثل الكاف على هذا حرف . والمثل والمثل والمثل واحد ومعناه الشبه، والمثاكلن، المتشابهان
 هكنا قال أهل اللغة .

قوله : ﴿ الَّذِي ﴾ يقع الواحد والجمع ؛ قال ابن السجري حبة الله بن ملي ؛ ومن العرب من جازى
 بالجمع بلفظ الواحد كما قال :

وإن الذي حانت يفلج دماؤهم = هم القوم كل القوم يا أم خالد

وقيل في قول الله تعالى : (وَالَّذِي بَاءَ بِالصَّدَقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمَتَّقُونَ) . إنه بهذه اللغة ، وكذلك قوله : (مَتَّعَهُمْ كَيْلَ الَّذِي) . قيل : للمعنى كمثل الذين استوفدوا ، ولما قال : (ذَهَبَ اللَّهُ يَنْوِرُهُمْ) . فعمل أول الكلام على الواحد ، وآخره على الجمع ، فأما قوله تعالى : (وَحُضِّمُوا كَالَّذِي خَاضُوا) . فإن الذي خاضها وصف لصنبر مخوف قديره وحُضِّمَ كالخوض الذي خاضوا . وقيل : إنما وحد الذي واستوفد لأن المستوفد كان واحدا من جماعة تولى الإيقاد لهم ، فلما ذهب الضوء وجع عليهم جميعا فقال ينورهم ، واستوفد بمعنى أوقد ، مثل استجاب بمعنى أجاب ، فالسين والتاء زائدتان قاله الأخفش ، ومنه قول الشاعر :

وداع دما يلمن يجب إلى النعا = فلم يستجبه عند ذلك عجيب

أى عجيبة ، واختلف النحاة في جواب لما ، وفي عود الضمير من نورهم ؛ قيل : جواب لما محذوف وهو طفت ، والضمير في نورهم على هذا للتائقين ، والإخبار بهذا عن حال تكون في الآخرة كما قال تعالى : (فَضْرِبْ يَمِينُكَ لِمِمْزُورِ الْبَابِ) . وقيل : جوابه ذهب ، والضمير في نورهم مائد على الذي ، وعلى هذا القول يتم تمثيل التائق بالمستوفد لأن بقاء المستوفد في ظلمات لا يبصر كبقاء التائق في حيرته وتردده ، والمعنى المراد بالآية ضرب مثل للتائقين ، وذلك أن ما يظهره من الإيمان الذي ثبت لهم به أحكام المسلمين من المتاح والتوارث والنفقة ، والأمن على أنفسهم وأولادهم وأموالهم بمثابة من أوقد نارا في ليلة مظلمة فاستضاء بها ، ورأى ما ينبغي أن يتقيه وأمن منه ؛ فإذا طفت عنه لم تذهب وحصل إليه الأذى وبقي متعبا ، فكذلك التائقون لما آمنوا اقتروا بكلمة الإسلام ، ثم يصيرون بعد الموت إلى العذاب الأليم ، كما أخبر التنزيل : (إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ) ويذهب نورهم ، ولهذا يقولون : (أَنْظُرُوا قَتَيْسَ بْنِ نُوَيْرٍ) . وقيل : إن إقبال التائقين إلى المسلمين وكلامهم معهم كالنار ، وانصرافهم عن مودتهم وارتكاسهم عنهم كدهائها . وقيل غير هذا .

قوله : (فَأَرَى) انصار مؤمنة وهي من النور وهو أيضا الإشراق ، وهي من الأوائل لأن قول في الضمير : نورية ، وفي الجمع نور والنور ، وتيران انقلب الواو إلى كسر ما قبلها ، وضاعت

وأضأت لنتان، يقال : ضاء القمر بضوء ضوئاً وأضاء بضئاً، ويكون لازماً ومتعدياً، وقرأ
محمد بن السميع : ضامت بنير ألف والعمامة بالألف، قال الشاعر :

أضامت لم أحسابهم ووجوههم • دجى الليل حتى نظم الجزع ثاقبه

(مَا حَوْلَهُ) ما زائدة مؤكدة، وقيل : مفعولة بأضامت، وجوله ظرف مكان والماء في موضع
خفض بإضافته إليها . و (ذَهَبَ) وأذهب لنتان من التهاب، وهو زوال الشيء . (وَرَكَّبَهُمْ)
أى أبقاهم . (فِي ظُلُمَاتٍ) جمع ظلمة، وقرأ الأعمش : ظلمات باسكان اللام حل الأصل، وبين
قراها بالضم فالفرق بين الاسم والتمت، وقرأ أشهب العقيلي : ظلمات بفتح اللام، قال البصريون
أبدل من الضمة فتحة لأشبا أخف . وقال الكسائي : ظلمات، جمع الجمع، جمع ظلم . (لَا يَبْصُرُونَ)
فعل مستقبل في موضع الحال، كأنه قال : غير مبصرين، فلا يجوز الوقف على هذا، على ظلماته

قوله تعالى : (ثُمَّ بَدَأْهُمْ) هم أى هم هم، فهو خبر ابتداء مضمر، وفي قراءة عبد الله بن
مسعود وخفصة : صما بكاء عمياً، فيجوز النصب على التثنية، كما قال تعالى : (مَلْؤَيْنَاهُمُ أَجْنَامًا يَقُولُوا)
وكما قال : (وَأَمَّا أَنَّهُ حَالَةٌ الْخَطْبِ) . وكما قال الشاعر :

سقوني الخمر ثم تكفوني • ملأه الله من كذب وزور

فنصب ملأه الله على التثنية، فالوقف على يبعثون على هذا المنهج صواب حسن، ويجوز أن
ينصب صما بتركهم، كأنه قال : وتركهم صما بكاء عمياً، فبلى هذا المنهج لا يحسن الوقف على
يبعثون . والصمم في كلام العرب : الانسداد، يقال : فتاة صماء إذا لم تكن بجوفاء، وصممت القلوادة
إذا سدتها، فالأصم : من انسدت خروقه مسامحه، والأبكم : الذى لا ينطق ولا يفهم، فلذا فهم فهو
الأخرس، وقيل : الآخرس والأبكم واحد، ويقال ويل أبكم ويكم أى أخرس بين الخمرس
والبكم قال :

فليت لسانى كلن نصفين منهما • بكم ونصف عند مجرى الكواكب

والعمى : ذهاب البصر وقد عمى فهو أعمى، وقوم عمى، وأعماه الله، وتعمى الرجل لوى قاص
من نفسه، وعمى عليه الأمر إذا التبس، ومنه قوله تعالى : (فَصَبَّحْتَ عَلَيْهِمُ الْآبَاءُ يَوْمَئِذٍ) .

وليس الغرض بما ذكرناه حتى الإدراكات عن حواسهم جملة، وإنما الغرض فيها في جهة ما؛
نقول : فلان أصم من الخنا ؛ ولقد أحسن الشاعر حيث قال :

• أصم عما ساء سميع •

وقال آخر :

وعوراء الكلام صممت عنها • ولو أتى أشاء بها سميع

وقال الدارمي :

أعمى إذا ما جارتى نرجعت • حتى يولوى جارتى الجسد

وقال بعضهم في وصاته لرجل يكثر السخول على الملوك :

أدخل إذا ما دخلت أعمى • وأنرج إذا ما نرجت أنرجس

وقال قتادة : صم عن استماع الحق، بك من التكلم به، صم عن الإبصار له .

قلت : وهذا المعنى هو المراد في وصف النبي صلى الله عليه وسلم ولاية آخر الزمان في حديث
جبريل " وإذا رأيت الخفأة العراء الصم اليكم ملوك الأرض فذاك من أشراطها " والله أعلم .

قوله تعالى : (هُمْ لَا يَرْجِعُونَ) أى إلى الحق لسابق علم الله تعالى فيهم ؛ يقال : رجع بنفسه
وجوماً، ورجعه غيره، وهذيل تقول : أرجعه غيره ؛ وقوله تعالى : (يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ
الْقَوْلَ) . أى يتلاومون فيما بينهم حسب ما بينه التتيريل في سورة سبا .

قوله تعالى : (أَوْ كَصَيْبٍ مِّنَ السَّمَاءِ) . قال الطبري : أو بمعنى الواو؛ وقاله الفراء وأشد :

وقد زعمت ليل باني فاجر • لنفسي قهاها أو عليها لجورها

وقال آخر :

قال الخلافة أو كانت له قدرا • كما أتى ربه موسى على قدر

أى وكانت ؛ وقيل : أو للتخدير أى مثولهم بهذا أو بهذا، لا على الاختصار على أحد الآخرين ؛
والمعنى أو كاصحاب صيب ؛ والصيب : المطر؛ واشتقاقه من صاب يصوب إذا نزل؛ قال طقمة :

فلا تملئ بي وبني وميم • سمكتك روايا الزن حيث تصوب

وأصله : صوب اجتمعت الياء والواو وسبقت إحداهما بالسكون فقلت الواو ياء وأدغمت ؛
كما فعلوا في ميت وسيد وميم ولين ؛ وقال بعض الكوفيين : أصله صوب على مثال فعل ؛ قال

إذا كان « القرطبي » سينطق في محله وأحد فتتزع هذه الزوجة

كتاب الشعب

سلسلة قصص الصبيان والصبايا

مع الباعة
والكتبات



Bibliotheca Alexandrina



0415071